طه حسين

مرآة الإسلام



دار المعارف

مِـرْآةُ الإسْلَامِ

طه حسين

مرآة الإسلام

الطبعة السادسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مرآة الإسلام

١

فى أواسط القرن السادس للمسيح كانت الأمة العربية متخلفة أشد التخلف بالقياس إلى الأمم التى كانت تجاورها ، لها فى الجنوب بقايا حضارة كانت قد درست ، ولم يكن أهل الجنوب أنفسهم يعلمون من أمرها إلا أخلاطاً هى إلى الأساطير أقرب منها إلى الحق .

كانوا يذكرون حِمير وملوكها من التبابعة ، وكانوا يذكرون سبأ ، وكانوا يذكرون الأذواء ، بل كان الأذواء ما يزالون يحتفظون بشىء من سلطانهم، يعيشون فى حصونهم ويتسلطون على أهلها وعلى من حولها فى حواضر الجنوب و بواديه .

وكانت هناك مع ذلك قبائل متبدِّية لا تخضع لأحد منهم ، وإنما تعيش عيشة الأعراب فى بواديهم . وكانت فى الجنوب مدن كبار أو صغار فيها بقية من حضارة، ولكنها لا تغنى عن أصحابها شيئاً . ولم يكن الجنوب العربى خالصاً للعرب وإنما كان الحبشة يتسلطون على جزء عظيم منه ، وعجز العرب عن إجلاء هؤلاء المحتلين فاستعانوا بالفرس على ذلك وأعانهم الفرس ولكن لا ليردوا عليهم سلطانهم ولا ليخلّصوا لهم وطنهم ، بل ليقوموا مقام الحبشة الذين أجلوهم .

وكان أهل الجنوب مع ذلك قد وصلت إليهم دعوة الدينين : اليهودى والمسيحى . وأكبر الظن أن يهوديتهم ومسيحيتهم كانتا تتأثران بجهلهم وغلبة البداوة عليهم . كالذى سنراه حين نتحدث عن شمال الجزيرة .

ومهما يكن من شىء فمن الإسراف فى الخطأ أن نظن أن أهل جنوب الجزيرة العربية فى ذلك الوقت قد كانوا على شىء ذى خطر من الحضارة بمعناها الصحيح . ولكنهم على كل حال كانوا يحيون حياة خيراً من الحياة التى كان يحياها سائر الأمة العربية فى قلب الجزيرة وشمالها .

كانت لهم بقية من زراعة وكانت تصل إليهم تجارة الهند وأشياء من تجارة الحبشة والفرس ، وكان أهل الشمال كما سنرى يسامون بهم كل عام فينقلون ما عندهم من التجارة لينشروها فى العالم المتحضر . وكان هذا كله يتيح لهم شيئاً من ثراء ، فلم يكن عيشهم قاسياً ولا غليظاً كعيش غيرهم من العرب .

وكان ما ورثوا من بقايا حضارتهم الدارسة وما وصل إليهم من الديانتين السماويتين وما أتيح لهم من هذا الثراء المتواضع — كان كل ذلك قد جعلهم أرق قلوباً وأصفى طباعاً من أهل الشمال . ولكنهم على هذا كله كانوا متخلفين بالقياس إلى الأمم المتحضرة فكانت كثرتهم الكثيرة أمية وكان أقلهم يكتبون ويقرءون .

فإذا تركنا الجنوب إلى قلب الجزيرة العربية — أى إلى نجد — فالحياة القاسية والعيش الغليظ والجهالة المطبقة ، ونظام القبائل الذى يقوم على العصبية أكثر مما يقوم على أى شىء آخر .

ولم يكن حال الشمال فى تهامة والحجاز خيراً من حال نجد ، وإن وجدت فى الحجاز مدن أو قرى ، كما كان يقال فى تلك الأيام ؛ وإن عاش أهل هذه المدن أو القرى عيشة الاستقرار والدعة لا يرحلون عن مدنهم أو قراهم تتبعاً للغيث والتماساً للكلأ ، وإنما يرحلون تجاراً إلى الجنوب فى الشتاء وإلى الشمال فى الصيف ، كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم عن قريش .

كان لأهل الطائف وأهل يثرب شيء من زراعة ؛ ولكن حياتهم كانت تقوم على زراعتهم هذه اليسيرة وعلى تجارتهم أيضاً ؛ وكانت حياة مكة تقوم على التجارة من جهة وعلى الحج من جهة أخرى ، يفد إليها العرب من أقطار الجزيرة فى موسم الحج فيقضون نسكهم ويتجرون أيضاً وتنتفع مكة بما يحملون من ألوان التجارة .

ومن حول هذه المدن أو القرى كانت البوادى بما فيها من شظف العيش وقسوة الحياة والتنقل فى التماس المراعى ، والخصومات المتصلة التى تثيرها العصبية بين القبائل ، والتى تنتج الغارات والحروب . ومع ذلك فلم يستطع أهل هذه المدن أو القرى أن يبرءوا من العصبية ، ولا أن يعيشوا عيشة المتحضرين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ؛ وإنما كانت العصبية قوام حياتهم ، يعيشون عيشة القبائل فى البادية ، وقد تثار بينهم الخصومات ، وقد تشب بينهم الحروب .

وكان هذا كله يستتبع كثيراً من جفاء الأخلاق وغلظ القلوب ، بحيث لم تكن حياة أهل القرى تمتاز من حياة أهل البادية إلا بشيء من ثراء كانت تستأثر به قلة من الأغنياء ، الذين يتسلطون على من

يعيش معهم من الناس تسلطاً لا يخلو من عسف وظلم وأثرة واستعلاء . وكانت اليهودية قد استقرت فى شمال الحجاز لأسباب لا نحققها ولا يبينها التاريخ ، فإلى جانب الأوس والخزرج فى يثرب كانت تعيش قبائل يهودية ، وفى خيبر كذلك . وهذه القبائل اليهودية كانت تحيا نفس الحياة التى كان العرب يحيونها من حولها ، قليل من حضارة وكثير من بداوة .

وكانت كثرة اليهود فى الحجاز أمية كالعرب ، لا يقرأ ولا يكتب منهم إلا أحبارهم . وكان هؤلاء الأحبار أقرب إلى الجهل منهم إلى العلم ، وقليل منهم من كان يحسن العلم بدينه فكيف بسائر اليهود !

وسنرى فيما يأتى من هذا الحديث كيف صور القرآن الكريم جهل اليهود من أهل الحجاز دينهم وكتابهم . ولسنا نعلم على سبيل التحقيق متى وصلت بعض القبائل العربية إلى أطراف الشام وأطراف العراق .

ولكن المحقق أن العرب فى ذلك العصر الذى نتحدث عنه كانوا قد جاوزوا الجزيرة العربية شمالا إلى الشام واستقروا فى أطرافه ، وأنهم كذلك كانوا قد جاوزوا جزيرة العرب شرقاً إلى العراق وإلى الجزيرة . وغلبت النصرانية على أولئك وهؤلاء ، ولكنها كانت نصرانية خاصة يجهل أصحابها حقائقها ولا يكادون يعرفون منها إلا مظاهر وصوراً .

وكما أن الإمبراطورية البيزنطية قد حمت هؤلاء العرب فى الشام واتخذت منهم حرساً للحدود بينها وبين الجزيرة العربية وجعلت منهم

ملوكاً وسادة . وأجزلت لهم العطاء ويسرت لهم سبل العيش ؛ فكذلك صنعت الإمبراطورية الفارسية بالعرب الذين استقروا فى العراق ، اتخذتهم حرساً للحدود بينها وبين الجزيرة العربية وجعلت منهم ملوكاً وسادة وملّكت بعضهم الأرض وأغدقت عليهم العطاء .

٢

وإذن فقد عرف العرب النصرانية فى الشام والعراق، وربما عرفوها فى مكة أيضاً وفى الطائف بفضل التجارة من جهة، وبفضل من كان يصل إليهم من الرقيق من جهة ثانية ، وبفضل بعض التجار الذين غامروا بأنفسهم وبتجاراتهم فوصلوا إلى مكة واستقروا فيها . وكذلك عرف العرب المسيحية فى الجنوب فى مدينة نجران التى اضطُهِد المسيحيون من أهلها وعذبوا فى دينهم كما يحدثنا المؤرخون ، وعرف العرب اليهودية فى جنوب الجزيرة وشمالها .

فليس صحيحاً إذن أن الأمة العربية فى ذلك العصر كانت تعيش فى عزلة لا تعرف من أمر الأمم المجاورة لها شيئاً ؛ فاليهودية والمسيحية لم تتنزلا على أهل الجنوب ولا على أهل الشمال من السماء وإنما جاءتا أولئك وهؤلاء من الاتصال بالأمم المتحضرة المجاورة .

وليس من شك فى أن بعض العرب الذين جاوروا الفُرس وخضعوا لسلطانهم خضوعاً ما قد عرفوا المجوسية الفارسية واتخذوها لهم ديناً . وقد يقال إن أهل البادية فى نجد وتهامة والحجاز كانوا بمعزل من هذا كله قد انقطعوا لأنفسهم وفرغوا لحياتهم تلك الغليظة القاسية ؛ ولكن هذا أيضاً لا يستقيم ؛ فمن عرب البادية والقرى ظهر شعراء كانوا يُلمون بعرب الشام وعرب العراق ويأخذون جوائز ملوكهم وسادتهم ويعودون بعد ذلك إلى قومهم فى البادية فيحدثونهم بما رأوا وما سمعوا .

وهذه التجارة المتصلة بين أهل القرى وبين الأمم المجاورة كانت جديرة أن تُعرِّف العرب كثيراً من شئون الفرس والروم والحبشة أيضاً . ولأمرٍ ما تنصر أفراد من قريش كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو ؛ ولأمرٍ ما نجد فيما يُنسب إلى بعض الشعراء فى ذلك العصر من الشعر ما يدل على أنهم قد عرفوا أطرافاً من المسيحية واليهودية كالذى نجده عند النابغة الذبيانى وعند زُهير وعند الأعشى وعند أمية بن أبى الصّلت الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى الشيخان : « كاد أمية بن أبى الصلت أن يُسلم » .

ونحن لا نجد عند الشعراء هذه الأطرافَ من الديانتين اليهودية والمسيحية فحسب وإنما نجد عندهم – إن صح ما يُنسب إليهم من الشعر – وصفاً لأطراف من حضارة تلك الأمم كوصفهم لمجالس اللهو والشراب والغناء وغير ذلك .

فعزلة الأمة العربية إذن سخف من السخف لا ينبغى أن يقبل أو يطمأن إليه . وكل ما فى الأمر أن قلب الجزيرة العربية وشمالها لم يخضعا لسلطان أمة متحضرة ، وإنما خلّى بينهما وبين الحياة الحرة يحياها أهلهما كما يريدون أو كما يستطيعون . فعاشوا عيشتهم تلك الغليظة الجافية لم تصل إليهم الحضارة وإنما وصلت إليهم أطراف منها . فهموا بعضها وقصروا عن فهم بعضها الآخر . فسيطرت عليهم جاهليتهم بكل ما فيها من الآثام والشرور والمنكرات .

٣

وكان لهم دين غليظ كحياتهم هو هذه الوثنية الساذجة الغليظة التي لم تفكر فيها عقولهم ولم تمتزج بقلوبهم، وإنما كانت أخلاطاً ورثوها عن آبائهم فلم يغيروا منها شيئاً بل أنكروا كل من حاول أن يغير منها شيئاً كالذى صنعت قريش بزيد بن عمرو حين أظهر السخط على دينها .

وإذا أردنا أن نحلل هذا الدين الذى كانت العرب تدين به فى غير فقه ولا تعمق ، فسنرى أولا أنهم لم يكونوا ينكرون أن للسموات والأرض وما فيهن خالقاً هو الإله الأعظم . واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ﴾ .

ثم اقرأ إن شئت هذا البيت الذى أحبه النبي صلى الله عليه وسلم من شعر لَبيد فيما روى الشيخان :

ألا كُل شيء ما خلا الله باطلُ وكل نعيم لا محالةَ زائلُ

ولكن علمهم بوجود الله كان ساذجاً لم يبلغ أعماق قلوبهم ولم يصل إلى دخائل ضمائرهم ولم يمتزج بنفوسهم . فاتخذوا من دون الله آلهة قريبة منهم يرونها بأبصارهم ويلمسونها بأيديهم ، بل قد يصنعون كثيراً منها بأيديهم كهذه الأصنام التى كانوا يتخذونها من الحجارة أو من الخشب وكهذه الأشجار التى كانوا يعظمونها ويُطيفون بها . ثم لم يكتفوا بذلك بل اعتقدوا أن الأرض التى يعيشون عليها ليست خالصة لهم

وإنما يعيش عليها معهم كائنات أخرى حية هى أقوى منهم قوة وأشد منهم بأساً ، كائنات لا يرونها ولكنهم قد يسمعونها وقد يخيل إليهم أنهم يرون آثارها ، وهى كانت — فيما زعموا — تخالط آلهتهم وتجرى على أيديها بعض الأحداث وربما خالطت أفراداً منهم فأنطقتهم بأشياء فيها إنباء بما كان وإنباء بما سيكون ، وهذه الكائنات هى الجن أى الكائنات المستخفية المستورة التى لا يراها الناس ولكنهم يرون — فيما زعموا — بعض ما تفعل ويتلقون منها — فيما زعموا أيضاً — بعض ما تقول .

ربما اعتقدوا أن الآلهة التى كانوا يتخذونها ليست فى أنفسها خالقة لشىء ولا مدبرة لشىء ولكنها واسطة بينهم وبين الإله الأعظم الذى خلق السموات والأرض والذى يدبر الأمر كله فهم لا يعبدون هذه الآلهة لأنها تستطيع وحدها أن تنفعهم أو تضرهم وإنما يعبدونها لتشفع لهم عند الله ولتقربهم إلى الله زلفى كما نقرأ فى القرآن الكريم .

فهم مشركون لا يجحدون الله ولا يعبدونه وحده وإنما يعبدون معه آلهة أخرى يتخذونها واسطة بينهم وبينه :

وتمضى القرون على هذا النحو من الوثنية فتضاف إليه على مر الزمان الخرافات والسخافات وإذا هم يقربون إلى آلهتهم كأنهم يرشونها لتشفع لهم عند الله ، وهم يستشيرونها فى أكثر أمرهم ويستقسمون عندها بالأزلام ، وهم يرضون عنها حين ترضيهم ويسخطون عليها حين تسخطهم لا يخطر لهم أنها أعجز من أن ترضى أو تسخط وإنما يحاولون الأمر ويستعينون بآلهتهم ، فإن تم لهم ما حاولوا من الأمر رضوا وزعموا أن الآلهة

قد سمعت لهم وأجابتهم إلى ما طلبوا ، وإن لم يتم ما حاولوا سخطوا وزعموا أن آلهتهم لم تستجب لهم ولم تُغنهم .

كذلك كانت هذه الوثنية ساذجة إلى أقصى حدود السذاجة ، سخيفة إلى أبعد غايات السخف . ولم يفكر هؤلاء العرب الوثنيون فيما يمكن أن يكون بعد الموت بل قدروا أن لهم حياتهم هذه التى يحيونها على الأرض وأن آلهتهم وسطاء بينهم وبين الله على أن يقضوا آرابهم وينفقوا حياتهم هذه كأحسن ما يحبون ، فإذا أدرك الموت جيلا منهم مضى لسبيله وجاء جيل بعده وقد ورث عنه دينه وآراءه فى الله الذى خلق السموات والأرض ، وفى هذه الآلهة التى تسعى لهم عند الله فيما يريدون من الخير ، وفى رد ما يخافون من الشر والمكروه .

وكثير من هؤلاء العرب الوثنيين كانوا يتصلون بالمسيحيين واليهود يسمعون منهم ويقولون لهم ويعاملونهم فى شؤون الحياة على اختلافها ، ولكنهم على ذلك لا يتأثرون بما يرون من دينهم ومن مذاهبهم فى الحياة .

٤

ولا أكاد أشك فى أن وثنية أهل مكة لم تكن صادقة ولا خالصة وإنما كانوا يتجرون بالدين كما كانوا يتجرون بالعروض التى كانوا يجمعونها من الجنوب ومن أنحاء الجزيرة العربية لينقلوها إلى أقطار أخرى من الأرض كانت محتاجة إليها . فهم كانوا أذكى قلوباً وأنفذ بصيرة وأكثر ممارسة لشؤون الحياة فى قريتهم تلك وفى غيرها من المواطن التى كانوا يختلفون إليها بتجارتهم . وهم كانوا بحكم ممارستهم للتجارة يتصلون بأمم متحضرة فى الشام ومصر وفى العراق وبلاد الفرس أيضاً . وكانوا يرون مذاهب هذه الأمم فى الحياة ومذاهبهم فى الدين أيضاً . فلم يكن من الممكن أن يؤمنوا لهذه السخافات التى كان يؤمن بها العرب الوثنيون .

فإذا أضفت إلى ذلك أن الكعبة كانت بين ظهرانيهم وأن العرب كانوا يحجون إلى هذه الكعبة من جميع أنحاء الجزيرة وأنهم لم يكونوا يأتون مكة للحج وحده ، وإنما كانوا يأتون للحج والتجارة أيضاً فى تلك الأسواق التى كانت تقام كل عام قريباً من قريتهم . عرفت أنهم إنما كانوا يظهرون الإيمان بتلك الوثنية والتعظيم لتلك الآلهة ترغيباً للعرب فى الحج وتحقيقاً لمنافعهم منه .

والذى نراه من حياة قريش قبيل الإسلام وحين بعث النبى صلى الله عليه وسلم فيهم يدلنا أوضح الدلالة وأقواها على أنهم لم يكونوا أهل إيمان ولا أصحاب دين ، وإنما كانوا قبل كل شىء أصحاب تجارة يسعون فيها

عامهم كله ، تسافر قوافلهم فى جمع العروض ثم تعود فتستقر فى مكة وقتاً لتسافر بعد ذلك بهذه العروض تحملها إلى الآفاق . ولم يكونوا يؤثرون على تجارتهم شيئاً ولم يكن يشغلهم إلا التفكير فى جمع المال من أغنيائهم وأوساطهم وفقرائهم أيضاً لجلب العروض ثم بيعها وجلب عروض أخرى لبيعها فى الجزيرة العربية نفسها وفى توزيع الأرباح التى تحققها التجارة على أصحاب الأموال . فكانوا ينفقون عامهم فى أخذ وعطاء وانتقال واستقرار يتحدثون فى المال والتجارة إذا لقى بعضهم بعضاً ، ويفكرون فى المال والتجارة إذا خلوا إلى أنفسهم ، وإذا شغفت النفوس بالمال وجدّت فى جمعه واستثماره شغلت به عن كل شىء وملك عليها أمرها كله وأوشك أن يكون لها إلهاً تعبده وحده لا تشرك به شيئاً .

والمال فتنة لقلوب الرجال يفسد عليها كل شىء ويوشك أن يصرفها عن كل خير . وكذلك كانت قريش فى ذلك العصر : مؤمنة بالمال مذعنة لسلطانه لا يعنيها إلا أن تستثمره وتكثّره وتضيف بعضه إلى بعض وتستمتع أثناء ذلك بما يمكن أن يتيح لها من طيبات الحياة وخبائثها أيضاً . فقريش كانت تحب الترف بمقدار ما يتاح لمثلها منه ، وتحب التسلط بشرط ألا ينقص من مالها شيئاً .

وإذا أردت أن تصور مكة كما كانت فى ذلك العصر ، فاذكر مدينة من مدن الفينيقيين الذين لم يكن يعنيهم إلا التجارة والمال ، واذكر بعد ذلك أن المدن الفينيقية لم يكن فى واحدة منها بيت يجمع الناس إليه من الآفاق كما كانت الحال فى مكة .

وكان سكان مكة فى ذلك العصر يأتلفون من طبقات ثلاث :

طبقة لها كل الحقوق : وهى قريش تستند حقوقها إلى ما كانت ترى من شرف أصولها أولا ومن أنها صاحبة البيت ثانياً . وكانت هذه الطبقة الشريفة المستأثرة بالحقوق كلها تنقسم فى نفسها إلى : فئة الأغنياء أولى الثراء العريض ، وفئة الذين يملكون من المال ما يتيح لهم أن يتجروا سواء سافروا للتجارة أو اكتفوا بإعطاء أموالهم للمتجرين .

وفئة أخرى فقيرة قد تملك القليل وتتجر فيه وقد لا تملك شيئاً فهى مضطرة إلى أن تعمل لتعيش .

وهذه الفئات الثلاث من قريش كلها متساوية فى الشرف وفى الاستمتاع بالحقوق ، وهى من أجل ذلك تكوّن فئة ممتازة لطبقة السادة .

وتأتى بعدها طبقة أخرى : هى طبقة الحلفاء وهم ناس من العرب على اختلاف قبائلهم آووا إلى مكة ليأمنوا فيها ، فهى مدينة حرام يأمن اللاجئ إليها مهما تكن جنايته وجرائره على قومه ، وناس من العرب آخرون تسامعوا بغنى قريش ودعة الحياة فى مكة فأقبلوا يبتغون فضلاً من رزق . وكل هؤلاء وأمثالهم لم يكن يُتاح لهم المقام المطمئن فى مكة إلا إذا حالفوا حيّاً من أحياء قريش أو فرداً من أفرادها . فهم أحرار إذا حفظوا حق الحلف والجوار تحميهم قريش فيأمنون ويسعون فى الرزق، ولكنهم ليسوا من قريش ، وإنما هم طبقة دونها تعيش فى ظلها ولا تشارك فى حقوقها .

وطبقة ثالثة : هى الرقيق الذى لا حق له حتى فى نفسه، يملكه سيده كما يملك ما فى بيته من أداة، ويسخره فيما يريد من أمره كما يشاء ، ليس

له أن ينكر ولا أن يعترض ، وإنما عليه أن يسمع و يطيع. وسيده يملك أن يحرره بالعتق كما يملك أن يبيعه أو يهبه ، كما يملك أن يعاقبه أشد العقوبة وأيسرها وله عليه حق الموت والحياة ، ولكن قريشاً لم تكن تغلو فى استعمال هذا الحق .

وإلى جانب هذه الطبقات الثلاث كان يعيش بمكة شُذّاذ من الآفاق ليسوا عرباً ولكنهم عجم من أمم مختلفة ، أقبلوا متجرين بتجارة تحتاج إليها الطبقة الغنية والوسطى . بعض هؤلاء كان يتجر باللهو : يسقى الخمر ، ويُسمع الغناء ، ويلهى من احتاج إلى اللهو من شباب قريش بألوان من المتاع ليس من السهل أن يوجد فى البيئات العربية ، وبعضهم كان يتجر بالنقد يصرف الدنانير والدراهم ويقوم الذهب والفضة بهذين النقدين .

وكان هؤلاء الأجانب يعيشون فى أمن لا يعرض لهم أحد بمكروه لمكان الحاجة إليهم ، وأكثرهم كانوا من المسيحيين أقبلوا من بلاد الروم ، وربما كانوا ينفعون قريشاً بما يحدثونهم من أحاديث بلادهم وبما يفتحون لهم فى هذه الأحاديث من أبواب التجارة والربح .

كذلك كانت تعيش مكة فى ذلك العصر ، يضطرب فيها هؤلاء السكان على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وأجناسهم . وواضح أن أكثر الرقيق لم يكونوا عرباً فلم تكن قريش صاحبة حرب ؛ لأن المال والتجارة لا يحبان الحرب .

فكانت تشترى هؤلاء الرقيق فيما كانت تشترى من العُروض، وربما اتجرت فيهم أحياناً . ولكنها كانت تشتريهم فى أكثر الأحيان لمنافعها

ومآربها وحاجاتها المختلفة وواضح أن هؤلاء الرقيق لم يكونوا يدينون دين سادتهم وإنما كان منهم المسيحى واليهودى والمجوسى حسب البلاد التى نشئوا فيها واجتلبوا منها . ومن الطبيعى أن أغنياء قريش وأهل الطبقة المتوسطة منهم لم يكونوا يعملون إلا فى التجارة ، فكان الرقيق يكفونهم حاجاتهم اليومية : يرعون عليهم ما كانوا يملكون من الإبل والغنم ويعنون بما كانوا يملكون من الخيل ، ويعملون فيما كانوا يملكون من الأرض خارج مكة فى الطائف أو فى غيرها ويقومون بخدمتهم فى دورهم ويخدمونهم فى أسفارهم فى الصيف والشتاء وربما كان بعضهم يحسن حرفة من الحرف ، فكان سادتهم يسخرونهم فى اصطناع حرفهم هذه والاكتساب منها على أن يكون كسبهم لسادتهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلا ما يقوتهم ويقيم أودهم .

وكذلك اجتمعت فى مكة أجناس مختلفة من الناس وألوان مختلفة من الديانات . وكان من الطبيعى أن يؤثر هذا كله فى حياة قريش . وليس شىء أشد تأثيراً فى حياة الناس من اتصالهم بالأجناس المختلفة ذوى الحضارات والديانات المختلفة . وهذا هو الذى يفسر لنا ما امتازت به قريش من العرب كافة — فى ذلك العصر — من ذكاء القلوب وسعة الحيلة ونفاذ البصيرة وبعد النظر وحسن السياسة لأمورها كلها والبراعة فى القيام على المال واستثماره وفى فهم الناس والنفوذ إلى أعماقهم .

ولكن قريشاً على ذلك كانت تسكن قرية فى واد غير ذى زرع ، قرية منقطعة انقطاعاً تامًّا من البلاد المتحضرة . كل شىء كان يؤهل

قريشاً وقريتهم للحضارة وللحضارة الممتازة لولا هذا الانقطاع الذى فرض عليها .

ومن الحق أن قريشاً كانت تتصل اتصالا منتظماً بالبلاد المتحضرة بحكم أسفارها فى التجارة ولكن الحضارة لا تنقل من مكان إلى مكان كما تنقل العروض، وإنما تنشأ فى بيئة من البيئات تنبت من الأرض ثم تقوى وتشتد ويزيدها الاتصال بالأمم المتحضرة نمواً وازدهاراً .

٥

كذلك كانت تعيش قريش فى القرن السادس للمسيح ، ليس من اليسير أن نحدد لها نظاماً من نظم الحكم التى يعرفها الناس فلم يكن لها ملك ولم تكن جمهورية أرستقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة أيضاً ، ولم يكن لها طاغية يدبر أمورها على رغمها، وإنما كانت قبيلة عربية قد احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية . فهى منقسمة إلى أحياء وبطون وفصائل ، والتنافس بين هذه الأحياء والبطون والفصائل قائم يشتد حيناً ويلين حيناً آخر ، ولكنه لا يصل إلى الخصومات الدامية كما كانت الحال فى البادية ، وأمور الحكم – إن صح أن يذكر لفظ الحكم – تجرى كما كانت تجرى فى القبيلة البادية . وكل ما وصلت إليه قريش من التطور فى شؤون الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يُرجع إليه فيما يشكل من الأمر وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتئم منهم مجلس فى المسجد الحرام أو فى دار الندوة ، وأمام هذا المجلس تُعرض مشكلات التجارة وتُعرض المشكلات التى تكون بين أحيائها ؛ وقد تعرض المشكلات التى تُثار بين الأفراد إن بلغت من الخطر أن تثير خصومة بين حيّين أو أكثر .

ومضى أمر قريش على هذا النحو إلى آخر العصر الجاهلى . وكأنها أحست قُبيل البعثة أن هذا النظام لا يكفل العدل الشامل الذى

يطمئن إليه الأقوياء والضعفاء جميعاً وإنما يكفل العدل بين السادة وأنصاف السادة ويخلى بين هؤلاء وبين شيء من الظلم يقع على الضعفاء من الحلفاء وممن أوَوْا إلى مكة ليقيموا فيها إقامة تقصر أو تطول .

ومن أجل هذا اجتمعت طائفة من خيار هؤلاء السادة وأقويائهم وتحالف أعضاؤها على أن يرفعوا الظلم ويقوموا دون المظلوم حتى ينتصف من الظالم ودون الضعيف حتى يأخذ حقه من القوى . وهذا الحلف هو المعروف بحلف الفُضول الذى شارك فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيمن شارك فيه من بنى هاشم قبل البعثة . وقد ذكر النبي بعد ذلك هذا الحلف وأثنى عليه .

٦

وكانت ثقيف تعيش نحو هذه العيشة فى الطائف إلا أن أمرها لم يكن كأمر قريش على الحج والتجارة . فلم يكن إلى الطائف حج لمكان الكعبة من مكة .

وكانت ثقيف قد رزقت شيئاً من الخصب فاصطنعت الزراعة وزراعة الفاكهة خاصة ، واعتمدت أو كادت تعتمد فى تجارتها على قريش ، فكانت قريش تشترى عروض الطائف وتنشرها فيما تنشر من تجارتها ، وربما أسهم بعض الأغنياء من ثقيف بأموالهم فى تجارة قريش . فكانوا كغيرهم من أهل مكة فى ذلك .

على أن شيئاً من حسن الصلة كان قائماً بين قريش وثقيف ، فكان بينهم الصهر من جهة ، وربما اشترى بعض الأغنياء من قريش أرضاً بالطائف واغترس فيها الحدائق والكروم ، وربما اتخذ بعض الأغنياء من قريش لأنفسهم دوراً فى الطائف يفزعون إليها من مكة بحيث نستطيع أن نقطع بأن قريشاً وثقيفاً كان بينهما شىء يشبه الحلف ويقوم على المصالح المشتركة فى الزراعة والتجارة جميعاً .

ولم تكن ثقيف على قوتها فى الجاهلية تمتاز بمثل ما كانت قريش تمتاز به من ذكاء القلوب ونفاذ البصيرة وإنما كانت ثقيف تمتاز بشىء من القوة والمنعة وتمتاز بالمكر والدهاء وحسن المداورة والبراعة فى الكيد للخصم أو العدو .

٧

أما يثرب فقد كان شأنها يختلف عن شأن هاتين القريتين اختلافاً شديداً ؛ فهى أولا بعيدة عنهما بعداً يحول بينها وبين مشاركتهما فى كثير أو قليل من الأمر ؛ وهى ثانياً لم تكن خالصة لقبيلة واحدة كما كانت مكة خالصة لقريش وكما كانت الطائف خالصة لثقيف ، وإنما كان يسكنها قبيلتان من العرب ترجعان إلى أصل يمنى واحد، ولكنهما تختصمان دائماً ويشتد التنافس بينهما أحياناً حتى يورطهما فى حرب تتصل وقتاً طويلا.

وهاتان القبيلتان هما الأوس والخزرج وكانت كل قبيلة منهما تمضى أمورها على طريقة القبائل لا يفرق بينهما وبين أهل البادية إلا أنهما مستقرتان فى مدينتهما لا تنتجعان الغيث وإنما تنتظرانه ، ولا تتنقلان فى التماس الكلأ . وكلتا القبيلتين كانتا تعيشان على الزراعة وعلى استثمار النخل خاصة .

ثم هناك فرق آخر بين يثرب من جهة وبين مكة والطائف من جهة أخرى، وهو أن يثرب لم تكن خالصة لأهلها من العرب وإنما كان اليهود يشاركونهم فيها . وكانت المعاملات فى الزراعة والتجارة تجرى بين اليهود وبين هاتين القبيلتين بحكم الجوار والاشتراك فى الأرض وفى المصالح على اختلافها ، وكان لكل قبيلة من الأوس والخزرج حلفاؤها من اليهود يحاربون معها إن حاربت ويسالمون معها إن سالمت .

ومن أجل هذا كله كان الفرق عظيما بين أهل يثرب من العرب وأهل

مكة والطائف ، فأهل يثرب أصحاب زراعة متصلة يزرعون ليعيشوا ولا يكادون يتجرون خارج الجزيرة العربية إلا قليلا ، وهم بعد ذلك مخالطون لأهل الكتاب من اليهود مخالطة متصلة .

فلا غرابة فى أن يؤثر هذا كله فى أخلاقهم وفى طباعهم فيجعلهم ألين عريكة وأرق شمائل وأسمح أخلاقاً . ولكنهم على ذلك ظلوا كغيرهم من العرب مشركين يعبدون الأوثان ويؤمنون بكثير مما كان أهل البادية يؤمنون به من السخافات والخرافات ، وظلوا كغيرهم من العرب يعظمون البيت الحرام بمكة ويمجدونه فى الموسم مع غيرهم من الحجيج .

وكانوا فى هذا العصر الذى نتحدث عنه قد بلغ منهم الجهد لكثرة الاختلاف بين القبيلتين وما كان ينشأ عن ذلك من الخصومات والحروب ، ثم لأن اليهود على ما كان بينهم وبين القبيلتين من الجوار واشتراك المصالح كانوا يستظهرون على هؤلاء العرب الجهال الأميين ، يستظهرون عليهم بما عندهم من كتاب ، وبما لهم من دين مهما يكن أمره فقد كان أرقى من هذه الوثنية الغليظة التى كان العرب يدينون بها .

٨

وليس غريباً — بعد هذا الذى عُرض عليك فى إيجاز من شؤون الأمة العربية فى وبرها ومدَرها — أن تنشأ عن هذه الحياة التى كانوا يحيونها أخلاق غليظة كغلظ هذه الحياة . وعادات منكرة كنكر هذه الحياة أيضاً ؛ فهؤلاء الذين يعبدون الأصنام التى يصنعونها بأيديهم ، ويعبدون الأشجار التى لا يتحرجون من أن ينتفعوا بثمارها وغصونها إن احتاجوا إلى ذلك ، لا يُنتظر منهم أن تصفو طباعهم وتمتاز أخلاقهم وتلين قلوبهم وتحسن شمائلهم بل عكس هذا كله هو الذى يُنتظر منهم .

فإذا أضفت إلى ذلك ما كانت البداوة تفرض على أهلها من الفقر والعوز وقسوة الحياة وأن أهل القرى إنما هم قوم عاشوا بُداة أولا ثم استقروا فى قُراهم بعد ذلك دون أن يضيعوا من خصائص البداوة إلا أقلها . فليس غريباً بعد هذا كله أن نعرف من عادات هؤلاء العرب ما نعرف من الغلظة والقسوة والجفاء ، وليس غريباً أن نعرف أنهم كانوا يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق . ويئدون بناتهم خشية الفقر والإملاق والعار أيضاً . وليس غريباً أن نعرف أن العلاقة بين رجالهم ونسائهم لم تكن مهذبة ولا نقية ولا مُبرأة مما يعاب ، إلى غير ذلك من العادات الكثيرة التى غيَّرها الإسلام وحفظ الشعرُ منها شيئاً غير قليل .

ومن الطبيعى أن أهل القرى كانوا أرق طباعاً من أهل البادية إلى حدٍّ ما ؛ فلسنا نعرف أن أهل مكة أو الطائف أو يثرب كانوا يقتلون

أبناءهم أو يئدون بناتهم ، حال بينهم وبين هذا ما أتيح لهم من لين العيش وسعة ذات اليد . ولكن أهل القرى كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى أهل البادية فلا ينبغي أن يتخذوا عنواناً لهم .

ومهما يكن من شيء فقد كان أهل الوبر وأهل المدر سواء فى وثنيتهم تلك الغليظة ، لم يكادوا يتأثرون تأثراً ذا بال بمن جاورهم من اليهود والنصارى . وعسى أن يكون اليهود والنصارى الذين استقروا بين العرب هم الذين تأثروا بالحياة العربية وغلظها وما كان يشوبها من العادات والأخلاق .

فقد يكون من النافع حقًّا أن نقيس نصرانية نجران إلى النصرانية التى كانت منتشرة فى البلاد المتحضرة ، وأن نقيس يهودية يثرب وخيبر إلى يهودية اليهود الذين كانوا متفرقين فى البلاد المتحضرة أيضاً . كلا الدينين انقطعت الصلة أو كادت تنقطع بينه وبين الذين كانوا يقومون عليه من الأحبار فتبدّى ، وإن استقر فى هذه القرى ؛ لأن هذه القرى نفسها كانت أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة .

وعلى كل حال فلم يكد العرب ينتفعون بما كان بينهم وبين اليهود والنصارى من اتصال وإنما ظلوا كما كانوا حتى جاءهم دينهم الجديد .

٩

وكان بين قريش رجل من أشرافهم يتجر كما يتجرون ، ويحضر مجالسهم فى المسجد وفى دار الندوة . هو عبد المطلب بن هاشم، ولكنه كان يمتاز من قومه بكثير من الوقار وميل إلى الدين والنسك ،يعظم ما كان قومه يعظمون من هذه الآلهة ، ولكن عن إخلاص وصدق لا عن تكلف ورياء . وقد أتيحت له أشياء زادته امتيازاً من قومه فخاصموه أول الأمر ثم أكبروه بعد ذلك : فهو قد احتفر بئر زمزم .

وحدث أصحاب الأخبار بأنه لم يحتفرها من عند نفسه وإنما أتاه آت فى نومه فأمره باحتفارها وبين له مكانها ، فأقبل على ما أمر به حتى أنفذه .

ويقول أصحاب الأخبار : إنه وجد كنزاً أثناء احتفار البئر قبل أن يصل إلى الماء فخاصمته فيه قريش فجعله للكعبة ولم يأخذ هو ولا غيره منه شيئاً، ثم أنبط الماء فخاصمته فيه قريش ترى أن البئر لها ، ويرى هو أنها له ؛ لأنه احتفرها بيده وأنبط ماءها بجهده . ولجت قريش فى الخصومة — فيما يقول أصحاب الأخبار — حتى أجمعوا إلى أن يحتكموا إلى أحد الكهان فأوفدوا مع عبد المطلب وفداً يخاصمونه إلى ذلك الكاهن، ولكنهم لم يحتاجوا إلى هذا الاحتكام لأن آية ظهرت لهم فى الطريق أقنعتهم بأن عبد المطلب ليس متكذباً ولا متكلفاً .

قال الرواة : وفى أثناء هذه الخصومة أحس عبد المطلب أنه

وحيد ليس له من الولد من ينصرونه فنذر لئن أتيح له عشرة منهم ليقربن أحدهم إلى الآلهة .

وقد أتيح له عشرة من الولد فأزمع أن يقرّب أحدهم وهمّ بذلك ولكن قريشاً أبت عليه لأنها استبشعت عمله هذا . وما زالت به حتى أقنعته بأن يقرع بين ابنه وبين عشرة عشرة من الإبل . فجعل كلما أقرع خرج السهم على ابنه حتى بلغت الإبل مائة فقربها إلى الآلهة ونجا ابنه ذاك الفتى .

فإذا صورت هذه القصة شيئاً فإنما تصور نزوع عبد المطلب إلى شيء من الدين وإخلاصه فيه وإسماحه في سبيله بالولد والمال جميعاً . وتصوّر كذلك عزوف قريش عن المُفْظِع من الأمر ، وإنكارها في عنف وإلحاح هذا القُربان البشع الذى يضحى فيه بالإنسان للآلهة .

على أن ذلك الفتى الذى افتداه أبوه بالإبل فأغلى فى الفداء لم يعمّر وإنما زوجه أبوه ثم أرسله إلى الشام مع قومه للتجارة . فذهب ولم يعد ، أدركه الموت بيثرب فى عودته من الشام . وقد وُلد له بعد موته صبى هو الذى اختاره الله ليأتى العرب بدينهم الجديد .

وفى تلك الأيام نفسها تعرضت مكة لخطر شديد : أقبل الحبشة إليها من اليمن غزاة يريدون أن يملكوا الحجاز كما ملكوا اليمن وأن ينشروا فى الحجاز دين المسيح كما حاولوا نشره فى اليمن بعد أن انتقموا لتلك المدينة المسيحية : نجران . وكانوا بالطبع مزمعين أن يهدموا الكعبة وأن يحطموا ما نُصب عليها من الأوثان ، ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً ؛ فهو يصد الحبشة عن مكة ويمنعهم أن يدخلوها ويردهم إلى

اليمن مدحورين قد بلغ منهم الجهد وأصابهم ما أصابهم من الشر الذى صوّره الله عز وجل أروع تصوير فى السورة الكريمة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .

وما أحب أن أعرض لتأويل هذه الطير الأبابيل التى رمت الحبشة بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول . لأنى أوثر دائماً أن أقبل النص وأفهمه كما قبله وفهمه المسلمون الأولون حين تلاه عليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وفى هذه الموقعة أظهر عبدُ المطلب من الصبر والجلَد ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف قريش . فضلا عن أوساطها وعامّتها ؛ ذلك أنه أشار على قريش أن تخلى مكة وتلوذ بشعاف الجبال وتخلّى بين هذا الجيش العظيم وبين ما يريد . فسمع له قومه وتجنبوا الحرب وأقام هو بمكة لم يعتزلها فيمن اعتزلها وإنما قام عند الكعبة يدعو الله ويستنصره .

ويقول الرواة : إن الجيش أغار فيما أغار على إبل قريش فاحتازها وجاء عبد المطلب حتى استأذن على أبرهة عظيم الحبشة وقائد جيشها . فلما أدخل عليه لم يكلمه إلا فى إبلٍ له أخذها الجيش فيما أخذ من إبل قريش .

قال الرواة : فصغُر عبد المطلب فى نفس أبرهة ، وقال له : كنت

أظن أنك جئت تكلمنى فى شأن مكة وفى شأن بيتكم هذا الذى تعظمونه ، فإذا أنت لا تسألنى إلا أن أرد عليك إبلك !

قال عبد المطلب : فإنى أكلمك فى مالى الذى أملكه فأما البيت فإن له ربًّا يحميه إن شاء .

فرُدت عليه إبله وعاد إلى مكانه من الكعبة يدعو الله ويستنصره .

قال الرواة : وأصبح أبرهة من غد مزمعاً دخول مكة وهدم البيت ولكن الله حال بينه وبين ذلك بما أرسل عليه وعلى جَيشه من تلك الطير الأبابيل التى رمتهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول .

وعادت قريش إلى مكة موفورة لم تُرزأ شيئاً فازداد إكبارهم لعبد المطلب وشجاعته وثقته وثباته حيث لم يثبتوا وإنما فروا فلاذوا بشعاب الجبال .

فى نفس هذا العام — الذى سمته قريش وسماه الرواة بعد ذلك عام الفيل — وُلد هذا الصبى يتيماً كما رأيت آنفاً فسماه عبد المطلب محمداً وكفله واسترضعه فى بنى سعد من هذيل . حتى إذا أتم الرضاعة واحتفظت به المرضع بعد رضاعه وقتاً ردته إلى أمه . فجعل ينشأ بمكة فى ظل جده الشيخ . ثم سافرت به أمه — حين كان فى السادسة من عمره — إلى يثرب تريد أن تزور وأن تُزير الصبى قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب ولكنها خرجت من مكة ولم تعد إليها كما خرج زوجها عبد الله من قبل فلم يعد إلى وطنه .

أدركها الموت فى بعض الطريق منصرفَها من يثرب عائدةً إلى مكة. وعادت بالصبى حاضنتُه بَركة — التى عرفت فى الإسلام بأم أيمن —

فقامت على خدمته فى ظل جده وأصبح الصبي يتيماً لأبيه وأمه جميعاً. على أنه لم يبلغ السابعة حتى فقد جده أيضاً فأخذه اليُتم من جميع أقطاره : فقَد أباه وأمه وجده ، ولكن الله آواه كما يقول فى سورة الضحى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ .

وكفل الصبي بعد موت الشيخ عمُّه أبو طالب فكان له نعم الكافل ونعم الوليّ . وكان أبو طالب صاحب سفر فى التجارة كغيره من أشراف قريش وأوساطها .

فيقول الرواة : إنه همّ بالسفر فى تجارته إلى الشام ذاتَ عام والصبي فى الثانية عشرة من عمره فتعلق به الصبي وألحّ فى أن يصحبه فى سفره ذاك ، ورق له قلب عمه فحمله معه إلى الشام .

ويقول الرواة : إنه لم يكد يبلغ به مشارف الشام حتى عاد به مسرعاً إلى مكة عن أمر راهب من رهبان النصارى علم من أمر الصبي ما لم يعلم عمُّه ، فأوصاه أن يرده إلى وطنه وأن يُحرزه فى مكة من مكر النصارى واليهود .

وشب الصبي فى كفالة عمه حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره شهد حرب الفجار التى كانت فى حرم مكة بين قيس وقريش .

شهد الحرب ولكنه لم يشارك فيها كان أصغر سنًّا من ذلك فكان ينبُل على أعمامه . وأكبر الظن أنه حين أينع جعل يسعى فى رزقه فكان يرعى الغنم على قومه حتى إذا نيّف على العشرين سلكت الحياة به طريقاً أخرى .

١٠

كان فقيراً لا يكاد يملك شيئاً وكان يكتسب قُوته من رعى الغنم ولكنه فتًى من قريش ومن أشرافها . ورعى الغنم قد يليق بالصبية وبأمثالهم من الذين لم يتقدم بهم الشباب ؛ فأما إذا شبوا واستتموا قوتهم فليس لهم بُد من أن يسلكوا طرقاً أخرى إلى الرزق . وعمه صاحب تجارة وقد مات أبوه تاجراً وجده كان صاحب تجارة أيضاً . فما يمنعه أن يسلك الطريق التى ألفت قريش سلوكها .

وقد أقبل عليه عمُّه ذات يوم فأنبأه بأن خديجة بنت خويلد امرأة غنية من أكثر قريش مالا وأوسطهم نسباً قد جهزت تجارة ضخمة إلى الشام ونصح له بأن يكون رسولها بتجارتها تلك . وأنبأه بأنه يستطيع أن يسعى له فى ذلك عند خديجة إن صح عزمه على السفر . فقبل الفتى ورضيت خديجة . ورأته مكة ذات يوم خارجاً فى قافلتها إلى الشام يصحبه غلام لخديجة يقال له : ميسرة . وقد بلغ الشام فباع واشترى وعاد مع القافلة فأدى إلى خديجة تجارتها وأدى إليها مع هذه التجارة ربحاً لم يتح لها فى تجارة قط . وكأن الله لم يجعل هذه التجارة إلا وسيلة لشىء آخر وراءها فقد وقع الفتى من قلب خديجة وإذا هى تُرسل إليه مغوية له بخطبتها ، وإذا هو يخطبها ثم يصبح لها زوجاً . وهى تكبره بخمس عشرة سنة فيما يقول الرواة .

ومنذ ذلك اليوم عاش فى مكة عيشة الموفورين لا يشكو حاجة

ولا يجد ضيقاً كما قال له الله عز وجل فى سورة الضحى : ﴿ووَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ .

وقد أتيح له من خديجة الولد وأتيح له معها الأمن والدّعة . ولكنه فى ذلك الطّور من أطوار حياته ظهرت فيه خصال لم تكن مألوفة فى شباب قريش : فهو شديد النُّفرة من اللهو وشديد النفرة من اللغو أيضاً ؛ وهو أبعد الناس عن التكلف وأقربهم إلى الإسماح واليسر ؛ وهو أبغض الناس لهذه الأوثان التى كان قومه يعبدونها مخلصين أو متكلفين ، وهو أصدق الناس إذا تكلم ، وأوفاهم إذا عامل ، وأبعدهم من كل ما يزرى بالرجل الكريم . وهو بعد ذلك أوصل الناس للرحم وأرعاهم للحق وأشدهم إيثاراً للبر . فهو يجد عمه الذى كفله صبيًّا ويافعاً قد كثر ولده وقل ماله ويريد أن يعينه دون أن يؤذيه فيأخذ منه صبيّه عليًّا ويرد عليه من العناية واللطف والبر بعض ما أدى إليه أبوه حين كان صبيًّا يتيما . وقد شاعت عنه هذه الأخلاق ، وعرف بهذه الخصال حتى أحبته قريش وسمته الأمين وعاملته على أنه الأمين حقًّا .

وفى ذات عام همت قريش أن تعيد بناء الكعبة فعزمت بعد تردد . ونقضت البناء وأخذت فى إعادته وشاركها الأمين فيما فعلت . حتى إذا بلغت موضع الحجر الأسود اختلفت أحياء قريش فيمن يضع هذا الحجر فى موضعه ، يرون أنّ من يتاح له ذلك سيظفر بشرف أى شرف . وما هى إلا أن يتحول الخلاف إلى خصومة تشتد وتعنف حتى يخشى شرها ، ولكن ذوى أحلامهم وأولى رأيهم يشيرون عليهم بالتحكيم وبأن يحكّموا أول داخل عليهم فيحكمونه ، فيقضى بينهم قضاء يرضيهم ويكون له

مع ذلك ما بعده . يبسط رداءه ويضع الحجر فى وسطه ثم يأمرهم بأن يأخذوا بأطراف الرداء فيحملوه ويمشوا به حتّى إذا بلغوا البناء أخذ الحجر فأقره بيده فى موضعه .

على أنه قد أخذ يميل إلى العزلة شيئاً فشيئاً ثم اشتد عليه حب العزلة فجعل يترك مكة بين حين وحين ويمضى وقد تزود لعزلته حتّى إذا بلغ غار حراء خلا فيه إلى نفسه الأيام والليالى فإذا انقضى زاده أو كاد ينقضى عاد إلى أهله فتزود من جديد ورجع إلى غاره فأوى إليه ومكث فيه ما شاء الله أن يمكث . أصبحت هذه الخلوة له عادة ولكنه يعود إلى أهله ذات يوم ولهان مفجّعاً شديد الاضطراب ويقص على خديجة شيئاً عجباً .

١١

أنبأها بأنه كان خالياً إلى نفسه فى غار حراء . ولكنه ينظر فيرى شخصاً أمامه ويسمع فإذا هذا الشخص يكلمه يقول له : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ – يريد لا أعرف القراءة – فضمه ضمًّا شديداً – أو غطّه غطًّا شديداً – كما يقول حديث الشيخين فيما يرويان عن عائشة – حتى بلغ منه الجهد .. ثم أسلمه وقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . فغطه غطًّا شديداً حتى بلغ منه الجهد . ثم أرسله فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق . اقرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَم . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

ثم استخفى حتى لا يرى النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ولا يسمع شيئاً . فيخرج من الغار وقد أخذه روع أى روع . وهو فى طريقه مسرع إلى أهله ولكنه يسمع صوتاً يناديه فينظر أمامه فلا يرى شيئاً وينظر عن يمينه فلا يرى شيئاً ، وينظر عن شماله فلا يرى شيئاً وينظر خلفه فلا يرى شيئاً فيرفع رأسه فيرى ذلك الشخص الذى أتاه فى الغار جالساً على كرسى بين السماء والأرض فيبلغ به الروع أقصاه . ويمضى أمامه لا يلوي على شيء حتى يأتى أهله مرتاعاً مذعوراً : يقول زملونى زملونى – أو دثرونى دثرونى – وصبوا علىّ ماء بارداً . فتفعل خديجة ما طلب إليها حتى يذهب عنه الروع . فيقول لزوجه بعد أن أنبأها نبأه : لقد خشيت على نفسى . تقول له خديجة : كلا والله ما يُخزيك

الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق .

قال المحدثون ورُواة السيرة : فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نَوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة — وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى — فقالت له خديجة : يابن عم اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزَّل الله على موسى صلى الله عليه وسلم ، ياليتنى فيها جذع ، ليتنى أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوَمخرجىّ هم ؟ » . قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

وكأنه لزم داره واجتنب غار حراء منتظراً ما يكون من أمره بعد ما رأى وما سمع فأُوحى إليه : ﴿ يـأَيُّها الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فطَهِّرْ . والرُّجْز فَاهْجُرْ . وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . ولِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

ومنذ ذلك الوقت ظهر له ما يراد به ، فلم يكن ما جاءه فى الغار إلا إيذاناً له بأن مهمة ثقيلة خطيرة قد ألقيت على عاتقه ، وأن عليه أن يؤديها صبوراً جلداً محتملا فى سبيل أدائها ما قد يعرض له من العنت

والمشقة والأذى ، وهو على كل حال مكلف أمرين ليس أحدهما بأقل خطراً من الآخر :

فأما أولهما ، فهو أن يجاهد نفسه ويأخذها راضية أو كارهة بما سيدعو الناس إليه من تكبير الله بالقلوب والألسنة ومن التطهير من كل دنس ظاهر أو خفي ، ومن هجر الرجز واجتناب المن واستكثار ما يأتي من طاعة الله والاجتهاد في ذاته ، ومن الصبر لربه على ما يبلوه به من ألوان البلاء ، وعلى ما يكلفه حمله من ثقال الأعباء .

وأما ثانيهما فهو أن ينذر الناس بأن حياتهم التي يحيونها ليست كما يظنون لهواً ولعباً واستمتاعاً بما يتاح لهم من اللذات واحتمالا لما يعرض لهم من الآلام والمحن والخطوب إنما هي شيء وراءه أشياء وله ما بعده . فليس لهم بد إذن من أن يحتاطوا لما وراء حياتهم من الأمر ، ومن أن يأخذوا له أهبتهم ويتزودوا بما ينبغي من الزاد .

١٢

وقد تجرد النبي صلى الله عليه وسلم لأداء ما كلف من مهمة ، وما حمل من أمانة ، فأخذ نفسه بأشد ما يأخذ الرجل به من الجهد والمشقة فى ذات الله ، وأنفذ أمر الله فى نفسه فيما اختصه به من التكاليف كما أنفذ أمر الله فى كل ما كُلف أن يأمر الناس به . وقد بدأ بأهله وذوى قرباه فأنذرهم وبشّرهم واستجاب له منهم من استجاب وأبى عليه منهم من أبى . ثم أُمِر بتعميم دعوته فأنذر قومه وبشّرهم ودعاهم إلى الإيمان والبر والمعروف . فلم يستجب له منهم إلا أقلهم ، وامتنع عليه أكثرهم . ثم لم يكتفوا بالامتناع بل لم يلبثوا أن ضاقوا به وبدعوته وجعلوا يُردّونه ردًّا رفيقاً أحياناً ويردونه ردًّا عنيفاً فى أكثر الأحيان . ثم تألبوا عليه وجعلوا يؤذونه فى نفسه وفيمن تبعه من الناس بأيديهم وألسنتهم . ثم أصبحت الحياة بينه وبين قومه جهاداً متصلا عنيفاً أشد العنف وأقواه . ولكنه صبر لهذا الجهاد كما أمر أن يصبر واحتمل فيه من ألوان المشقة ما ينوء بالرجال أولى العزم كما أمر أن يحتمل ، وجعل يصبّر أصحابه ويهوّن عليهم ما كانوا يلقون ، وما أكثر ما كانوا يلقون من ضروب الفتنة والعذاب !

وفى أثناء ذلك كان الوحى يتنزل عليه من السماء فيعلن كل ما يوحى إليه به يتلوه على من آمن معه وعلى من لم يؤمن ؛ فهو مكلف أن يبلّغ رسالات ربه . وهو يبلغها أميناً عليها مجتهداً فى تبليغها يبشر وينذر

ويرغب ويرهب ويجادل المخاصمين ويقرع حجتهم بحجة الله لا وانياً ولا مستأنياً ولا مقصراً .

وقد هابت قريش أن تؤذيه إيذاء ثقيلا أو أن تخرجه من وطنه أو أن تقتله مخافة أن يغضب له قومه من بني عبد مناف فيفسد عليها أمرها كله . فجعل حلماء قريش يصانعونه ويرفقون به . يعرضون عليه أن يملكوه عليهم إن كان يفعل ما يفعل ابتغاء الملك ، ويعرضون عليه أن يعطوه صفو أموالهم إن كان يفعل ما يفعل ابتغاء الغنى ، ويعرضون عليه التماس الطب له إن كان له رئيّ من الجن يأتيه بهذا الكلام الذي يتلوه عليهم وبهذا الأمر الذي يدعوهم إليه . فلم يكن يجيبهم إلا بأن يتلو عليهم بعض ما كان ينزل عليه من القرآن .

وكان حلماء قريش والمنصفون منهم يسمعون القرآن حين يتلى عليهم فيبهرهم بألفاظه ومعانيه ونظمه ورقته حين يرق وشدته حين يشتد . ولكنهم على ذلك لا يؤمنون له ، بعضهم يمنعه الحسد وبعضهم تمنعه الكبرياء وكلهم يشتد عليهم ما كانوا يدعون إليه من البر والمعروف والعدل والمساواة وإنصاف الفقراء من الأغنياء والضعفاء من الأقوياء ومن ترك آلهتهم وعاداتهم وكثير من الأخلاق التي وجدوا عليها آباءهم وتوارثها أجيالهم جيلا بعد جيل . وقد استيأسوا منه فلجأوا إلى عمه ذلك الذي كفله صبياً ويافعاً والذي قام دونه يحميه منذ جعل يدعو دعوته هذه الجديدة وطلبوا إليه أن يراجع ابن أخيه لعله يكف عن ذم آلهتهم وتسفيه أحلامهم وإنكار ما تعارفوا عليه من عاداتهم وأخلاقهم ومن إفساد عبيدهم وإمائهم وحلفائهم عليهم .

وقد قبل منهم أبو طالب فراجع ابن أخيه وعرض عليه ما يقول قومه ، وما يعرضون عليه من الملك وكرائم الأموال، وما ينذرونه به من البطش والعذاب . فلم يكن جوابه لعمه إلا أن قال مقالته تلك المشهورة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أرجع عن هذا الأمر ما رجعت » .

وعاد أبو طالب إلى مشيخة قريش بقول ابن أخيه . فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وإصراراً واستكباراً . فعمدوا إلى إيذائه فى أصحابه وفى الرقيق والضعفاء منهم خاصة لعلهم أن يصدوهم عن الإقبال عليه ويردوهم بعد إيمانهم كفاراً . ولعله حين يرى ذلك أن يحس ما يشق به أصحابه فيؤثر لهم ولنفسه العافية ؛ فجعلوا يعذبونهم بالضرب حيناً وبالماء حيناً وبالنار حيناً وبالموت حيناً آخر . ولكنهم لم يبلغوا بذلك منه ولا من أصحابه شيئاً . قتلوا ياسراً وزوجه سمية ذات يوم وابنهما عمّار يرى فلم يصرفوا الأبوين ولم يصرفوا ابنهما عما أراد الله لهما من الكرامة بالإيمان وإنما كان ياسر وزوجه نموذجاً رائعاً للصبر والجلد واحتمال الأذى فى غير شكاة ولا تضعضع . ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم مر بآل ياسر وهم يعذبون فلم يزد ياسر على أن يقول : الدهر هكذا يا رسول الله .

ويُحدث رواة السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » . وكان ياسر وامرأته سمية أول شهيدين فى الإسلام . فلم يجزع عمار ولم يجد الوهن إلى نفسه سبيلا بل ازداد إيماناً مع إيمانه وصبراً إلى صبره حتى استيأس منه معذبوه واضطروا إلى أن يرفعوا عنه العذاب .

ويتحدث الرواة أن عمار بن ياسر كان أول من اتخذ مسجداً فى بيته وفيه نزلت هذه الآية من سورة الزمر : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ. قُلْ هَلْ يَسْتوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ. إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوالأَلْبَاب﴾.

وعذبوا « بلالا » أشد العذاب ونكلوا به أعظم التنكيل وجعلوه هزؤاً للصبية والسفهاء فلم يرفع عنه العذاب حتى اشتراه أبو بكر وكان رقيقاً فأعتقه.

وعذبوا كثيراً غير هؤلاء — تجد أسماءهم فى كتب السيرة — ألواناً من العذاب وفتنوهم ضروبًا من الفتنة مكثوا على ذلك أعواماً لا يرقبون فى هؤلاء المستضعفين عهداً ولا ذمة ولا تعطفهم عليهم رحمة .

وكان موقف قريش من المسلمين مختلفاً فأما ضعفاؤهم وفقراؤهم فكانوا يصبون عليهم العذاب صباً لا يخافون فى تعذيبهم لوماً ولا إنكاراً . وأما أولو الشرف منهم الذين يأوون من قومهم إلى ركن شديد فكانوا يؤذونهم بألسنتهم ويؤذونهم بالقطيعة ويغرون قومهم أن يشتدوا عليهم ، ويفتنوهم عن دينهم ما استطاعوا إلى فتنتهم سبيلا . ولكنهم على ذلك لم يبلغوا منهم شيئاً ولم يصدوهم عن دينهم وإنما وجدوا منهم صبراً وجلداً واحتمالا . ووجدوا من بعضهم مقاومة وتحدياً ورداً عنيفاً . كالذى كانوا يجدونه من عمر بن الخطاب ومن حمزة بن عبد المطلب .

وكذلك مضى الأمر بين النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه القليلين وبين قريش ذات العدد والقوة والثراء لا يهن النبى ولا يضعف ولا يستخفى بدعوته . وأصحابه منهم القوى الذى يجالد عن دينه ومنهم الضعيف الذى

يلقى العذاب صابراً عليه . ومنهم الغريب الذى يستحب الأذى يراه قُربة إلى الله فيتصدى لمجالس قريش ويعلن إليهم إسلامه ويحتمل منهم إيذاءهم له كالذى كان من « أبى ذر » حين أسلم وهو غريب فى مكة . فلم يرضه إلا أن يغيظ قريشاً ويتلقى منهم اللكز والوكز واللطم والصفع حتى يغشى عليه . يفعل ذلك مرة ومرة حتى يأمره النبى أن يعود إلى قومه ويظل بينهم حتى يأتيه أمره .

وقد علمت قريش أنها لن تبلغ من النبى شيئاً بهذه الفتنة فأزمعت أن تؤذى بنى هاشم كلهم ، على أنهم لم يكونوا قد أسلموا جميعاً ولكنهم أولو عصبية النبى ورهطه الأدنون . فأجمعوا ألا يبايعوهم وألا يصهروا إليهم وألا يزوجوهم وألا تكون بينهم وبين بنى هاشم معاملة ما . واضطر بنو هاشم إلى شعبهم يعيشون فيه عيشة المحاصرين لا يكلمهم أحد ولا يعاملهم أحد ولا تصل أرزاقهم إليهم إلا بعد المشقة الشاقة والعسر العسير .

وكتبت قريش بهذه المقاطعة صحيفة جعلتها عهداً بين أحيائها حتى يخلع بنو هاشم محمداً ويسلموه إليها ، ولكن بنى هاشم صبروا على الحصار ، واحتملوا الجهد والمشقة والعناء إيثاراً لأحسابهم . ومكثوا على ذلك عاماً وعاماً وعاماً حتى شق ذلك على الذين يحاصرونهم أنفسهم وسعى بعضهم إلى بعض فى إلغاء هذا العهد الآثم وجعل أفراد منهم ترق قلوبهم لإخوانهم هؤلاء الذين يحاصرون ظلماً فيجتهدون فى أن يوصلوا إليهم أرزاقهم يستخفون بذلك من قومهم .

وإنهم لفى ذلك وإذا أبو طالب يغدو على قريش ذات يوم فيحدثهم — فيما يقول أصحاب السيرة — بأن ابن أخيه قد زعم له أن صحيفتهم تلك

التى كتبوها بينهم وأودعوها جوف الكعبة قد أدركها البلى وعدت عليها الأرَضَة فلم تُبق فيها مما كتبوا إلا اسم الله الذى ذكروه فى أولها . قال أبو طالب : فانظروا يامعشر قريش إلى صحيفتكم تلك فإن وجدتموها كما ذكر ابن أخى كان هذا إيذاناً لكم بأنكم تعتدون على فريق من قومكم بغير الحق ، وتظلمونهم ظلماً منكراً وبأن قد آن لكم أن ترفعوا هذا الظلم وتكفوا عن ذلك العدوان وتثوبوا إلى المعدلة بينكم وبين إخوانكم . وإن وجدتم صحيفتكم تلك كهيئتها يوم كتبتموها ووضعتموها فى جوف الكعبة أسلمنا إليكم محمداً تصنعون به ما تشاءون .

فتسارع الذين رقت قلوبهم لبنى هاشم يقولون : يامعشر قريش لقد أنصفكم أبو طالب وأعطاكم الرضى فالتمسوا صحيفتكم تلك وانظروا ؛ فإن كانت كما قال محمد فأجيبوا أبا طالب إلى رفع الظلم عن إخوانكم وإلا فقد آذنكم بأنه سيُسلم إليكم ابن أخيه .

وتنظر قريش فى الصحيفة فإذا كل ما كتب فيها قد محى ، ذهبت به الأرَضَة ، إلا اسم الله فإنه كما كتبوه ، هنالك يُرفع الحصار ويعود القوم إلى العافية .

ولكن هذا كله إن خفّف عن بنى هاشم فلم يخفف عن المسلمين من أصحاب النبى شيئاً . فإيذاؤهم متصل وفتنتهم ماضية على عهدها .

ثم يُمتحن النبى امتحاناً شاقّاً فيفقد زوجه خديجة تلك التى كانت أول من نصرته وآذرته وأجابته إلى دعوته . ثم يفقد عمه أبا طالب ذلك الذى كفله صبيّاً ويافعاً ، وقام دونه يحميه ويذب عنه وإن كان لم يؤمن له ولم يرجع عن دين آبائه ، وإنما فعل ما فعل حبّاً لابن أخيه وعطفاً عليه وأداء لحق العصبية والحسب .

ويشتد البلاء على المسلمين وتطمع قريش فى النبي ، فيأذن النبي للمسلمين فى أن يهاجر من استطاع الهجرة منهم إلى بلاد الحبشة ، حيث يستطيعون أن يعبدوا الله آمنين لا يلقون فتنة ولا عذاباً . فيهاجر منهم من استطاع ، ويأمنون على دينهم فى تلك الأرض البعيدة ، ويبقى النبي ومن أبى فراقه من أصحابه بمكة يلقون ما يلقون من الشدة والبأس ، لا تزيدهم الفتنة إلا إيماناً وتثبيتاً .

وفى ذات يوم يخرج النبي من مكة إلى الطائف يرجو أن يجد عند ثقيف من العون والجوار ما يمكّنه من أداء رسالته ، ولكنه لا يلقى من ثقيف إلا أعنف الرد وأثقله ، وإذا هم لا يكتفون برده والإعراض عنه ، وإنما يُغرون به السفهاء والصبيان يؤذونه حتى يجهدوه وحتى يضطروه إلى ظل بستان ليستريح .

وكان فى البستان صاحباه : رجلان من قريش — هما عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة — يريان النبي وقد بلغ منه الجهد وأوى إلى ظل بستانهما يستريح مما أدركه من العناء .

قال أصحاب السيرة : فيرق قلب هذين القرشيين له ، ولكنهما متحفظان على ذلك ، لا يُؤْويانه فتغضب قريش ، فيدعوان « عداساً » غلاماً لهما ويرسلانه إليه بطبق فيه عنب . ولكن « عداساً » لا يكاد يتحدث إلى النبي ويسمع منه حتى يراه سيداه مغرقاً فى البكاء مكبّاً على النبي يقبله ويتلطف له . فإذا عاد إلى سيديه سألاه ، فإذا هو قد مال إلى ما يدعو إليه هذا الرجل الذى آذته ثقيف وأبى سيداه أن يضيفاه . وقد رجع النبي إلى مكة فلم يستطع أن يدخلها حتى استجار

بشريف من أشرافها ، هو مُطعم بن عدى ، فأجاره .

ثم جعل النبي يترقب موسم الحج يعرض نفسه فيه على قبائل العرب أيها يؤويه ويمنعه حتى يبلّغ رسالات ربه ، فترده قبائل العرب جهلا منها أولا ، وكراهة أن تعادى قريشاً ثانياً، حتى إذا كان فى موسم من المواسم عرض نفسه على قوم من أهل يثرب فوجد عندهم ميلا إليه وإيثاراً له فيضرب لهم موعداً من قابل ، ويصبر عامه ذاك على الأذى ثم يأتى وفد يثرب فيبايعونه على أن يؤووه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ، وقد استوثق العهد بينه وبينهم وعاد إلى مكة راضياً مجبوراً .

ثم جعل يأذن لأصحابه فى الهجرة إلى يثرب فيهاجرون أرسالا ، يهاجر الضعفاء منهم خفية ويهاجر الأقوياء منهم جهرة ، وقد فشا الإسلام فى يثرب ، وقُرئ القرآن فى كثير من دورها ، والنبي مع ذلك مقيم فى مكة لا يبرحها ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة . وقد استأذنه صاحبه أبو بكر فى أن يكون صاحبه فى سفره فقبل منه . وقد عرفت قريش ما كان من العهد بينه وبين أهل يثرب وما كان من هجرة أصحابه إليها فكرهوا أن يهاجر النبي فيصبح هو وأهل يثرب لهم عدواً . فاجتمعوا وتشاوروا وانتهى رأيهم إلى أن يرصدوا له عند بيته ليلا نفراً من أحياء قريش على اختلافها ليقتلوه، يضربونه ضربة رجل واحد فيضيع دمه فى القبائل ولا يستطيع قومه من بنى عبد مناف أن يثأروا لدمه .

قال الرواة : وقد أرصد هذا النفر من قبائل قريش عند بيت النبي ليلا وآذنه الله بمكر قريش فلم ينم فى فراشه ليلته تلك وإنما أمر ربيبه وابن عمه « علياً » أن ينام فى فراشه ويتسجى ببرده وخرج على النفر الذين أرصدوا له ، فإذا هم قد غشيهم النعاس .

قال الرواة : فوضع على رءوسهم شيئاً من تراب ومضى لميعاده مع أبى بكر . فخرجا من مكة مستخفيين حتى انتهيا إلى غار ثور ، فأويا إليه ينتظران أن ينقطع طلب قريش لهما . ومكثا فى الغار ثلاثة أيام يأتيهما قوتهما كل يوم .

قال أصحاب السيرة : وأصبح الرصد فعلموا أن النبى قد خرج وأنه قد فاتهم ، فسقط فى أيديهم . وجدّت قريش فى طلب النبى وصاحبه.

ويتحدث أصحاب السيرة : بأن فريقاً من الذين جدوا فى طلبهما قد بلغوا غار ثور ، ذاك الذى أويا إليه ، فلم يخطر لهم أنهما يستخفيان فيه ؛ ولو قد نظروا تحت أقدامهم لرأوهما .

والشيء الذى ليس فيه شك هو أن أبا بكر قد كان قلقاً فى الغار يخشى أن يدركهما الطلب ، وأن النبى كان يهدئ من روعه ؛ بذلك جاءت الآية الكريمة فى سورة التوبة :

﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عليهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا . وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وكان أبو بكر قد أعد للسفر كل شىء ، فلما قدرا أن طلب قريش لهما قد انقطع مضيا فى طريقهما إلى يثرب فبلغاها . واستقبل النبىّ فيها أحسن استقبال ، فرح به أنصاره من الأوس والخزرج فى يثرب ، وفرح به أصحابه الذين هاجروا قبله إليها . ومنذ ذلك اليوم الذى بلغ النبى فيه يثرب ، فتحت أمامه وأمام دعوته طريق جديدة .

١٣

كان مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة منذ نُبِّئَ إلى أن هاجر ثلاث عشرة سنة — فيما يقول جمهور الرواة — لقى فيهن من الجهد ما لقى ، وصبر فيهن على الجهد ما صبر ، وتأسى به أصحابه ما استطاعوا إلى التأسى به سبيلا ، وأنزل فيهن عليه من القرآن شيء كثير .

كان فى مكة يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك ويأمر بالعدل وينهى عن الجور ويجهر بأن الناس جميعاً سواء عند الله لا يمتاز بعضهم من بعض إلا بالبر والتقوى . ويحذر الذين يشركون بالله ويجعلون له أنداداً عذاباً شديداً بعد الموت وينبئ بأن لهذه الدنيا التى يعيش الناس فيها نهاية لا بد من أن تبلغها يوم تقوم الساعة ، ويهول من أمر الساعة هذه تهويلا شديداً تنخلع له القلوب وينبىء بقربها وبأنها تفجأ الناس على حين غفلة منهم فتذهل الآباء والأمهات عن أبنائهم وتنسى الإنسان كل شيء إلا نفسه ويضطرب لها الكون اضطراباً أى اضطراب ، فالسماء منفطرة ، والكواكب منتثرة ، والبحور مفجرة ، والقبور مبعثرة ، ويومئذ تعلم كل نفس ما قدمت من عمل وما أخرت .

وعلى هذا النحو كان يهول من أمر الساعة وما يكون بعدها من حساب الناس على ما قدموا وما أخروا من أعمالهم وقد سُجل كل عمل أتاه الإنسان فى كتاب ينشر أمامه يحصى له حسناته وسيئاته ، والنار معروضة عليه والجنة مزلفة له . فهو يرى الجحيم كأبشع ما يكون ويرى النعيم كأروع ما يكون ، يتمنى هذا ويشفق من ذاك ، ولكن كتابه قد

نشر بين يديه يحكم له بالنعيم أو يحكم عليه بالجحيم لا يظلم مثقال ذرة مما عمل ، تضاعف له حسناته ولا تضاعف له سيئاته وإنما تحصى عليه كما هى لا يزاد فيها ، وقد ينقص منها إن ثقل ميزان الحسنات . فالإنسان على نفسه بصيرة وإن ألقى معاذيره . ويومئذ يروّع الكافرون حين يرون الكتاب منشوراً فيقولون : ﴿ يا وَيْلَتَنَا ما لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغادِرُ صَغيرَةً وَلاَ كَبيرَةً إلاَّ أَحْصاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

فإذا قضى بين الناس بمقدار أعمالهم ذهب أصحاب النعيم إلى نعيمهم خالدين فيه أبداً ، وذهب أصحاب الجحيم إلى جحيمهم خالدين فيه أبداً إن كانوا مشركين بالله لا يخلصون له قلوبهم ولا نفوسهم ولا ضمائرهم ، وماكثين فيه دهراً يقصر أو يطول لا يقاس ذلك إلا بعفو الله عن الذين أذنبوا واقترفوا السيئات بعد أن آمنوا .

وكانت قريش تسمع هذا كله فتنكره أشد الإنكار وتبغض من يتلوه عليهم أشد البغض فهو ينبئهم بأن المشركين من آبائهم مخلدون فى العذاب وبأنهم سيلحقونهم فى النار ويشاركونهم فى هذا العذاب المقيم إن لم يجحدوا آباءهم ويجحدوا دينهم هذا ويؤمنوا بالله وحده لا يشركون به شيئاً ولا يجعلون له نداً ، ويؤمنوا بأن محمداً هذا الذى يتلو عليهم ما يتلو من القرآن رسول الله قد جاءهم من عنده بالحق والبينات . وليس لهم بد بعد هذا الإيمان من أن يلائموا بين حياتهم وبينه ومن أن يأتوا ما يأمرهم به النبي ويجتنبوا ما ينهاهم عنه ، فإن خالفوا عن ذلك فالله لهم بالمرصاد والنار لهم

معدة يُسلكون فيها مع المشركين من آبائهم لا يقبل منهم عدل ولا صرف ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون .

وكان العُتاة منهم والجبارون ربما سخروا من النبي ومما يتلو عليهم وربما سألوه أن يأتيهم بآية تثبت لهم صدقه . فكان يتلو عليهم من القرآن ما يرد على سخريتهم وكان ينبئهم بأنه لا يأتيهم بآية إلا هذا القرآن الذى يتلوه عليهم والذى جاءه من عند ربه . ويتحداهم هو فيسألهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن وكان عجزهم عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن هو الدليل على أنه ليس من كلام الناس وإنما هو من كلام الله الذى لاسبيل إلى تقليده ولا إلى محاكاته فضلا عن الإتيان بمثل ما يأتى به . وكان يتلو عليهم فيما يتلو هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء :

﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ . وكانوا لا يفهمون ولا تسيغ عقولهم أن تتصل الأسباب بين الله وبين واحد من الناس يوحى إليه هذا الكلام الذى كان يتلوه عليهم ويتحداهم به ويسألهم أن يأتوا بمثله . فيطلبون إليه آيات تكرههم على أن يؤمنوا له : يسألونه أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً أو أن ينشئ لنفسه جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو يسقط السماء عليهم كسفاً أو يأتى بالله والملائكة قبيلا أو يبتكر لنفسه بيتاً من زخرف أو يرقى فى السماء فيأتيهم منها بكتاب يقرءونه . وكان الله يأمره أن يجيب على هذا التحدى بهذه الجملة اليسيرة الرائعة : ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ .

وكان بعضهم يأتيه أحياناً بالعظام البالية فيفتها بيده وينثرها فى الهواء . ثم يسأله ساخراً: من يحيى العظام وهى رميم ؟ فكان جوابه حاضراً من القرآن فى هذه الآيات الكريمة من سورة يس : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ . إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

وكانوا يجادلونه فى البعث أشد الجدال ، يقولون — كما يحكى عنهم القرآن الكريم فى سورة الإسراء : ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فكان الجواب حاضراً كذلك من القرآن فى السورة نفسها : ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا . قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا . يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

كان إذن يخوفهم قيام الساعة. ويخوفهم البعث والحساب ، ويخوفهم العذاب الذى أعد للمشركين والمذنبين ، وكان يخوفهم أشياء أخرى أيضاً : يخوفهم أن يجرى عليهم مثل ما جرى على أمم من قبلهم ، جاءتهم رسلهم

بالبينات فكذبوهم وقالوا فيهم مثل ما تقول قريش فيه ، قالوا : إن بهم جِنة : وقالوا : إنهم مسحورون ، وقتلوا بعضهم . وأنذروا بعضهم بالقتل فصُب عليهم عذاب عاجل فى هذه الحياة الدنيا توطئة لما أعد لهم من عذاب آجل خالد فى الحياة الآخرة .

كان يقص عليهم أمر الطوفان الذى أغرق العصاة من قوم نوح ، ويقص عليهم أمر الريح التى أهلكت عاداً حين عصوا أخاهم هوداً ، وأمر الصيحة التى أهلكت ثمود حين عصوا أخاهم صالحاً . ويقص عليهم ما جرى على قوم لوط حين أمطرتهم السماء حجارة مسومة ، ويقص عليهم ما جرى على أهل مدين حين أهلكتهم الرجفة لما عصوا شعيباً ، ثم يقص عليهم فى تفصيل ما أصاب فرعون وقومه حين عصوا موسى . وكان يأمرهم أن يسيروا فى الأرض لينظروا كيف كانت عاقبة المفسدين ، وكان يخوفهم أن يُلم بهم مثل ما ألم بهذه الأمم من ألوان العذاب فى الدنيا إلى ما ينتظرهم فى الآخرة من العذاب المقيم .

يتلو عليهم هذا كله من القرآن فيسمعون أحياناً ، ويسخرون ويجادلون ويعرضون أحياناً ويأبون أن يسمعوا ويعقلوا . وكان يتلو عليهم من القرآن خلق آدم وإسكانه هو وامرأته الجنة ونهيه إياهما أن يقربا الشجرة المحرمة وإغراء الشيطان لهما بالمعصية وإخراجهما من الجنة . ويقص عليهم كذلك من أخبار السماء ما كان من مجاهرة إبليس بالمعصية وإبائه أن يسجد إعظاماً لخلق آدم كما سجدت الملائكة وما حل به من غضب الله عليه وما زعم من أنه سيفسد ولد آدم وسيحملهم على المعصية ؛ فى أشياء أخرى كثيرة كان يقصها عليهم يعظهم بها لعلهم أن يهتدوا ، فلا يحفلون

بشيء مما يسمعون إلا هذه القلة القليلة التي كانت روعة القرآن تبهر قلوبهم ، وكانت قوة الحجة تسحر عقولهم فيؤمنون جهراً أو سراً ؛ كالذي كان من أمر عمر — رحمه الله — حين أنبئ بأن أخته وزوجها قد أسلما . وقد ألقي إليه هذا النبأ وهو في طريقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبطش به فيما زعم . فلما سمع من أمر أخته وزوجها عدل إليهما ليبدأ بهما ولكنه ينتهي إلى أن يقرأ عندهما الآيات الأولى من سورة طه فيلين قلبه بعد قسوة وترق نفسه بعد غلظة . وإذا هو يذهب إلى النبي لا ليقتله بل ليشهده على أنه مؤمن بالله وبأن محمداً رسوله .

وكذلك جرت الأمور بين النبي وأصحابه وبين قريش : جهاد لا ينقضي وجدال لا يكاد ينقطع واتصال للوحي أثناء ذلك وتلاوة لهذا القرآن الذي كان يوحي إلى النبي واجتماع إلى أصحابه قبل أن يهاجروا إلى الحبشة وبمن بقي منهم معه بعد أن هاجر أصحابه يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن ، وينصح لهم في أمر دنياهم كما ينصح لهم في أمر دينهم .

وفي ذات يوم قامت قريش وقعدت وانطلقت ألسنتها بالسخرية ووصل الشك إلى قلوب بعض الذين آمنوا . ذلك أن النبي أصبح فأنبأ بأنه أسري به من ليلته إلى المسجد الأقصى . وتلا هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء :

﴿ سُبْحانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير ﴾ .

وواضح أن قريشاً لم تكن لتصدق أن يُسرى بالنبى من ليلته إلى المسجد الأقصى ويعود منه قبل أن يُسفر الصبح . وهم الذين يُنفقون فى رحلتهم إلى الشام ما ينفقون من الأيام الطوال ويلقون فى رحلتهم ما يلقون من المشقة والجهد فكيف بهم حين ينبئهم النبى بأنه ذهب إلى المسجد الأقصى فى القدس وعاد إلى مكة فى ساعة من ليل . ولكنه يصف لهم الشام والقدس والمسجد فلا ينكرون من وصفه شيئاً . هنالك اضطربت قلوبهم وفكروا فى أن يعجزوه فأرسلوا إلى اليهود ينبئونهم نبأه ويلتمسون عندهم من المسائل ما يلقونها عليه يمتحنون بها صدقه .

قال رواة السيرة : فأمرهم اليهود أن يسألوه عن أمر الفتية الذين أووا إلى الكهف ما خطبهم ؟ وألقيت عليه المسألة . ولكن الوحى أبطأ عليه شيئاً حتى ظنت قريش أنها قد أعجزته . ثم أقبل عليهم ذات يوم فتلا عليهم قصة أهل الكهف كما عرفوها من اليهود .

فلا غرابة بعد هذا كله فى أن يضيقوا به وفى أن تضيق مكة بالنبى نفسه وفى أن يثبته الله ويعزيه عن جحود قومه وعصيانهم بعدما جاءهم الحق واضحاً جلياً . فالله يقول له فى سورة الكهف :

﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ .

وعلى رغم هذا كله فقد أقام فيهم حتى عرض عليهم أصول الدين وبين لهم ما ليس منه بد ليأمنوا سوء العاقبة فى الدنيا والآخرة : بيّن لهم

أن إلهم واحد لا شريك له ، وأن الإشراك به ظلم وجحود يضطر صاحبه إلى الخلود فى العذاب المقيم ، وبين لهم أن الله قد أرسله رسولا كما أرسل الرسل من قبله إلى قومهم ، وأن الإيمان لا يستقيم لصاحبه حتى يشهد من أعماق قلبه بوحدة الله وصدق رسوله وحتى يكون الإيمان بالله ورسوله ملء قلوبهم وعلى ذكر منهم فى كل ما يأتون وما يدعون ؛ وبين لهم أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى والرفق باليتامى والمساكين والبر بالوالدين وطاعتهما إلا فى الكفر بالله أو معصيته ؛ وبين لهم أن الله ينهاهم عن آثام فليس لهم بد من أن يجتنبوها : ينهاهم عن القتل ظلماً ،وينهاهم عن وأد البنات وقتل الولد خشية الإملاق ، وينهاهم عن الزنى وعن الخيلاء والمرح ، وعن الغرور والكبرياء ، وعن الكذب وقول الزور ، وعن شهود اللغو والمشاركة فيه .

بيّن لهم هذا كله وأكثر من هذا كله وبشرهم بالمثوبة الحسنى عند الله إن آمنوا وأصلحوا وأطاعوا ، وأنذرهم العقاب الشديد فى الدنيا والآخرة إن كفروا وعصوا .

صدع بما أمره الله أن يصدع به وأدى مهمته كأحسن ما يكون أداء المهمات لم يقصر ولم يفتر ولم ييأس حتى أذن الله له فى الهجرة، فهاجر بعد أن أعفى نفسه من كل تبعة . وأدى حق الله وحق قومه عليه ،وبربهم فلم يلق منهم إلا جحوداً وعقوقاً ، ولم يؤمن له منهم إلا القليل كما رأيت .

١٤

وبلغ « يثرب » فاستأنف حياة جديدة . وفتحت له إلى نشر دعوته طرق جديدة أيضاً . وجد فى « يثرب » مسلمين قد آمنوا بالله ورسوله قبل الهجرة وفشا الإسلام بينهم حتى كثروا ، ووجد بينهم مشركين لم يدخل الإيمان فى قلوبهم فنهم من هدى الله إلى الحق فآمن وصدق إيمانه، ومنهم من أشفق من عواقب العناد فأظهر الإسلام وأبطن الكفر وعاش منافقاً . ووجد فيها يهوداً قد استمسكوا بما توارثوا من دينهم . فلم يكن له بد من أن يلائم بين حياته الجديدة فى « يثرب » وبين هذه الطوائف المختلفة من الناس .

ولم تكن حياته فى « يثرب » أهون ولا أيسر من حياته فى مكة ولعلها كانت أشق منها مشقة وأحفل منها بالخطوب، ولكنه استقبلها راضياً بها شاكراً لها حامداً لربه على أن أتاح له الأمن والنصر والمأوى حتى يبلغ رسالته و يؤدى حق الله عليه .

وقد بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين من أهل مكة والأنصار من أهل يثرب ، فأنشأ بينهم صلة قوية بعيدة الأثر فى حياتهم هى صلة الإخاء بأوسع معانيه وأدقها . ثم عقد نوعاً من الحلف بينه وبين أصحابه من جهة وبين اليهود من جهة أخرى على أن يكون بينهم النصر على العدو والعون على الكوارث والأحداث .

ثم جعل هو ومن تبعه من المهاجرين والأنصار يعبدون الله جهرة

لا يستخفون بدينهم ولا يخافون فتنة عنه . وقد اتخذ النبي مسجداً عامًّا لأول مرة فى الإسلام يدعو فيه إلى ربه ويقيم فيه الصلاة ويجلس فيه للناس فيعلمهم ويؤدبهم ويبصرهم بما يجب عليهم أن يأتوا وينهاهم عما يجب عليهم أن يجتنبوا ويبين لهم محاسن الأخلاق وخير الأعمال ويدلهم على ما يليق بالرجل المؤمن الكريم على نفسه وعلى غيره وما لا يليق به . كل ذلك فى أمن ودعة وهدوء . ولم يكشف للمنافقين من أهل « يثرب » ستراً وإنما اكتفى منهم بما أظهروا للإسلام ؛ فلم يَعرْض لهم بشيء مما يكرهون وإن كان الله قد أعلمه بمكانهم من النفاق . وكان كثيراً ما يقول لأصحابه : إنى لم أومر بأن أفتش عما فى القلوب . وكان جديراً أن يظل كذلك فى أمنه وهدوئه وما أتيح له من هذه الحياة الوادعة على قسوتها . ولكنه لم يلبث ولم يلبث أصحابه معه أن وجدوا أنفسهم بين عدوين ليس أحدهما بأقل خطراً من صاحبه :

فأما أولهما فهم هؤلاء اليهود الذين لم يؤمنوا به ولم يستكرههم على أن يؤمنوا به وإنما اكتفى منهم بالمسالمة والموادعة وحسن الجوار والمناصرة عند الحاجة . ولكنهم لم يخلصوا لما كان بينه وبينهم من عهد وإنما أظهروا المسالمة وأضمروا الغدر ، ثم لم يكتفوا بذلك بل أظهروا التكذيب لدينه وجادلوا فيه فأكثروا الجدال :

وأما العدو الآخر فقريش تلك التى تركها محفظة عليه أشد الحفيظة . كانت تحب أن تقتله أو تُثبته أو تخرجه من مكة جهرة طريداً على رؤوس الأشهاد ، ولكنها تنظر فإذا هى لم تبلغ مما أرادت به شيئاً ، لم يغن عنها كيدها له وائتمارها به ، وإنما كانت كما وصفها القرآن الكريم فى

الآية الكريمة من سورة الأنفال : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾. مكروا به حين كان بين أظهرهم ولكنهم لم يقدروا عليه ، قد أنجاه الله منهم وأبدله بهم قوماً آووه ونصروه ؛ فلا يمكن أن تطيب نفوس قريش عما أتيح له من الأمن والدعة ، وهي بعد ذلك تعرف أنها قد ظلمته وظلمت أصحابه معه أبشع الظلم وأشنعه ، فهي لاتأمن أن ينتقم منها لما أصابه ، بل تحذر أن يتخذ من أمنه في يثرب ومن أنصاره هؤلاء الجدد وسيلة إلى نصب الحرب لها ، وهي من أجل ذلك حذرة أشد الحذر ، قلقة أشد القلق ، تريد أن تتقيه مهما تكن وسيلتها إلى ذلك ؛ فهي تؤلب عليه وتغري به وتكيد له بعيداً عنها كما كادت له قريباً منها ، تؤلب عليه العرب وتغري به اليهود ، ثم هي بعد ذلك تؤذي من لم تتح له الهجرة من أصحابه أشد الأذى وأنكره . فلا غرابة في ألا يحول الحول على هجرته إلى المدينة حتى يظهر الشر بينه وبين قريش ، ويتبين أن الأمر بينهما صائر إلى الحرب لا محالة ؛ فقريش عدوه وهي تراه لها عدواً ، وترى مكانه من « يثرب » خطراً على تجارتها إلى الشام ولا يكاد العام الثاني من هجرته يبلغ ثلثيه حتى تكون الحرب بينه وبينهم يوم « بدر » .

كانوا كثرة وكان هو وأصحابه قلة ، كان هو وأصحابه يوم التقى الجمعان يرون عدوهم مثليهم رأى العين ، ولكن شتان بين قوم يقاتلون عن دينهم وعن إيمانهم بهذا الدين وهم مستيقنون أنهم إن ينصروا نعموا

بانتصارهم فى الحياة الدنيا وظفروا بأجرهم على الجهاد . وإن يقتلوا فهم شهداء عند الله قد ضمن لهم نعيماً ليس مثله نعيم . نعيمٌ صَفو خالد لاكدر فيه ولا انقطاع له — وبين قوم يقاتلون عن أموالهم وعما يملؤهم من الغرور والكبرياء .

فلم تنشب الحرب بين الفريقين حتى أنزل الله نصره على نبيه وعلى المؤمنين وانهزمت قريش هزيمة منكرة قتل صناديدها وأسرت جماعة من سادتها وكثرت الغنيمة ، وعاد المنهزمون إلى مكة قد أحرزوا تجارتهم تلك التى نجا بها أبو سفيان ولم يكد ولكنهم عادوا بخزى أى خزى يشقون بنار الهزيمة وفقد الصناديد والسادة والإخوان والآباء والأبناء والأخلاء . وقد قص الله هذه الموقعة أروع القصص فى سورة الأنفال .

ومنذ ذلك اليوم — يوم بدر — تسامعت العرب بالنبى وأحست قوته وبأسه وامتلأت قلوبهم منه رعباً . على أن قريشاً لم تصبر على هزيمتها ولم تتعز عمن فقدت من سادتها وأحبائها . فجعلت تتهيأ للثأر ، ترصد لذلك المال وتجمع الجموع ، وأخذتها العزة بالإثم فحظرت إعلان الحزن على من قتل من رجالها .

وأقبلت حين دار العام إلى المدينة تريد أن تثأر وأن تنتصر على الذين انتصروا عليها ، وقد كادت تعود إلى مكة بالخزى والخسار وخيبة الأمل ، لولا أن هم بعض المسلمين بالفشل وطمع بعضهم فى الغنيمة حين أراهم الله من النصر ما يحبون ؛ فكرت عليهم قريش كرة كانت ابتلاء من الله لهم وتمحيصاً لقلوبهم ودرساً قاسياً . عرف المسلمون كيف ينتفعون به فيما استقبلوا من أيامهم ، وفيما أثير لهم من الخطوب والمشكلات .

ولكنهم على كل حال لم ينتصروا فى تلك الوقعة يوم أحد ،

فكانت عليهم الدائرة : قتل منهم من قتل ، وجرح منهم من جرح ، وفر منهم كثير ولم يثبت إلا النبي ونفر قليل من أصحابه وأصيب النبي نفسه إصابة ضعيفة ، ورزئ بعمه « حمزة » وكثير من أصحابه واستطاع أبو سفيان قائد قريش أن يقول للنبي ومن بقي معه من أصحابه : اعل هبل ، الحرب سجال ، يوم بيوم بدر . وقد أجاب عمر أبا سفيان عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله أعلى وأجل ، وبأن الله قد أبقى من المسلمين من سيكونون له ولقومه بلاء أى بلاء . وعلى رغم الهزيمة التى امتحن الله بها المسلمين فى ذلك اليوم . وعلى رغم ما رزئ النبي وما أصابه من الأذى وما أصاب أصحابه من الثكل والجراحة فقد أبى النبي أن يقبل الهزيمة كما قبلتها قريش يوم بدر . فأمر أصحابه أو من قدر منهم على الرحيل أن يتبعوا قريشاً . ومضى على رأسهم فى إثر المنتصرين ، لم يحفل بقلة أصحابه وكثرة عدوه وإنما مضى فى إثرهم لا يلوى على شىء حتى أمن كرتهم على المدينة ، فعاد موفوراً . وقص الله وقعة « أحد » كما كانت مؤنباً لمن فشل من المسلمين وعاتباً على من انصرف عن الحرب إلى الغنيمة مخالفاً بذلك عن أمر النبي وعافياً مع ذلك عن أولئك وهؤلاء وآمراً للنبي أن يعفو عنهم ويستغفر لهم ويشاورهم فى الأمر ، ومعزياً للمسلمين بعد ذلك عمن فقدوا من أصحابهم بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، ومهيئاً للمسلمين لما سيمتحنون به فى أنفسهم وأموالهم ولما سيسمعون من الأذى الذى يؤذيهم به المشركون والذين أوتوا الكتاب من اليهود .

قص الله هذا كله كأحسن ما يكون القصص فى سورة آل عمران .
على أن قريشاً قد أطمعها انتصارها فلم تكد تستريح من غزوتها تلك

وتفرغ لما كانت فيه من التجارة والحياة اللاهية اللاعبة ، بل فكرت فى غزو المدينة مرة أخرى . وجعلت تتأهب لذلك وتؤلب العرب وتحالف القبائل واليهود موقنة بأنها لن تأمن ما بقى للنبي وأصحابه شوكة ، فليس لها بد من أن تزيل هذه المدينة أو أن تتهيأ لزوال مكة .

وكذلك أقبلت قريش بعد عام وبعض عام — ومعها كثير من قبائل نجد . وقد أحكمت أمرها مع اليهود — غازية للمدينة تلك الغزوة التى قصها الله فى سورة الأحزاب والتى سميت بهذا الاسم .

وقد عرفَ النبي والمسلمون تأهب قريش وأحابيشها وحلفائها من أهل نجد لغزو المدينة فتشاوروا فى هذا الأمر وأشير على النبي أن يحتفر خندقاً يمنع المشركين من بلوغ المدينة فتأذن فى أصحابه بذلك وشاركهم فى احتفار الخندق كما شاركهم من قبل فى بناء المسجد يعمل بيده كواحد منهم ويحتمل فى ذلك من المشقة ما يحتملون ، ويلقى فيه من العناء ما يلقون صابراً جادًّا مثبتاً قاوب أصحابه مغرياً لهم بالصبر والجد ، حتى بلغوا من احتفار الخندق ما أرادوا .

وأقبلت قريش فى جموع كثيرة جدًّا من أحابيشها وأحلافها : جموع تأتى من أسفل من المسلمين وهم قريش ومن جاء معهم ؛ وجموع أخرى تأتى من فوقهم وهم أهل نجد من حلفاء قريش وجاهم من غطفان .

ورأى المسلمون ذلك فأكبروه واستكثروه ولا سيما أنهم علموا أن بنى قريظة من اليهود قد نقضوا عهدهم وغدروا بحلفائهم من المسلمين ، وخلطوا أمرهم بأمر قريش وحلفائها بغياً وغدراً ونقضاً للحلف والجوار .

وكان المسلمون يعلمون إلى هذا كله أن بين أظهرهم من المنافقين

فريقاً إن لم يظهروا تأييدهم لقريش فهم يضمرون خذلانهم للمسلمين ويأبون على كل حال أن ينصروهم . فلا غرابة فى أن يصف الله عز وجل موقف المسلمين من هذا كله أبرع الوصف وأنفذه إلى القلوب فى هذه الآيات الكريمة من سورة الأحزاب ، وأن يذكر المسلمين بذلك بعد الموقعة ليعرفوا حسن بلائه فيهم وعظيم نعمته عليهم :

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرًا . إذ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّون بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِك ٱبْتُلِيَ المؤمنونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا. وَإِذْ يَقولُ الْمُنَافِقُونَ والَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولهُ إلاَّ غرُورا . وإذ قَالتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَٰ أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِن فَرِيق مِنهُمُ النَّبِيَّ يَقُولونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَارًا﴾ .

ولم يكن بين جماعة المسلمين وبين هذه الجموع الضخمة من المشركين تزاحف ولا لقاء، وإنما كان بعض الأفراد من المسلمين والمشركين تكون بينهم المبارزة من حين إلى حين . ولكن المسلمون كانوا مع ذلك فى بلاء عظيم . يمتحنون فى إيمانهم وثقتهم بما وعد الله ورسوله ويمتحنون فى صبرهم على اليأس والمكروه . ذلك أن قريشاً وحلفاءها

كانوا جديرين أن يقيموا فيطيلوا المقام ويفرضوا على المسلمين حصاراً شديداً متصلا وكان بنو قريظة من اليهود جديرين أن يأخذوهم من ظهورهم فلا يعرفون من يقاتلون ولا من أى وجه يقاتلون . ولكن الله يتيح للنبي من عدوه من يأتيه ناصحاً له .

يريد أن ينصره ، فيأمره النبي أن يخذل بين قريش واليهود . ويفعل الرجل ذلك على أحسن وجه ، فيقنع اليهود بأن قريشاً خليقة أن تغدر بهم حين يجد الجد ويشتد البأس ، ويشير عليهم بألا يشاركوا قريشاً فى أمرها حتى تعطيهم رهائن من أنفسها ،ويُقنع قريشاً بسوء نية اليهود وأن حلفهم لا يخلو من دخل ، ويستحكم الشك عند قريش فتطالب اليهود بالقتال ويطلب اليهود الرهائن فلا تشك قريش فى أنهم قد غدروا . وبينا هم فى ذلك يرسل الله ذات ليلة ريحاً عاصفة أى العصف باردة أى البرد تطفىء نيران الحلفاء وتكفأ قدورهم وتنزع خيامهم فيأخذهم الذعر ويشتد فيهم الاختلاط والاضطراب حتى لا يعرف الرجل منهم صاحبه . فلا يكادون يستقبلون الصبح حتى يجلس أبو سفيان على راحلته وينادى فى القوم بالرحيل . فيتفرق الأحزاب .

تعود قريش إلى مكتها ، ويعود حلفاؤهم من العرب إلى بواديهم ، ويصف الله ذلك فى الآية الكريمة : ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ .

وبعد هذه الخيبة التى منيت بها قريش وحلفاؤها لم تحاول قريش غزو المدينة مرة أخرى ولكنها مضت تبث كيدها فى جزيرة العرب تحرض على النبي وأصحابه المشركين من أهل نجد والحجاز . وكان النبي

وأصحابه من أجل ذلك لا يستريحون وإنما تأتيهم الأنباء بين حين وحين بأن هذه القبيلة أو تلك – من قبائل العرب القريبة منهم والبعيدة عنهم – تهيأ لبعض الشر فيغزوها النبي بنفسه أو يرسل إليها من يغزوها . كانت قريش تبث الكيد وكان النبي وأصحابه يبثون الهيبة لهم والخوف منهم حتى إذا كان العام السادس للهجرة خرج النبي وفريق من أصحابه قاصدين إلى مكة لا يريدون قتالا ولا يفكرون فى حرب وإنما يريدون العمرة كما كان سائر العرب يقصدون إلى مكة حاجّين ومعتمرين .

ولكنهم لا يبلغون الحديبية حتى تعلم قريش بمقدمهم فتأبى أن يدخلوا عليها مكة ، ويسعى السفراء بين النبي وبينهم فى ذلك ؛ يؤكد النبي وأصحابه أنهم لا يريدون إلا العمرة ، وتأبى قريش أن يدخلوها عليهم وتنذر بالقتال وتتهيأ له ؛ ثم يكون الصلح الذى يعرف بصلح « الحديبية » والذى امتحن الله به قلوب المسلمين وزلزل به قلوب بعض خيارهم ؛ ذلك أن النبي قَبِل من قريش ألا يدخل عليهم مكة عامهم ذاك ، وقبلت قريش أن يدخلوها من قابل لا يحملون من السلاح إلا السيوف فى أغمادها . وشق ذلك على المسلمين حتى أقبل « عمر » على النبي يسأله : ألسنا على حق ؟ قال النبي : بلى . قال عمر : أليسوا على باطل ؟ قال النبي : بلى . قال عمر : فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال النبي : أنا عبد الله ورسوله ولن يضيعنى .

وأعاد « عمر » سؤاله هذا على أبي بكر . فأجابه أبو بكر بمثل ما أجابه النبي به ، ولما عقد الصلح أمر النبي أصحابه أن يحلوا من إحرامهم فأبطئوا ولم يستجيبوا . واغتم النبي لذلك ولكنه لم يلبث أن أحل من

إحرامه حتى صنع أصحابه صنيعه .

وأنزل الله : ﴿ إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً . لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَته عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وَيَنْصُرَكَ ٱللهُ نَصْرًا عَزِيزًا . هُو الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وللهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً . لِيُدْخِلَ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَاويُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيماً . وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ والْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . وَللهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزًا حَكِيماً ﴾ .

ويقول الرواة : إن بعض المسلمين حين تليت عليهم هذه السورة سألوا النبي : أوَفتح هذا ؟ قال النبي : نعم .

وكان النبي قد أرسل من « الحديبية » عثمان — رحمه الله — سفيراً إلى قريش . فأبطأت عودته وقيل : إن قريشاً قد فتنته ، فبسط النبي يده للبيعة على الموت ، وبايعه أصحابه لم يتخلف منهم أحد . وأنزل الله فى سورة الفتح : ﴿ لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً

قريباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونها وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزًا حَكِيماً ﴾ .

وفى يوم « الحديبية » ذاك تمت الهدنة بين النبي وبين قريش عشر سنين على أن يدخل فى عقد قريش من العرب من شاء ويدخل فى عقد النبي منهم من شا وتكف الحرب بين الفريقين ، وعلى أن من جاء قريشاً من أصحاب النبي لاجئاً إليهم لم يردوه ومن جاء النبي من قريش مؤمناً به أو لاجئاً إليه رده عليهم .

وعلى أن يأتى النبي وأصحابه من قابل معتمرين فتترك لهم قريش مكة ويدخلونها لا يحملون من السلاح إلا السيوف فى أغمادها ، ثم لايقيمون فيها إلا ثلاثة أيام .

وهذه الشروط التى قامت عليها الهدنة هى التى أحفظت فريقاً من المسلمين ولكنهم لم يفطنوا لأن الهدنة بينهم وبين قريش ستكفيهم مكرها من جهة وستطلق أيديهم فيمن لم يحالف قريشاً من العرب يسالمونهم إن سالموا ويحاربونهم إن حاربوا ، وستريحهم إلى حين من خصومة هؤلاء الأعداء الألداء ؛ ذلك إلى ما وعدهم الله من الفتح القريب ومن مغانم كثيرة يأخذونها .

ومهما يكن من شىء فقد طابت قلوب المسلمين آخر الأمر وعرفوا أنهم قد أسرعوا إلى الحفيظة والغضب وأنهم لو استأنوا بأنفسهم لكان خيراً لهم وأرضى لنبيهم . ولكن الله ونبيه قد عوّداهم العفو عن مثل هذه الهفوات .

١٥

ولم يكن أمر النبي مع اليهود أهونَ من أمره مع قريش فهم كانوا على قلتهم فى المدينة جيراناً للنبي والمسلمين . ولم يكونوا جيران خير . كان كفرهم شديداً ومكرهم أشد،وكانوا على اتصال بالمنافقين من أهل المدينة يشجعونهم ويغرونهم بالنفاق ، وكانت بينهم وبين كثيرين من هؤلاء المنافقين علاقات حلف فى الجاهلية فكان هذا يزيدهم كفراً وطغياناً ، وكانوا بعد هذا كله أهل كتاب يقرءون التوراة أو يقرؤها أحبارهم على أقل تقدير ، ويرون أنهم على شيء من الدين وأنهم سبقوا المسلمين إلى هذا الدين ، فلهم سابقة علم بشؤون النبوات . وكانوا يعظمون موسى ويرون المسلمين يعظمونه ويسمعون تعظيمه فى القرآن فتأخذهم الكبرياء ، ويظنون أنهم أهدى سبيلا من المسلمين كما ظنوا من قبل أنهم أهدى سبيلا من النصارى . وكانوا يتيهون بدينهم وما عندهم من علم قليل على المسلمين ، كما كانوا يتيهون بذلك على العرب فى الجاهلية . وكانوا أصحاب جدال لا ينقضى وأصحاب عناد لا قرار له ، وكانوا ذوى جرأة على الحق وافتنان فى الباطل يعلمون أن المسلمين لا يقرءون التوراة فى لغتها العبرانية فيحرفونها كما يشاؤون وكما تشاء أهواؤهم لا يحفلون بما فى ذلك من نكر ولا يأبهون لما له من عواقب . وكانوا يسألون النبي عن أشياء . فإذا أجابهم بما كان الله يوحى إليه ماروا فى ذلك وأسرفوا فى المراء .

ثم كانوا لا يفون بالعهد إذا عاهدوا ولا يصدقون فى القول إذا قالوا ولا يستطيع أحد من المسلمين أن يأمن لهم فى قول أو عمل .

ثم لم يلبثوا أن بينوا عن غدرهم تبييناً لا يترك سبيلا إلى الشك فى أن جوارهم غير مأمون : همّ فريق منهم — وهم بنو النضير — بقتل النبي وقد أقبل عليهم ذات يوم يستعينهم على بعض الحق، كما كان الحلف يقضي بذلك ، فأظهروا حسن اللقاء وهموا بالغدر وأزمعوا أن يلقوا عليه من عَلُ صخرة تودى به لولا أن نبأه الله بما كادوا له . فانصرف عنهم ثم أجلاهم عن المدينة ولم يرزأهم شيئاً .

ونكص فريق آخر — وهم بنو قينقاع — عن الوفاء بالحلف . أهانوا امرأة واستنصرت المرأة المسلمين فكان خصام قتلوا فيه رجلا مسلماً واعتلوا فى ذلك بعلل لا قيام لها . فأجلاهم النبي عن المدينة لم يرزأهم إلا السلاح .

وغدر الفريق الآخر يوم الأحزاب فلم يمتنعوا عن نصر المسلمين فحسب، ولكنهم أعانوا عليهم وانضموا لحلف قريش . فحاصرهم النبي والمسلمون حتى أنزلهم على حكمه ، ثم حكم فيهم سعد بن معاذ — رحمه الله — بأن تقتل المقاتلة وتحتاز الأموال وتسبي الذرارى والنساء . فأنفذ النبي هذا الحكم .

ووصف الله عز وجل فى القرآن ما أصاب بنى قريظة هؤلاء فى سورة الأحزاب حيث يقول :

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ .

وكانت لليهود بقية قوية غنية فى « خيبر » وفى « وادى القرى » فسلط الله رسوله عليهم بعد يوم « الحديبية » وهو الفتح القريب الذى وعد به المؤمنين فغزاهم فى أصحابه ولم ينصرف عنهم حتى فتح حصونهم وغنم أرضهم وأعملهم فيها على أن لهم نصف ما تخرج من الثمرات وللمسلمين نصفها .

وكذلك قضى على اليهود فى الحجاز ، خلت منهم المدينة وبقى منهم من بقى فى خيبر ووادى القرى خاضعين للمسلمين يعملون فى أرضهم ويعيشون من عملهم لا يملكون قوة ولا مكراً ولا كيداً .

وقد أمر الله نبيه ومن آمن معه ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، وأن يقولوا لهم آمنا بالذى أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون .

لم يستثن من هذا الأمر بالرفق والجدال الرقيق مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا الذين ظلموا وبينوا بظلمهم أن الرفق والرقة لا يجديان معهم شيئاً ، وذلك فى الآية الكريمة من سورة العنكبوت :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

فلما هاجر النبي إلى المدينة واستقر فيها مع أصحابه من المهاجرين والأنصار لم يعاد اليهود ولم يبادهم بسوء وإنما رفق بهم كل الرفق وأراد أن تقوم الصلات بينه وبينهم على حسن الجوار وعلى التعاون والنصر عند البأس . وقبل اليهود منه ذلك ولكنهم لم يلبثوا أن أظهروا أنهم كانوا حقاً من الذين ظلموا واستثناهم الله فى الآية الكريمة السابقة . فاشتد الجدال بينهم وبين النبي فى الدين أولا وأنزل الله فيهم قرآناً كثيراً :

يقص عليهم أحياناً سابقتهم فى الكفر به والجحود له والتنكر لمن أرسل إليهم من الأنبياء ، ويقص عليهم كذلك عقاب الله لهم على هذا الكفر والجحود ، وأحياناً أخرى يرد عليهم ما كانوا يفترون من الكذب ويزعمون أنهم يقرءونه فى التوراة . ويصفهم بأنهم لا يقرءون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ؛ ويصفهم مرة أخرى بأنهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ؛ ويصفهم مرة ثالثة بالنفاق لأنهم يلقون الذين آمنوا فيقولون: إنا معكم ، فإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؛ ومرة أخرى يوبخهم لأنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، ويذكرهم غير مرة بأنه نجاهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وبأنه أغرق آل فرعون أمامهم وهم ينظرون . ثم لم يلبثوا أن جحدوا هذه النعمة وكفروا بالذى أنعمها عليهم وعبدوا العجل من بعده ظالمين لأنفسهم . ويذكرهم غير مرة أيضاً بجبنهم وكراهيتهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التى اختصهم الله بها وقالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .

ويُحصى عليهم كثيراً من آثامهم ومن تكذيبهم للرسل وقتلهم الأنبياء وما أصابهم فى سبيل هذا كله من المحن وألوان البلاء . وربما تحداهم حين كانوا يزعمون لأنفسهم من الخصائص ما ليس لهم ، فهم كانوا يزعمون أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات فيأمر الله نبيه أن يسألهم : هل اتخذوا عند الله عهداً أم يقولون على الله ما لا يعلمون .

ويأمر نبيَّه أن يقول لهم : إن كانت الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ثم يؤكد الله عز وجل أنهم لن يتمنوا الموت أبداً لأنهم يعلمون ما قدمت أيديهم من السيئات ؛ فهم يكذبون على الله حين يزعمون أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات ، أو أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس .

ويؤكد الله لنبيه أنهم أحرص الناس على حياة ؛ وأن أحدهم يود لو يعمَّر ألف سنة . ولو أتيح له ما يتمنى من طول العمر لما زحزحه ذلك عن العذاب .

وكذلك يمضى القرآن الكريم ناعياً على اليهود تلك الخصال التى أشرنا إليها فى أول هذا الفصل ولائماً لهم على تاريخهم الملىء بالجحود والغدر والكفر ، وراداًّ عليهم ما كانوا يثيرون من المشكلات أو يلقون عليه من الأسئلة التى كانوا يرون أنها ستحرجه وتقطع حجته ، فيفحمهم ويلزمهم الحجة .

ولذلك كله ظهر أول انحراف عن الرفق بهم حين حُولت قبلة المسلمين فى الصلاة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام . وكان النبى يتمنى لو غُيرت قبلته عن بيت المقدس انحرافاً عن اليهود ، أولئك الذين وصفهم الله بما وصفهم به فى آيات كثيرة جداًّ من القرآن ، والذين

مضوا فى العناد والجحود إلى غير غاية فأنزل الله هذه الآية من سورة البقرة:

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ . وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم سخر الله منهم فى هذه الآية من السورة نفسها : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ . وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ . وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ . وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم بين بعد ذلك فى نفس السورة أن البر ليس فى أن يولى الإنسان وجهه قبل المشرق والمغرب وإنما البر خصال أخرى فصلها الله فى هذه الآية :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ

وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فى البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْس أُولَئِكَ الَّذِين صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون ﴾ .

وبعد خلوّ « المدينة » من اليهود وفتح « خيبر » و « وادى القرى » خفّ الجدال بين النبى وبين اليهود وقل ذكرهم فى القرآن لانقطاع الحاجة إليه ؛ ولأن الله قد ذكرهم بما أخزاهم فى الدنيا وبين أنه سيخزى الظالمين منهم فى الآخرة .

١٦

ولم يكن أمر النصارى ظاهراً فى جزيرة العرب وإنما كانت لهم جماعة فى نجران وكان منهم أفراد متفرقون هنا وهناك فى الجزيرة . فلم يكن الجدال بين النبي وبينهم متصلا ولم يعنف إلا حين كان النصارى ينحرفون فى مقالاتهم وما يظهرون من دينهم عن التوحيد الخالص الذى جاء به النبي ودعا إليه وأمر أن يقاتل الناس حتى يعلنوه فيقولوا : لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الشيخان .

وقد أنزل الله من القرآن ما يصور النصارى أقرب الناس مودة إلى المؤمنين . فقال فى سورة المائدة :

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا . وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ . يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِين . وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا وذَلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ . والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ ﴾ .

وقد قرر القرآن الكريم أن المسيح عيسى بن مريم رجل لا كالرجال لم يلده أبٌ وإنما هو كلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم . ووصف الله تبشير الملائكة لمريم بالمسيح ومولده فى سورة آل عمران وفى سورة مريم . واختصه الله بمعجزات لم يؤتها أحداً من رسله : فاختصه بإحياء الموتى واختصه بإبراء الأكمه والأبرص واختصه بأن يجعل من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً ؛ كل ذلك بإذن الله .

وأنزل عليه وعلى أصحابه مائدة من السماء كانت لهم عيداً لأولهم ولآخرهم . واختصه قبل ذلك بتكليم الناس فى المهد وأرسله إلى بنى إسرائيل يدعوهم إلى الإيمان بالله وأداء حقه والخروج مما ورطوا أنفسهم فيه من السيئات والآثام ، ويخفف عنهم بعض ما امتحنوا به من الأعباء الثقال . ولكن اليهود كذبوه وآذوه وهموا بصلبه وقتله ، فلم يصلبوه ولم يقتلوه وإنما شبِّه لهم ورفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا .

وكان مما غضب الله به على اليهود قذفهم لمريم وقولهم عليها بهتاناً عظيما ، وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ؛ وما كان لكلمة الله أن تقتل وما كان لروح من الله أن يصلب . وقد ذكر الله ذلك فى الآيات الكريمة من سورة النساء :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً . وقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ، ومَا قَتَلوهُ ومَا صَلَبُوهُ ولٰكِنْ

شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً . وَإِنَّ منْ أَهْلِ الكِتَاب إلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ .

وقد شدد الله النكير على النصارى فى شيئين خطيرين :

أحدهما ، تأليههم للمسيح وعبادته وذلك فى قوله من سورة المائدة :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . قلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّه وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ والْأَرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وقوله فى السورة نفسها :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . وقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى ورَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ومَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَار﴾ .

وهو فى هذه الآية يبرئ المسيح من عبادة النصارى إياه ويقرر أن المسيح لم يدع بنى إسرائيل إلا إلى عبادة الله ربه وربهم وأنه نهاهم عن الشرك .

وهو فى آية أخرى من السورة نفسها يقرر هذا ولكن فى صراحة لا تدع إلى الشك سبيلا وذلك حيث يقول : ﴿ وَإِذْ قالَ اللَّهُ يَا عِيسَى

ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللهِ . قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْته ، تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنى بِهِ أَن ٱعْبُدُوا ٱللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ، وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأَنْتَ عَلَى كلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

الأمر الثانى الذى أنكره الله على النصارى أشد الإنكار تثليث المثلِّثين منهم وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة . وذلك فى الآيات من سورة المائدة :
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إلا إِلٰهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلاَ يَتوبُونَ إِلَى ٱللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَٱللهُ غَفورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَد خَلتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل وأُمُّه صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ ٱنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

ولم يكن بين النبي والنصارى جدال — فيما نعلم — إلا ما كان بينه وبين نصارى نجران حين وفد عليه بعضهم . وعسى أن يكون الله عز وجل قد أشار إلى هذا الجدال فى سورة آل عمران حين قرر أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . يريد عز وجل وهو أعلم بما يريد أن ليس فى مولد عيسى دون أن يكون له أب شىء

من غرابة ؛ فالله قد خلق آدم من تراب ثم قال له: كن فكان . لم يكن له أب ولم تكن له أم فمن خلق إنساناً لغير أب وأم قادر على أن يخلق إنساناً ليس له أب .

ثم قال — عز من قائل — يأمر نبيه بمباهلة الذين يجادلونه فى ذلك ويصف طريق المباهلة :

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ .

ثم أمره أن يدعو أهل الكتاب من النصارى واليهود إلى كلمة سواء بين المسلمين وبينهم وهى ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله وأمره إن أبوا أن يجيبوا إلى هذه الدعوة أن يشهدهم على أنه هو وأصحابه مسلمون قد أخلصوا دينهم لله وحده ، وذلك حيث يقول :

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

وكأن النصارى حاجوا النبى فى إبراهيم كما كان اليهود يحاجونه فيه فقال الله : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ

التَّوْرَاةُ والْإِنْجِيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أفلاَ تَعْقِلُونَ. هٰأَنْتُمْ هٰؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. مَا كَانَ إبْراهِيمُ يَهُودِيًّا ولاَ نَصْرَانِيًّا ولَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ومَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوه وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ﴾ .

ويقول الرواة : إن النصارى من أهل نجران نكلوا عن المباهلة التى دعاهم إليها النبى عن أمر الله وعادوا إلى بلادهم كما أقبلوا منها دون أن يعطوه الرضى من أنفسهم . ولم تكن بين النبى وبين النصارى فى جزيرة العرب حرب ، وإنما تسامع المسلمون العرب ذات يوم بأن نصارى العرب فى مشارف الشام يتهيئون لغزو المسلمين فى المدينة . يدل على ذلك ما تحدث به عمر — رحمه الله — حين اعتزل النبى نساءه — من أن صاحباً له من الأنصار جاءه بليل فطرق عليه الباب . فلما خرج إليه أنبأه الأنصارى بأن قد حدث شىء عظيم . قال عمر : أوَجاء الغسانى ؟ وكانوا قد تسامعوا بأن غسان تهيأ لغزوهم . قال الأنصارى : لا ، بل حدث أعظم من ذلك . ثم مضى عمر فى حديثه .

فهذا يدل على أن أهل الشام من نصارى العرب قد أكبروا ما بلغهم عن النبى وانتشار أمره فى الجزيرة بالسلم حيناً وبالحرب حيناً آخر ، فهمّوا بغزوه كراهية أن ينشأ فى جزيرة العرب ملك منظم يصبح خطراً على حدود الإمبراطورية البيزنطية . وهذا فى أكبر الظن هو الذى حمل النبى على أن يرسل جيشاً إلى « مؤتة » على حدود الشام والجزيرة العربية وهى

الموقعة التى امتُحن فيها المسلمون وقتل فيها ثلاثة من أصحاب اللواء . وكادت الكارثة أن تكون أخطر من ذلك لولا براعة خالد بن الوليد — رحمه الله — حين أخذ اللواء وانحاز بالمسلمين حتّى أمنوا . وعسى أن يكون هذا أيضاً وما انتّهت إليه موقعة « مؤتة » هو الذى حمل النبى أن يغزو غزوة « تبوك » التّى فصل الله ذكر ظروفها فى سورة التوبة كما سترى .

١٧

وكان أمر النبي مع المنافقين معقّداً أشد التعقيد لأنه اتصل منذ هاجر النبي إلى المدينة إلى أن آثره الله بجواره . ولأن النبي والمسلمين لقوا منه شرًّا أي شر وبلاء أي بلاء .

كان أمر المنافقين من جهة أيسر من أمر المشركين واليهود . فلم تكن بينهم وبين المسلمين حرب ولم تسفك بينهم دماء . ولكنه كان من جهة أخرى أشد من أمر المسلمين مع المشركين واليهود عسراً ؛ ذلك لأن المنافقين لم يصنعوا صنيع أولئك ولا صنيع هؤلاء ، لم يبادوا النبي وأصحابه بالكفر ، وإنما أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر . ولم يبادوا النبي وأصحابه بالعداوة الصريحة ، وإنما أظهروا المودة وأضمروا البغضة والعداء . ولم يخطئ الشاعر القديم حين قال :

فإما أن تكون أخي بحق فأعرف منك غثي من ثمينى
وإلا فاتركني واتخذني عدوًّا أتقيك وتتقيني

ويوشك النفاق أن يكون أبعد من الكفر الصريح والعداء البين أثراً في إفساد حياة الناس .

وقد كان النبي والمسلمون يعرفون من كفر المشركين واليهود وعدائهم ، ومن كيدهم لهم ومكرهم بهم ما يضطرهم إلى أن يحتاطوا لدينهم ولأنفسهم من أولئك وهؤلاء . وكانوا جديرين ألا يعرفوا من بغض المنافقين لهم شيئاً لولا أن خبر السماء كان يأتي النبي حين ينزل القرآن بما في قلوب

المنافقين من حقد عليهم و بغض لهم . وكان النبي مع ذلك قد أمر أن يقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فإذا قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله كما روينا آنفاً . وكان المنافقون يقولون : لا إله إلا الله فيعصمون دماءهم وأموالهم من النبي والمسلمين ولا يجعلون لهم على أنفسهم سبيلا ؛ ثم يستخفون بكفرهم وجحودهم . ولو قد اكتفوا بإخفاء الكفر والجحود بعد أن أظهروا الإسلام ثم لم يزيدوا على ذلك لكان أمرهم هيناً يسيراً ؛ ولكنهم يضيفون إلى الكفر والجحود استهزاءهم بالنبي والمسلمين حين يخلو بعضهم إلى بعض وإصرارهم على الكيد للنبي والمسلمين وتوليهم للمشركين واليهود دون النبي والذين اتبعوه وإطلاقهم كلمة السوء فى النبي والذين آمنوا معه كلما أتيح لهم إطلاقها ، وكان الحسد مصدر هذا كله فيما يظهر .

فلم تكن كلمة العرب فى المدينة مؤتلفة قبل هجرة النبي وإنما كانوا فئتين مختصمتين أشد الاختصام : كانوا قبيلتين عربيتين تنتسبان إلى أصل يمنى قحطانى ، وتشتد المنافسة بينهما حتى تثير الخصومة دائماً وتثير الحرب أحياناً .

وقد احتربت القبيلتان — الأوس والخزرج — فى آخر العصر الجاهلى حرباً متصلة مضنية . وكانتا جديرتين أن تستأنفا حربهما لولا أن هداهما الله إلى الإسلام بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فألغى ما كان بينهما من خصومة وكف أيدى بعضهم عن بعض . وكان من إحدى القبيلتين — وهى الأوس — رجل قد عظم شأنه وارتفعت مكانته فى قومه حتى كادوا يتوجونه ملكاً عليهم . فلما جاء الإسلام وهاجر النبي وأصحابه إلى يثرب

سقط أمر هذا الرجل وأصبح كغيره من أهل المدينة رجلا من الأوس وضاعت آماله وضاعت كذلك آمال أتباعه فيه . فليس غريباً أن يضيق هذا الرجل « عبد الله بن أبى بن سلول » والذين اتبعوه بمقدم النبى إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها وانصراف المسلمين من الأوس والخزرج عن التفكير فى الملك وفيمن يصير الملك إليه ، إلى التفكير فى الإسلام والنبوة وإلى الاستجابة للنبى فى كل ما يدعوهم إليه ويأمرهم به والانتهاء عما كان ينهاهم عنه و يخوفهم منه .

وليس غريباً أن يمتلئ قلب هذا الرجل والذين لاذوا به حقداً وحسداً للنبى ومن جاء معه من المهاجرين ومن اتبعه من الأنصار من الأوس والخزرج جميعاً .

وليس غريباً — حين ظهر الإسلام فى المدينة وفشا فى أهلها — أن يضطر هؤلاء الناس إلى أن يسلموا فيمن أسلم، لم يكونوا يستطيعون مقاومة لأن الإسلام كان قد دخل فى كل دار من دور الأوس والخزرج ، ولم يكونوا يستطيعون أن يخرجوا من المدينة و يتركوها للدين الجديد ومن جاء به. تمنعهم من ذلك مصالحهم وأموالهم وتمنعهم من ذلك كبرياؤهم أيضاً . ولم يكونوا آخر الأمر يستطيعون أن يظلوا كفاراً وأن يجاهروا بذلك فيجعلوا للنبى وأصحابه سبيلا على أنفسهم وأموالهم . لم يشرح الله صدورهم للإسلام ولم يجرؤوا على أن يظهروا الكفر فعاشوا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كما وصفهم الله فى الآية الكريمة من سورة النساء .

شقوا بنفاقهم هذا وآذوا به المسلمين إيذاء متصلا مختلفاً . كانوا خطراً فى أيام السلم يعرف النبى والمسلمون إسلامهم بأطراف ألسنتهم

وكفرهم فى أعماق قلوبهم . ثم يرون منهم ويسمعون ما يكرهون فى أوقات كثيرة ولا يستطيعون أن يعرضوا لهم بسوء لأن الله لم يسلطهم عليهم بل عصمهم منهم بكلمة التوحيد التى تنطلق بها ألسنتهم وتغلق من دونها قلوبهم . وكان أحدهم ربما غلب عليه كفره وبغضه فأظهر من القول والعمل ما كان جديراً أن يحل دمه ولكن النبى كان يسرع إلى العفو عن هذه الهفوات على خطورتها . كالذى كان — حين أعلن عبد الله بن أبىّ ابن سلول فى غزوة بنى المصطلق — من تلك الكلمة التى ذكرها الله فى القرآن حين قال: ﴿ لَئِنْ رجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخرِجنَّ الأَعزُّ مِنها الأَذلّ ﴾ يريد مبادأة المسلمين بالحرب إذا عادوا إلى المدينة وما يتبع ذلك من الاستعانة عليهم بأوليائه من الكفار .

وقد بلغت هذه الكلمة النبى صلى الله عليه وسلم واستأذنه عمر فى قتل هذا الرجل لأنه أحل دمه حين أعلن فى صراحة عداوته للمسلمين وإزماعه على أن ينصب لهم الحرب إذا عادوا إلى المدينة . ولكن النبى أبى على « عمر » وكره أن يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه كما جاء فى الحديث الذى رواه الشيخان .

وقد وصف الله المنافقين واشتد عليهم فى غير سورة من القرآن ، ففضح أمرهم كله وأظهر دخيلة نفوسهم فى الآيات الكريمة من سورة البقرة وذلك حيث يقول : ﴿ ومِنَ النَّاس مَنْ يَقُولُ آمنَّا باللهِ وباليَوْمِ الآخِرِ ومَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ والَّذِينَ آمَنُوا ومَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ ومَا يَشْعُرُون . فى قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

بِمَا كانُوا يَكْذِبُون ﴾ .

ثم يصف عنادهم وما ملأ قلوبهم من الكبرياء والغرور فيقول :

﴿ وإذَا قِيلَ لهم لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قالُوا إنَّما نَحْنُ مُصْلِحُون أَلاَ إنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ ولكنْ لاَ يَشْعُرُون. وإذَا قِيلَ لهم آمِنُوا كما آمَنَ النَّاسُ . قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهاءُ أَلاَ إنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ ولكنْ لا يَعْلَمُون ﴾ .

ثم يصف ذلة نفوسهم واضطرارهم إلى المخادعة وإباءهم بأن يعترفوا بهذه المخادعة ، فيقول :

﴿ وَإذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وإذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويَمُدُّهُم فى طُغيَانِهِم يَعْمَهُون﴾ .

ثم يشبههم بأصحاب التجارة الذين يبذلون أغلى الأثمان وأنفسها ليشتروا بها أخس المتاع وأشده عليهم وبالا ، ثم يعودون بعد ذلك بالخسران ؛ فيقول : ﴿ أُولئِك الَّذِينَ اشترَوُا الضَّلاَلَةَ بالهُدَى فما ربِحَت تِجارَتُهُمْ وَمَا كانوا مُهْتَدِين ﴾ .

ثم يصورهم أروع تصوير وأبرعه حين يمثلهم مرة بالذى يبذل الجهد ويجد كل الجد ليستوقد النار فإذا اضطرمت وارتفع لهبها وأضاءت ما حوله وحول أصحابه ، ذهب الله بما أتيح لهم من نور وتركهم فى ظلمات

لا يبصرون فيقول : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَه ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فى ظلماتٍ لا يُبْصِرُون . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون ﴾ .

ثم يصور حيرتهم واضطرابهم بين الخوف والأمن وبين اليأس والأمل فيضرب لهم مثلا قوماً أدركهم صيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، فهم وجلون قد ملأ الخوف قلوبهم وخيل إليهم أنهم يرون الموت فهم يضعون أصابعهم فى آذانهم إشفاقاً من الرعد والصواعق وحذراً من الموت . وهم يرون البرق يضىء ما حولهم فيمشون فى ضوئه . فإذا انقطع البرق وعادت الظلمة قاموا فى أماكنهم لا يدرون أين يذهبون ؛ فيقول : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظلماتٌ ورَعْدٌ وبَرْقٌ يَجْعَلونَ أصابعهُمْ فى آذانِهم مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ واللهُ مُحيطٌ بالكافِرين . يَكادُ البرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُم كلَّما أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظلمَ عَلَيْهم قَامُوا ولوْ شاءَ اللهُ لذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصارِهِمْ إنَّ اللهَ عَلَى كلِّ شىءٍ قدِير ﴾ .

وذكرهم الله فى سورة النساء فصور ترددهم بين الإيمان والكفر ، فهم يؤمنون ثم يكفرون ثم يرجعون إلى الإيمان ، ثم يعودون إلى الكفر ، ثم يزدادون كفراً قد ملكت عليهم الحيرة أمرهم فهم لا يعرفون أى طريق يسلكون .

وذكر توليهم للكافرين من دون المؤمنين كيداً لهؤلاء والتماساً للعزة عند الكافرين .

وذكر أنهم إذا قاموا للصلاة قاموا كسالى لأن صلاتهم ليست صلاة صدق وإنما صلاة خداع ورياء فهم يراؤون الناس ليكفوا أيدى المسلمين عنهم ، وهم يخادعون الله والله خادعهم ، وهم مذبذبون بين الإيمان والكفر . ليسوا مع المؤمنين تأبى عليهم ذلك قلوبهم المدخولة وليسوا مع الكافرين صراحة يخافون أن يجعلوا للمؤمنين عليهم سبيلا ، وهم يحاولون أن ينتفعوا بذبذبتهم هذه . فإذا أتيح النصر للمؤمنين قالوا : ألم نكن معكم ؟ لينتفعوا بثمرة الفتح ، وإن يكن شىء من النصر للكافرين قالوا : ألم نحطكم ونحمكم من المؤمنين ؟ يريدون أن ينتفعوا من انتصار الكفار . وهم يستهزئون بآيات الله إذا خلوا إلى أنفسهم والله يحذر المؤمنين إن سمعوا بعض هذا الاستهزاء أن يقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره حتى لا يكونوا مثلهم ولا يلقوا مثل ما يلقى المنافقون من العذاب لأن الله سيجمع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً .

والله يأمر نبيه أن يبشر المنافقين بالعذاب الأليم ويعلن أنهم فى الدرك الأسفل من النار ، وأنهم لم يجدوا من ينصرهم أو يرد عنهم هذا العذاب .

والله يقول فى هذا كله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا ثُمَّ كَفَرُوا ثم آمَنوا ثم كفَرُوا ثم ازْدَادُوا كفْراً لم يَكن اللهُ لِيغْفِرَ لهُمْ ولاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبيلاً . بَشِّر المُنافقِين بأَنَّ لهم عذَاباً أليماً . الَّذين يَتَّخذون الكافِرين أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُم العِزة فإِنَّ العِزَّة لِلهِ جميعاً . وقَدْ نزَّلَ عليكم فى الكِتاب أَنْ

إذا سَمِعتم آياتِ اللهِ يُكفَرُ بها ويُسْتهزأُ بها فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُم حتَّى يَخُوضُوا فى حديث غيره إنَّكم إذًا مِثْلُهم إنَّ الله جامِعُ المُنافِقين والكافِرين فى جَهنَّمَ جَمِيعاً. الّذين يَتربَّصُون بكم فإنْ كان لكم فتحٌ من الله قَالُوا أَلَمْ نكُنْ مَعكُمْ ، وإنْ كَانَ لِلكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتحْوِذْ عَلَيْكُمْ ونمْنعكم منَ المُؤْمنِين ، فاللهُ يَحْكُم بَيْنكم يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَلَن يَجْعَل اللهُ الكافرين عَلَى المُؤمِنين سَبِيلا ، إنَّ المنافِقين يُخادِعُون اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاس وَلاَ يَذكُرُونَ اللهَ إلاَّ قَلِيلاً . مُذَبْذبِين بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ ولاَ إلَى هَؤُلاء ، وَمَنْ يُضْلِل اللهُ فلنْ تجِدَ لهُ سَبيلا . يـأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا الكَافِرين أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المؤمنين أَتُريدُون أن تجْعَلُوا لله عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً . إنَّ المَنافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفل من النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلحوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فأُلَئِكَ معَ المؤْمِنِينَ وَسَوفَ يُؤْتى اللهُ المؤْمِنِينَ أَجرًا عَظيماً . ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إنْ شَكرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكانَ الله شَاكِرًا عَلِيما ﴾ .

فانظر كيف ذكر أمرهم على هذه الصورة من النكر والبشاعة ومن الكفر والغدر ، وكيف أنذرهم هذا النذير الشديد بالعذاب الأليم وبأنهم فى الدرك الأسفل من النار لا يجدون لهم نصيراً . ثم عاد بعد هذا الوصف

القوى المؤنس ففتح باب الأمل أمامهم وأعلن أن من تاب منهم وأصلح واعتصم بالله وأخلص له دينه فهؤلاء مع المؤمنين . والله يعد المؤمنين أجراً عظيما .

وكذلك القرآن يشدد النكير على المنافقين وعلى الذين يقترفون الآثام ويجترحون الكبائر حتى يشرف بهم على اليأس . ثم يفتح لهم بعد ذلك أبواب الأمل واسعة ويجعل التوبة الخالصة الصادقة النصوح سبيلهم إلى الأمل فى النجاة ، بل فى أكثر من النجاة فى الاستمتاع بما أعد الله للمؤمنين الصادقين الناصحين من النعيم .

كان المنافقون إذن خطراً أيام السلم وكانوا أشد خطورة أيام الحرب فهم كانوا أضعف إيماناً بالله والرسول والدين من أن يقاتلوا العدو على بصيرة إذا لقوه، وأن يثبتوا له إذا أغار عليهم فى المدينة ، وهم كانوا يظهرون هذا الضعف ولا يخفونه ، وكانوا حين يجد الجد لا يجدون حرجاً ولا حياء فى أن يظهروا الجبن وما يستتبع الجبن من انخلاع القلوب واضطراب النفوس وضمور العزائم وفتور الهمم وانهيار الصبر على المقاومة .

وهم كانوا بذلك ينشرون الخوف ويشيعون الذعر بين ذوى قرباهم وجوارهم من المسلمين ؛ وأى شر فى أوقات الحرب أعظم خطراً من انقسام الجيش المحارب أمام العدو وفى أوقات الحصار خاصة إلى فريقين، فريق يستقبل العدو فى ثقة بالله وإيمان بوعده ، وفريق آخر يظهر الجبن ويحتال للفرار ما وجد إلى الفرار سبيلا ، ثم يشكك فى عواقب الحرب ويملأ قلوب المدنيين فرقاً وخوفاً .

وكذلك صنع المنافقون فى غزوة الأحزاب : خرجوا مع النبي وأصحابه لمواجهة العدو ، فلما رأوا كثرته وما ظهر من قوته وبأسه ، ورأوا أن المشركين لا يأتون المدينة من قبل مكة فحسب وإنما يأتونها من مكة ومن نجد ، يأتونها من فوقها ومن أسفل منها ، انخلعت قلوبهم وأخذ الرعب منهم كل مأخذ، وملك عليهم الهلع أمرهم كله حتى منعهم من الاحتياط فى القول والعمل ، فقال بعضهم — كما نقرأ فى سورة الأحزاب : ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إلا غُرُورًا﴾ . يذيعون الشك ويشطون الهمم . وقال بعضهم : ﴿يـأَهلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فارْجِعُوا﴾ . يغرون المسلمين بالفرار . وترك النبي وحده مع المهاجرين تجاه العدو . ثم لم يكتفوا بما قالوا وإنما أقبل بعضهم على النبي يستأذنونه فى الرجوع ويعتلون بأن بيوتهم عورة مكشوفة للعدو . ويظهر الله جلية أمرهم فيرد عليهم معاذيرهم بقوله : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فرارًا﴾ .

ثم يفضح الله ما انطوت عليه قلوبهم من الكيد والغش والاستعداد لإجابة العدو ولما يريد .فيقول : ﴿ولوْدُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بهَا إلاَّ يَسِيرًا﴾. وينبئهم الله بأنهم لم يريدوا أن يفروا وحدهم وإنما أغروا غيرهم بالفرار ولم ينتظروا مقدم العدو لإظهار الجبن والفرق والكيد معاً . وذلك حيث يقول من سورة الأحزاب أيضاً : ﴿قدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقينَ مِنْكُمْ والْقَائِلينَ لإخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إلَيْنَا ولا يَأْتون البَأْسَ إلاَّ قَلِيلا﴾ .

وما أعرف أن الجبن والمكر معاً وصفا بمثل ما وصفهم الله فى القرآن

حيث يقول فى المنافقين فى سورة الأحزاب : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُم فإذَا جاءَ الخَوْفُ رَأَيتَهم يَنْظرُونَ إلَيْكَ تدُورُ أَعْيُنهُم كالَّذِى يُغْشَى عَلَيهِ مِنَ المَوتِ فإذَا ذَهبَ الخوفُ سَلقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَاد . أَشحَّةً على الخير أولَئِكَ لم يُؤْمنوا فأَحْبَط. اللهُ أعمالهم وكانَ ذَلكَ عَلى الله يَسِيراً﴾ .

فانظر إليهم بخلاء بالنصر والتأييد على المؤمنين ، جبناء يُذهب الخوف إذا جاء نفوسهم وعقولهم وأفئدتهم ، فهم ينظرون إلى النبى تدور أعينهم كالذى تأخذه غشية الموت قبل أن يأتيه الموت . ثم انظر إليهم ماكرين بالمؤمنين كائدين لهم ، قد ملأت البغضاء قلوبهم فأطلقوا فى المسلمين ألسنتهم حداداً بمقالة السوء فى النبى وفى المؤمنين ، حين يذهب الخوف ويعود الأمن .

وصور الله فى سورة الأحزاب أيضاً إفراط المنافقين فى الجبن وإغراقهم فى الفرق . فقد انصرف الأحزاب عن المدينة ولكن خوف المنافقين يخيل إليهم أنهم ما زالوا محاصرين للمدينة ، وهم من أجل ذلك وجلون . ثم ينبئ الله نبيه والمؤمنين بأن الخوف قد ملأ قلوب هؤلاء المنافقين أن جعلهم يشفقون من الأحزاب حتى بعد انصرافهم ، يخافون أن يعيدوا الكرة ولو قد فعلوا لود المنافقون لو أنهم تركوا المدينة وعاشوا مع الأعراب فى باديتهم ، لا يرون ما يكون بين المؤمنين وبين الأحزاب من حرب ولا يرون عواقب هذه الحرب ، وإنما يسألون عن أنباء المؤمنين وهم بعيدون عنهم فى باديتهم تلك ، قد أمنوا أن يمسهم من شر الحرب كثير أو قليل .

وقد ظهرت نيات المنافقين كأبشع ما كانت حين هم النبي بغزوة تبوك ، ووصف الله نياتهم هذه وقلوبهم وأعمالهم فى روعة أى روعة ، وتفصيل أى تفصيل ، واشتد عليهم كل الشدة من أجل نياتهم وقلوبهم وأعمالهم فى أكثر سورة التوبة .

وكانت غزوة تبوك مصدر محنة عامة للمنافقين جميعاً ، ولفريق من المؤمنين أيضاً . ذلك أن النبي أخذ يتجهز لها فى وقت لم يكن أشد على الناس فيه من ترك المدينة والمضى إلى الحرب وإلى الحرب فى مكان بعيد .

كان ذلك فى أشد الصيف حين يشتد القيظ على المقيمين فكيف بالمسافرين ، وحين تنضج الثمار ويود الناس لو فرغوا لاجتنائها . وكان ذلك فى وقت عسرة قل فيه المال واشتدت فيه الحاجة إليه . فهذه الحرب البعيدة التى لا تعرف عواقبها ، والتى لا تحمل إلى قبيلة من قبائل الأعراب قريباً من المدينة وإنما تحمل إلى عرب الشام فى حدود الجزيرة العربية .

كل هذا كان يحتاج إلى النفقة الكثيرة وكان يكلف المسلمين أن يجاهدوا بأنفسهم وأموالهم وأن ينفقوا على هذه الحرب عن سعة ومن أجل هذا دعى المسلمون إلى الإنفاق ودعوا إلى الجهاد بأنفسهم ، فأما الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فأجابوا إلى ما دعوا إليه وأبلى عثمان فى الإنفاق على هذه الحرب أحسن البلاء . وتجهز المؤمنون الصادقون للحرب وأعانوا من احتاج منهم إلى المعونة . وجاءت جماعة من المؤمنين إلى النبي متطوعين للجهاد ولكنهم لا يجدون النفقة . فأقبلوا يسألونه أن يحملهم وأجابهم النبي بأنه لا يجد ما يحملهم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع

حزناً ألا يجدوا ما ينفقون كما ذكر الله فى سورة التوبة .

ومن أجل هذا كله شدد الله على المؤمنين فى أن ينفروا مع النبى ولامهم فيما أظهر بعضهم من الفتور والتثاقل فقال : ﴿ يأيُّها الذين آمَنوا مَالكُم إذا قِيلَ لكُمُ انفِرُوا فِى سَبيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إلى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بالحياةِ الدُّنيا مِنَ الآخِرَة فما مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا فى الآخرة إلاَّ قَليل . إلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبكُمْ عَذاباً أليماً ويَسْتَبْدِلْ قوماً غيركم ولاتَضُرُّوهُ شيئاً والله على كلِّ شىءٍ قَدِير . إلاَّ تَنْصُرُوه فقد نَصَرهُ اللهُ إذْ أَخْرَجَه الذين كَفَرُوا ثانِىَ اثْنَيْن إذْ هُمَا فِى الْغار إذْ يقُولُ لِصَاحِبهِ لاتَحْزَن إنَّ اللهَ معنا فأَنزلَ الله سكِينتَهُ عليهِ وأَيَّدَهُ بِجنُودٍ لمْ تروها وجَعَلَ كَلِمَةَ الذِين كفرُوا السُّفْلى وكَلِمَةُ الله هى العُليا واللهُ عَزِيزٌ حَكيم . انفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وجاهِدُوا بأَمْوالِكُمْ وأَنفُسكم فى سبيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لكمْ إن كنتُم تعلمُون ﴾ .

فإذا كان الجهاد قد ثقل على المؤمنين الصادقين الذين أخلصو دينهم لله ، وآثروا رسول الله على أنفسهم فهو على المنافقين أشد ثقلا .

والمنافقون لا يجاهدون ابتغاء مرضاة الله ، لأن قلوبهم لم تؤمن به ؛ ولا يجاهدون إيثاراً للنبى على أنفسهم ، لأنهم لم يحبوا النبى ولم يخلصوا له ؛ وإنما يجاهدون إن جاهدوا ابتغاء للغنيمة واتقاء لعاقبة القعود . ولذلك قال الله فيهم : ﴿ لَوْ كَانَ عرَضاً قريباً وسَفَراً قَاصداً لاتَّبعُوكَ ولكِنْ

بَعُدَتْ عَلَيْهِم الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُون باللهِ لَو اسْتَطَعنَا لخَرَجنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

فهم إذن كارهون للخروج يؤثرون الراحة والأمن وإحراز أموالهم وهم يحلفون للنبي والمؤمنين لو استطاعوا لخرجوا معهم ولكن الله ينبئ نبيه بأنه يعلم أنهم كاذبون وأنهم لو صح إيمانهم لم يستأذنوا . وقد أذن النبي لهم فى القعود فعفا الله عنه وسأله فى شيء من العتاب : ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ ﴾ .

ثم بين له أن المؤمنين لا يستأذنون وإنما ينفرون للجهاد إذا دعوا إليه ، وأن الذين لم يصح إيمانهم هم الذين يتكلفون الإذن يتخذونه تعلة لقعودهم عن الجهاد .

ويبين الله كذب المنافقين حين زعموا أنهم كانوا يودون او يخرجون مع النبي وأصحابه ولكنهم لا يستطيعون الخروج . فهم لم يتهيئوا للخروج ولم يحاولوا أن يعدوا له عدة وإنما كانوا مزمعين على القعود حين دعوا ولم يكن استئذانهم واعتذارهم إلا تكلفاً . ومع ذلك فقد كان الله كارهاً لخروجهم فثبطهم وحبب إليهم التخلف لأنه كان يعلم من أمرهم ما يخفى على المؤمنين . كان يعلم أنهم لو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم بالغش والكيد والخيانة ولسعوا بينهم بالفتنة يحرجون صدور بعضهم على بعض ومن المؤمنين من كان يسمع لهم لمكانهم من قومهم .

وقد عرف الله وعرف النبي والمؤمنون ما كان من أمرهم قبل هذه الغزوة ، وكيف كانوا يكيدون للنبي وأصحابه . وكيف كانوا يقلبون الأمور

ابتغاء للإساءة إليهم والإيقاع بهم حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون .

وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ .

ويمضى القرآن فى تعديد سيئاتهم وآثامهم حتى ينبئ النبي بأن منهم من يلمزه فى الصدقات إذا لم ينله حظ منها . فيقول : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ .

ويبين الله بعد ذلك أن ما يجتمع للنبي من الزكاة لا ينبغى أن يعطى للأغنياء الذين لا يحتاجون إليه وإنما يوضع فى المواضع التى بينت فى القرآن ، فينفق منه على الفقراء والمساكين والذين يعملون على جمعها وإحصائها والذين يريد النبي أن يتألف قلوبهم وعلى تحرير الرقيق الذين يسلمون ولا يجدون ما يشترون به حريتهم من سادتهم ، وعلى الذين تقع عليهم المغارم فلا يستطيعون النهوض بها وتنفق على الجهاد فى سبيل الله وعلى الذين تنقطع بهم الطريق من أبناء السبيل ، فأما القارون فى المدينة

العاملون فى أموالهم والمنتفعون بثمراتها فليس لهم من الصدقات حظ .

وقد كان النبي يضع الصدقات فى المواضع التى بينها الله ولا يعطى منها الأغنياء والقادرين على أن يكسبوا ما يغنيهم عن المسألة . فأما المؤمنون الصادقون فيرضون عن ذلك ويرون أنه الحق ، ويستعفون عما يعلمون أن غيرهم أشد حاجة إليه ، وأما المنافقون الذين فى قلوبهم مرض فكانوا يرون أن ما يجتمع للنبي من الصدقات مال وأن لهم فيه نصيباً . وكانوا من أجل ذلك يلمزون النبي فى هذه الصدقات . وكانوا كذلك يلمزون المتطوعين فيها من الأغنياء ، يقولون : إن صدقتهم رياء ؛ ومن الفقراء ، يقولون إن الله غنى عما تصدقوا به .

وفضح الله فى القرآن هذا كله من أمرهم . وفضح من أمرهم شيئاً آخر وهو أن منهم من كانوا يؤذون النبي ويقولون هو أذن ، أى يسمع لما ينقل إليه . ورد الله عليهم ذلك بأن النبي أذن خير لهم ثم أنذرهم بأن الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم .

فقال : ﴿ ومِنْهُمُ الذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيّ ويَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ ويُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ . ورَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ . والَّذِينَ يُؤْذُون رَسُولَ ٱللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وبعد أن أحصى الله من سوء أعمالهم وفضح من ذات نفوسهم ما تستطيع أن تقرأه فيما بعد هذه الآية من سورة التوبة أظهر من غضبه عليهم شيئاً عظيماً فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِاللهِ ورَسولِهِ . واللهُ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الفاسِقِينَ ﴾ .

ويقول المحدثون – وفيهم الشيخان – إن عبد الله بن أبى بن سلول لما مات جاء ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنبأه بموته وسأله الصلاة عليه. فأجابه النبي إلى ماسأل . وكان عمر حاضراً فراجع النبي فى ذلك وذكر هذه الآية . فقال النبي : إن ربى خيرنى وأختار الصلاة عليه ، فأنزل الله بعد ذلك نهيه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم فقال :

﴿ولاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَد مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا ولا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ ورَسُولِه ومَاتوا وهُمْ فَاسِقُون﴾ .

ثم نهى الله نبيه عن أن يقبل منهم عذراً بعد عودته إلى المدينة وبعد أن بين الله له من أمرهم ما بين : ﴿يَعْتَذِرُونَ إلَيْكُمْ إذَا رَجَعْتُمْ إلَيْهِمْ . قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قدْ نَبَّأنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولُه ثُمّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ونهى الله نبيه كذلك عن إخراجهم معه وإشراكهم فى قتال العدو ، فقال : ﴿فَإنْ رَجَعَكَ اللهُ إلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا ولَنْ تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالْقُعُودِ أَوَّلَ مرَّة فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِين﴾ .

وعلى ما فى سورة البقرة والنساء والتوبة من وصف المنافقين وتشديد النكير عليهم والوعيد بالتغليظ عليهم فى العذاب ، وصفهم الله فى سورة

أخرى سميت باسمهم فعرفهم أصدق تعريف .

وصف هيئتهم حين يسكتون وحين يتكلمون وذكر من أقوالهم وأعمالهم ما يبين فى وضوح أنهم عادوا إلى جاهليتهم الأولى ولم ينتفعوا بالإسلام الذى قبلوه ثم كفروا به . فقال : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُه واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

يريد عز وجل أنهم كذبوا على النبى فيما زعموا له من إيمانهم برسالته لأنهم لا يؤمنون بها فيما بينهم وبين أنفسهم وإنما يضمرون الكفر ويستخفون به ويتخذون إيمانهم دريئة يتقون بها غضب النبى والمؤمنين عليهم وبطشهم بهم ويسترون بها كيدهم للمسلمين وصدهم عن سبيل الله كما يقول الله عز وجل : ﴿ اتَّخَذُوا أَيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ .

ثم وصف هيئتهم حين يرون لأول وهلة وحين يتكلمون بعد ذلك أبرع وصف ؛ فمنظرهم معجب ومخبرهم مكذب لمنظرهم . ومن أجل ذلك قال الله : ﴿ وإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ . وإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ .

أى لأنهم حين يتكلمون لا يصدر كلامهم عن قلوبهم وإنما هو شىء تنطق به ألسنتهم نطقاً آليًّا لا يصور ذات نفوسهم . وهم إلى

ذلك جبناء يرهبون كل شيء ويحسبون كل صيحة عليهم ، وهم إلى هذا كله خطرون بما يكيدون ويمكرون حين يخلون إلى أنفسهم وإلى شياطينهم ومن أجل ذلك يأمر الله نبيه أن يحذرهم .

ثم هم بعد ذلك مستكبرون . إذا دعوا إلى التوبة وإلى رسول الله ليستغفر لهم لووا رءوسهم واستجابوا لكبرياء نفوسهم كما يقول الله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرِ لَكُمْ رَسُولُ ٱللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ .

وهم ينهون من يسمع لهم عن أن يعينوا النبي على نفقة من يحتاج إلى النفقة من أصحابه ، لعلهم يستيئسون منه فينفضوا عنه ، ويأمر الله نبيه أن يقول : إن لله خزائن السموات والأرض وهو جدير أن يغني نبيه وأصحابه عن معونتهم . وذلك حيث يقول الله : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا . وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّموَاتِ والأَرْضِ ولٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ .

وكذلك كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة جهاداً كلها ، فهو يجاهد المشركين من قريش والمشركين من العرب ويجاهد اليهود فى المدينة وخارج المدينة ، ثم يجاهد المنافقين الذين يظهرون أنهم له أولياء وليسوا من ولايته فى شيء ، وإنما هم أولياء أعدائه من المشركين واليهود . وهو يجاهد المنافقين بالصبر على ما يقترفون فى ذاته وفى ذات المؤمنين وفى ذات الله عز وجل من السيئات والآثام وبالاحتياط لكيدهم ومكرهم وإغرائهم به وتأليبهم عليه . وهذا الجهاد المتصل المختلف كان

جديراً أن يستغرق حياة النبي كلها وأن يشغله عن كل شيء غيره . ولكنك سترى مما يأتي فى هذا الحديث أنه لم يستغرق من حياة النبي إلا بعضها بل أقلها وأنه أنفق سائرها ناشراً للدين معلماً للمؤمنين والمسلمين مبيناً لهم حقائق دينهم ، ومرشداً لهم إلى ما يجب عليهم وما لا ينبغي لهم فى سيرتهم من خطير الأمر ويسيره .

ولا بد بعد هذا الحديث الطويل الموجز على ذلك عن المنافقين من أن نعود مرة أخرى إلى جهاد النبي للمشركين .

١٨

ذلك أن الهدنة التى عقدت بين النبي وقريش يوم الحديبية لم ترح النبي والمؤمنين من الجهاد . ولم تتح لهم سلماً كاملة قد كف الله أيدى قريش عن المؤمنين . وكف أيدى المؤمنين عن قريش بهذه الهدنة إلى حين ولكن مكر قريش ما زال كما هو ينبث فى قبائل العرب مغرياً ومحرضاً . ونحن لم نذكر لك من الجهاد بين النبي وبين مشركى العرب من غير قريش شيئاً وإنما أشرنا إليه إشارة لا تصوره ولا تحققه ، لأننا لا نكتب السيرة فى هذا الحديث وإنما نصور فى إيجاز شديد ما ليس بد من تصويره لنعرض عليك مرآة صادقة للعصر والبيئة اللذين عاش فيهما النبي وأصحابه ولنشأة الإسلام وانتشاره قليلا قليلا حتى شمل جزيرة العرب كلها قبل أن يختار الله نبيه الكريم لجواره .

والواقع أن الجهاد بين النبي وبين المشركين من العرب كان متصلا وكان شاقاً ، كان النبي يريد أن ينشر الإسلام من جهة وكان أعداؤه المشركون يحاولون أن يمنعوه من ذلك ما استطاعوا إلى منعه سبيلا ، يغيرون على المدينة حيناً ويتهيئون للإغارة عليها حيناً آخر .

ولم يكن بد للنبي وأصحابه من أن يردوهم إن أغاروا ومن أن يسبقوهم ليكفوهم إن هموا بالإغارة . وكان فى أهل البادية من العرب مكر وكان فيهم غدر أيضاً وكانوا يؤثرون المال على كل شيء . وكان كيد قريش وإغراؤها يصبان عليهم فى كل وقت يغرونهم بالمال أحياناً وبغير المال

أحياناً أخرى . فكان منهم من يأتى النبي يزعم أنه قد أسلم وأن قومه من ورائه قد أسلموا وأنهم فى حاجة إلى من يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين . فكان النبي يرسل إليهم النفر من أصحابه فلا يكادون يبعدون بهم عن المدينة حتى يظهروا ما أضمروا من الغدر ويوقعوا بمن أرسل النبي معهم من المسلمين . فيقتلون بعضهم ويأسرون بعضهم يتقربون بأسره إلى قريش ويقدمونه إليها ويأخذون جائزتهم على هذا الغدر كالذى كان من « لحيان » يوم « الرجيع » حين أرسل النبي معهم مفقهين لهم فى الدين فلما بعدوا بهم عن المدينة أظهروا الغدر . فقاتلهم المسلمون حتى قتل منهم من قتل وأسر منهم من حملوه إلى قريش فقتلته .

ولم يحدث هذا مرة واحدة وإنما حدث غير مرة . ذلك إلى ما كان يحدث من تجمع وتهيؤ لغزو النبي . فيعلم النبي علمهم ويضطر إلى أن يسبقهم إلى الغزو ليوقع بهم مرة وليشعرهم بقوته وتأهبه ويقذف فى قلوبهم الرعب مرة أخرى .

فكانت حياة النبي والمسلمين جهاداً كلها واضطر النبي أحياناً إلى أن يرسل السرايا ، وأحياناً أخرى إلى أن يخرج بنفسه لهذه الأغراض التى بيناها ؛ أضف إلى ذلك أن قريشاً لم تقم على هدنتها تلك إلا قليلا ثم نكثت عهدها وأغارت على بعض حلفاء النبي من خزاعة فلم يكن بد من أن تعود الحرب بينها وبين النبي والمؤمنين جذعة .

وأحست قريش أن النبي قد غضب لحلفائه واعتبر الهدنة بينه وبينها منقوضة ، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة ليعلم علم النبي وأصحابه من جهة وليشد أمر الهدنة ويقويه من جهة أخرى . ولكن أبا سفيان جاء إلى المدينة وعاد إلى مكة فارغ اليدين لم يبلغ مما أراد شيئاً . وجعل النبي يتهيأ لعقاب

قريش حتى كان العام الثامن للهجرة فخرج النبي إلى مكة فى جيش لم يجتمع له مثله من قبل قوة وكثرة عدد حتى إذا كان غير بعيد من مكة خرج أبو سفيان فى نفر من قريش يتحسسون الأخبار. فلما رأوا نيران الجيش راعهم ما رأوا وعرفوا أن قد حاق بهم مكرهم السيئ. وأخذ أبو سفيان إلى النبي، أخذه العباس بن عبد المطلب الذى جعل ينصح له فى الطريق ويحثه على الإسلام حتى أدخله على النبي صلى الله عليه وسلم فشهد بين يديه: لا إله إلا الله وأظهر التردد فى الشهادة بأن محمداً رسول الله. ولكنه اضطر آخر الأمر إلى أن يعلن الشهادة. فأمنه النبي على نفسه وعلى كل من دخل داره من قريش وعلى كل من دخل المسجد الحرام منها وعلى كل من لزم داره وأغلق بابه منها أيضاً.

وعاد أبو سفيان إلى قريش بهذا الأمان فلم يسعها إلا الإذعان؛ فقوم دخلوا دار أبي سفيان وقوم دخلوا المسجد الحرام وآخرون لزموا دورهم وغلقوا أبوابهم. وأصبح النبي فدخل مكة بعد أن أمر قواده ألا يقاتلوا أحداً إلا من عرض لهم بسوء. ولم يخالف عن هذا الأمر من القواد إلا خالد بن الوليد — رحمه الله — كان فيه شيء من عنف فأعمل السيف فيمن لقيه ورفع ذلك إلى النبي فتبرأ مما صنع خالد وأرسل من أصحابه من كفه عن القتل والقتال، ودخل النبي والمسلمون مكة. فأقبل النبي على المسجد الحرام فحطم ما كان حول الكعبة من الأوثان وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

ثم أمر «بلالا» فأذن فوق ظهر الكعبة إعلاناً للإسلام وإعلاء لكلمة الله. واجتمعت قريش — فيما يقول الرواة — للنبي صلى الله عليه وسلم،

فقال لهم فيها قال : « يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » . قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فإنى أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وأسلمت قريش : منهم من أسلم طائعاً ومنهم من أسلم لأنه لم يجد من الإسلام بداً .

وكذلك استقر الإسلام فى مكة بعد أن خرج منها ، هاجر به النبي والمسلمون اتقاء للفتنة وابتغاء للأمن والعافية ونشر الدين ، لا خائفين ولا وجلين .

عاد الإسلام إلى مكة واستقر فيها ظافراً منصوراً موفوراً ، ودخلت قريش فيه طوعاً أو كرهاً وصدق وعد الله فى قوله الكريم : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

ولكن النبي ومن هاجر معه من أصحابه لم يقيموا بمكة ولم يستقروا فيها وإنما آثروا مهاجرهم فى المدينة وكرهوا أشد الكره أن يستبدلوا به مكاناً غيره مهما يكن وأن يخرجوا من المدينة إلا وفى نيتهم أن يعودوا إليها إن أذن الله لهم بالعودة إليها .

ويقول الرواة : إن سعد بن أبى وقاص — رحمه الله — مرض بمكة وثقل المرض عليه حتى هم بالوصية واستشار النبي فى ذلك فدعا له النبي وكان يشفق من أن يدركه الموت بعيداً عن الأرض التى هاجر إليها

وصارت هذه سنة بين المهاجرين من أصحاب النبي حتى كانوا يكرهون إذا ألموا بمكة أن يصنعوا فيها صنيع المقيمين : كانوا يرون أنفسهم على سفر – وإن نزلوا بين عشائرهم من أهل مكة – فيقصرون الصلاة ، ومن أجل ذلك راجعوا عثمان رحمه الله حين أتم الصلاة بمنى لأنهم كانوا يرونه مسافراً يجب عليه قصر الصلاة ؛ وإن كان أهله بمكة لأن دار إقامته فى المدينة لا فى غيرها .

ولم يعد النبي بعد الفتح إلى المدينة وإنما بلغه أن « هوازن » تجمع له جموعها فخرج للقائهم فى الجيش الذى أقبل معه إلى مكة وفيمن انضم إليه من طلقاء قريش أو مسلمة الفتح كما كان يقال إذ ذاك . والتقى الجمعان يوم « حنين » فامتحن المسلمون امتحاناً شديداً وجالوا جولة حتى قام النبي وحده فى الموقعة على ظهر بغلته . والعباس آخذ بزمامها والنبي يدعو أصحاب سورة البقرة ويقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

ثم ثاب إليه الأنصار وثاب إليه بعدهم سائر المسلمين وأنزل الله نصره على نبيه وعلى المؤمنين فانهزم المشركون هزيمة منكرة قتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر وسبيت النساء والذرارى وعاد النبي وأصحابه موفورين ، ولكن « هوازن » عادوا إليه بعد هزيمتهم يسألونه أن يمن على سبيهم ويذكرونه بأنهم أخواله لأنه أرضع فيهم إذ كانت حليمة منهم .

وقد أطلق النبي من السبي من كان فى أيدى رهطه الأدنين من بني عبد المطلب ووعدهم إذا صلى بالناس من غد أن يسألوه فى ذلك ويذكروا خؤولتهم له . فلما فعلوا شفع النبي لهم عند المسلمين فلم يبق

أحد منهم إلا أطلق من كان عنده من السبي ورده على قومه .

وكان آخر حرب للنبي مع المشركين حين حاصر الطائف بجيشه ذاك . وقد أطال الحصار ولكن الله لم يسلطه على هذه المدينة . فرفع الحصار وعاد بجيشه إلى دار هجرته ثم لم تلبث ثقيف أن أرسلوا إليه وفدهم يطلبون الصلح فقبله منهم على أن يدخلوا فى الإسلام ويرفضوا الشرك ويمحقوا آثاره .

ومنذ ذلك الوقت جعل العرب يتسامعون فى قلب الجزيرة وأطرافها بالإسلام وما أتيح للنبي وأصحابه من نصر فجعلت وفودهم تفد عليه يعرضون إسلامهم وإسلام قومهم ، فيقبل النبي منهم ويعلمهم دينهم . وربما أرسل معهم من يعلم قومهم شرائع الإسلام .

وكذلك عظم أمر الإسلام وانتشر فى الجزيرة العربية كلها . ونظرة سريعة إلى ما بدأ الإسلام عليه فى مكة وما انتهى إليه فى المدينة فى هذا الوقت القصير تبين فى جلاء أن قوة عليا أرادت لهذا الدين أن يقوى وينتشر أولا وأن يجمع كلمة العرب ويوحد أهواءهم ويجعلهم أمة واحدة مؤتلفة تتعاون على البر والتقوى ولا تتعاون على الإثم والعدوان بعد الذى كان بينهم من اختلاف أى اختلاف واختصام أى اختصام ؛ ومن حرب بالألسنة دائماً وبالسيف والسنان فى أكثر الأحيان .

وأرادت كذلك أن تغير من أخلاقهم وعاداتهم وسننهم الموروثة ، فتحل الوفاء فى نفوسهم محل الغدر ، والأمانة محل الخيانة ، والبر مكان الجحود ، والرقة والرحمة مكان الغلظة والقسوة .

وأرادت أن تبين لهم الخير فيسلكوا إليه سبلهم وتدلهم على الشر

فيتنكبوا طرقه وأن تبين كبائر الآثام فيجتنبوها ومحاسن الأعمال فيجدوا فيها.

كل ذلك وأكثر جداً من كل ذلك أتيح للإسلام فى أقل من ربع قرن ، فى ثلاثة وعشرين عاماً . أنفق النبي منها ثلاثة عشر عاماً بمكة لا يكاد ينشر الإسلام إلا قليلا . وعشرة أعوام فى المدينة أتم الله فيها على يده جل هذه المعجزة الكبرى . فخلق العرب خلقاً جديداً وجعل منها أمة بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها . أنشأها إنشاء جديداً وهيأها للنهوض بالمهمة الكبرى التى تتجاوز حدود جزيرتها وتحول وجهة التاريخ وتغير وجه الأرض فى أقل من نصف قرن .

وكان النبي على هذا كله لا يدعى لنفسه معجزة إلا القرآن . وقد صدق النبي وبر فى ذلك . فقد كان القرآن معجزة أى معجزة . كان معجزاً بألفاظه ومعانيه ونظمه . لم يستطع أحد من العرب أن يحاكيه أيسر المحاكاة، وكان معجزاً بآثاره التى ظهرت فى حياة النبي والتى أشرنا إليها آنفاً ، وبآثاره التى ظهرت بعد وفاة النبي والتى لا يزال كثير منها باقياً إلى الآن وإلى آخر الدهر . وصدق الله حين قال فى سورة النور :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ .

وصدق الله كذلك حين قال فى سورة الحشر : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ . وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

فقد خشعت قلوب العرب للقرآن آخر الأمر ؛ نفذ إلى قلوبهم واستأثر بضمائرهم وفتح لهم آفاقاً كانت مغلقة أمامهم قبل أن يتلى عليهم وحررهم بعد الرق : رق النفوس للشهوات ؛ وطهرهم بعد الرجس : رجس الخطايا والآثام ، ووحدهم بعد الفرقة وأعزهم بعد الذلة وملأ قلوبهم نوراً فانبثوا فى الأرض ينشرون نور الله ما وجدوا إلى نشره سبيلا .

وزاد إقبال العرب على الإسلام وإذعانهم له بعد الحجة التى حجها أبو بكر — رحمه الله — بالناس عن أمر النبى سنة تسع . فى هذه الحجة أرسل النبى عليًّا ليلحق بأبى بكر ويتلو على الناس قرآناً أنزل فكان فصلا بين عهدين : عهد كان الإسلام يقوى فيه شيئاً فشيئاً وكان للشرك مع ذلك بقاء فى بعض قبائل العرب ، وعهد آخر خلصت فيه الجزيرة كلها للإسلام .

.. وهذا القرآن الذى فرق الله به بين هذين العهدين هو الآيات الكريمة الأولى من سورة التوبة ، فأعلن فيها براءة الله ورسوله من المشركين ، وحرم فيها أن يقرب المشركون البيت أو يلموا به أو يطوف به عريان .

وأمر فيها نبيه والمؤمنين معه أن يلغوا ما كان بينهم وبين المشركين من العرب من عهود الهدنة ؛ وألا يتموا من هذه العهود إلا ما كان بينهم وبين قوم لم يظهر منهم غدر ولا نقض للعهد . فهؤلاء أمر الله أن يتم المؤمنون لهم عهدهم إلى مدته ثم لا يجددوا لهم عهداً آخر ، وأجل الناس أربعة أشهر يأمنون أثناءها . فإذا انقضت فعلى المسلمين أن يقتلوهم حيثما وجدوهم وأن يقعدوا لهم كل مرصد لأنهم أهل غدر لا يؤمن لهم . وأمر ألا يكف المؤمنون عن قتلهم وعداوتهم حتى يتوبوا من شركهم

ويدخلوا فى الإسلام كما دخلت كثرة العرب .

ومعنى ذلك أن الله حرم الشرك فى جزيرة العرب وأمر النبى أن يقاتل المشركين من أهل الجزيرة حتى يثوبوا إلى الحق ويدخلوا فيما دخل فيه الناس . لم يأمر الله بذلك إلا لأنه علم أن هؤلاء المشركين إن أتيح لهم أن يظهروا على المسلمين بما فى قلوبهم من الغدر والكيد وما يسلط عليهم من الإغراء لم يرعوا فيهم إلاًّ ولا ذمة ولم يحفظوا عهداً ولا وفاء .

وهذه الآيات الكريمة هى قول الله عز وجل فى أول سورة التوبة :

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ ورسُولِهِ إلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِين. فَسِيحُوا فِى الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهر وَٱعْلَمُوا أَنكم غيرُ مُعْجِزِى ٱللهِ وأَنَّ ٱللهَ مُخزِى الكافرين . وأَذانٌ من اللهِ ورسُولِهِ إلى النَّاس يَوْمَ الحجِّ الأَكْبرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ منَ المشْركينَ ورسولُه فإنْ تُبْتُمْ فهو خَيْرٌ لكم . وإنْ تَوَلَّيتُم فَاعْلَمُوا أَنكم غيرُ مُعْجزى ٱللهِ . وبشِّر الذِينَ كَفَرُوا بعذابٍ أَلِيم . إلاَّ الذين عاهدتُم من المُشركِين ثم لم يَنْقُصُوكم شيئاً ولم يُظاهروا عليكم أَحَدًا فأَتِمُّوا إليهم عَهْدَهم إلى مُدَّتهم إنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقين. فإذَا ٱنسلَخ الأَشْهُرُ الحُرُم فاقْتُلوا المُشْرِكينَ حيثُ وَجَدْتُمُوهم وخُذُوهم وَٱحْصُرُوهُم وَٱقْعُدُوا لهم كُلَّ مَرْصَد . فإنْ تابُوا وأَقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاة فخَلُّوا سبيلهم إن ٱللهَ غفُورٌ رَحِيم . وإنْ أَحَد مِنَ الْمُشْركِين ٱسْتجارك فأَجِرْهُ حَتى يَسْمَعَ كلامَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلك بأَنَّهم قومٌ لا يَعْلمون . كيفَ يكونُ للمُشرِكين عَهْدٌ عِندَ

ٱللهِ وعِند رَسولِه إلاَّ الذين عاهدْتم عِندَ المَسْجِدِ الحرَامِ فما ٱسْتقامُوا لكمْ فاسْتَقِيموا لهم إنَّ ٱللهَ يُحِبُّ المُتَّقِين . كَيْفَ وإنْ يَظْهرُوا عَليكم لا يَرْقُبُوا فِيكم إلاًّ ولا ذِمَّة يُرْضُونَكم بِأَفْواهِهِمْ وتأْبَى قُلوبُهم وأَكثرُهُم فاسِقُون . اشترَوْا بآياتِ ٱللهِ ثمناً قليلاً فصَدُّوا عن سَبيله إنهم سَاءَ ما كانوا يَعْملون . لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إلاًّ ولا ذِمَّة وأُولئك هم المُعتدون . فإنْ تابُوا وأَقامُوا الصلاة وآتَوُا الزَّكاة فإخوانُكم فى الدِّين ونفصِّلُ الآياتِ لِقوْمٍ يَعْلَمُون . وإنْ نَكَثُوا أَيْمانَهم مِنْ بَعدِ عَهْدِهِمْ وطَعَنوا فى دِينِكُم فقاتِلُوا أَئِمَّة الكُفرِ إنهم لا أَيْمان لهم لعلَّهم يَنْتَهون . أَلاَ تُقاتلون قَوْماً نكَثُوا أَيْمانَهم وهَمُّوا بإخْراجِ الرَّسُولِ وهم بدَؤُوكمْ أَوَّلَ مَرَّة أَتَخْشَوْنهُم فاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْه إن كنتم مُؤمنين ، قَاتِلُوهُم يُعَذِّبْهُم ٱللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ويُذْهِبْ غَيظَ قُلوبِهِم ويَتوبَ الله على مَنْ يَشاءُ وٱللهُ عَلِيم حكِيم . أَم حَسِبْتمُ أَن تُترَكوا ولمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهدُوا مِنكم ولم يتَّخِذوا مِنْ دُون ٱللهِ ولاَ رَسُولِهِ ولا المؤمِنِينَ ولِيجَةً والله خَبيرٌ بِما تَعْملون ، ما كانَ للمُشركِينَ أَن يَعمُرُوا مَساجِدَ ٱللهِ شاهِدِين على أَنفُسِهِم بالكفْرِ أُولئكَ حَبِطَت أَعمالُهم وفى النَّار هم خالدُون . إنما يَعْمُرُ مَساجِدَ ٱللهِ مَنْ آمنَ بِاللهِ واليوْم الآخِرِ وأَقامَ الصَّلاة وآتى الزكاة ولم يَخش إلاَّ الله فعَسى أُولئك أَن يَكونُوا من المهْتَدِين ﴾

ثم يشدد الله عز وجل فى رد المشركين عن المسجد الحرام بعد ذلك العام الذى حج فيه أبوبكر بالناس فيقول فى الآية الكريمة من السورة نفسها : ﴿ يـأيها الذين آمنوا إنما المُشركون نَجَس فلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحرامَ بَعْدَ عامِهم هَذا وإن خِفتمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكم اللهُ مِنْ فَضْله إنْ شاءَ إنَّ الله عَليم حَكِيم ﴾ .

وكذلك حج النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فلم يلق فى الموسم مشركاً ولم ير عند البيت عرياناً . وألقى فى هذه الحجة خطبته المشهورة التى توشك أن تكون وصيته إلى المسلمين والتى حرص فيها بعد كل أمر أو نهى على أن يردد جملته الخالدة « ألا هل بلغت . اللهم اشهد » .

وقد أتم النبي رسالته كأكمل ما تتم الرسالات وأدى أمانته كأحسن ما تؤدى الأمانات .

وصدق الله حين أنزل على نبيه فى الآية الكريمة من سورة المائدة أثناء حجة الوداع : ﴿ اليَوْمَ يَئِسَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْن . اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ورَضِيتُ لكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ .

وصدق الله كذلك حين أنزل عليه بمنى فى حجة الوداع هذه السورة الكريمة يشعره فيها بأن رسالته قد تمت وأن مهمته فى الدنيا قد بلغت غايتها ويهيئه لما أعد له عنده من النعيم المقيم فى أرفع الدرجات :

﴿إذا جَاءَ نصْرُ ٱللهِ والْفتح . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُون فِي دِين الله أَفوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتغْفِرْهُ إنه كَانَ تواباً﴾ .

وقد تحدث النبي ذات يوم على المنبر إلى أصحابه ، فقال — فيما روى الشيخان — : « إن عبداً قد خيره الله بين زهرة الدنيا وما عنده ، فاختار ما عند الله » فلم يفهم عنه من أصحابه إلا أبو بكر . فقال : بل نفديك بآبائنا وأمهاتنا . فعجب الناس لمقالة أبى بكر ولم يحققوا مغزاها إلا حين اختار الله رسوله للرفيق الأعلى .

ولم يلبث النبي بعد حديثه ذاك أن أحس الوجع ، فكان يمرض فى بيت عائشة رحمها الله ؛ وكان يخرج للصلاة كلما وجد خفة . فلما ثقل عليه المرض أمر أبا بكر أن يصلى بالناس .

وتوفى صلى الله عليه وسلم فى نفس الشهر الذى وصل فيه إلى المدينة مهاجراً فى ربيع الأول لعشر سنين مضين منذ هجرته .

وقد ارتاب المسلمون حين نبئوا بوفاة النبي لم يصدقوا ذلك بل شكوا فيه وماج بعضهم فى بعض . وكان عمر أشدهم شكًّا حتى أنذر — فيما يقول الرواة — من قال إن النبي قد مات . ولكن أبا بكر تلا عليهم الآية الكريمة من سورة آل عمران : ﴿وَما مُحَمَّد إلَّا رَسُولٌ قدْ خَلَت مِنْ قبْلِهِ الرسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىعَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّالله شَيْئاً وَسَيَجْزِىٱللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ .

هنالك ثاب إلى المسلمين صوابهم فرجعوا إلى الحق وآمنوا لما لم يكن بد من أن يؤمنوا له وذكروا قول الله لنبيه : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُون﴾ .

١٩

ولم يكد النبي صلى الله عليه وسلم يفارق أصحابه حتى ظهر بينهم خلاف أوشك أن يكون عظيم الخطر على وحدتهم ، ذلك أنهم أحسوا الحاجة إلى من يخلف النبي فى سياستهم وتدبير أمورهم .

فأما الأنصار فظنوا أن الأمر ينبغى أن يكون فيهم وأن شؤون الحكم يجب أن تصير إليهم لأنهم أصحاب المدينة وليس المهاجرون إلا ضيفاً عليهم طرءوا على المدينة منذ عشر سنين . وهم قد آووا النبي والذين هاجروا معه من قريش والذين هاجروا إليه بعد ذلك من قريش ومن سائر العرب . وهم قد خاضوا فى سبيل النبي وفى سبيل الدين ما خاضوا من الحروب ، واحتملوا ما احتملوا من مشقة الجهاد . فهم أولى الناس بأن يكون منهم خليفة النبي ، وقد اجتمعوا بالفعل وأزمعوا أن يبايعوا بالخلافة رجلا ، ورشحوا « سعد بن عبادة » زعيم الخزرج لهذا المنصب .

ولكن الأمر انتهى إلى زعماء المهاجرين فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح إلى الأنصار ليعلموا علمهم وليصرفوهم عما أزمعوا . فكانت محاورة وشىء من جدال ثم عرضوا أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير فأبى ذلك أبو بكر وقال لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء . واحتج عليهم بأن النبي من قريش فيجب أن يلى أمره بعده أولو قرابته . وروى لهم عن النبي أنه قال : « الأئمة من قريش » . فثاب الأنصار إلى

سماحة نفوسهم وكرهوا أن يأخذوا الخلافة أجراً على ما أبلوا فى ذات الله ورسوله من البلاء .

وأذعنوا آخر الأمر لما حدثهم به أبو بكر عن النبي من أن الأئمة من قريش . ثم اقترح عليهم عمر أن يبايعوا أبا بكر وأسرع هو إلى بيعته فتبعه الأنصار ولم يخالف عنهم إلا سعد بن عبادة لم يقتنع بقول أبي بكر ولا بإسراع القوم إلى بيعته ، بل اعتزل الأنصار والمهاجرين جميعاً وعاش فى عزلته حتى قتل فى الشام أصابه سهم لم يعرف من رماه به .

وتحدث الناس بعد ذلك بأن الجن هم الذين قتلوه وأضافوا إلى واحد من الجن بيتين من الشعر زعموا أنهم سمعوهما ولم يروا قائلهما :

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده

ورميناه بسهمين فلم نخطئ فـؤاده

وبايع سائر المسلمين فى المدينة أبا بكر واستقام له الأمر .

ولكن خلافاً آخر شجر . وكان أشد على أبي بكر من خلاف الأنصار ذاك ، وكان هذا الخلاف بينه وبين فاطمة ـ رحمها الله ـ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . جاءته تطلب إليه ميراثها من أبيها . فأبى عليها ذلك وقال لها : إنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . ثم قال : إنه لن يخالف أبداً عن قول رسول الله .

فغضبت فاطمة وشاركها زوجها فى غضبها وتأخرت من أجل ذلك بيعة « على » رحمه الله لأبى بكر . على أن فاطمة ـ رحمها الله ـ لم تعمر بل توفيت بعد أبيها بستة أشهر . فأقبل « علىّ » فبايع كما بايع الناس .

ويقال إن بنى هاشم كانوا يرون لأنفسهم الحق فى خلافة النبى صلى الله عليه وسلم . فهم رهطه الأدنون وهم أقرب إليه من تيم قوم أبى بكر ومن عدى قوم عمر ومن أمية قوم عثمان . ولكنهم رأوا إجماع الناس على أبى بكر كما رأوا إجماع الناس على عمر من بعده وعلى عثمان من بعد عمر فكرهوا أن يثيروا الفتنة أو أن يحدثوا فى الإسلام حدثاً وأذعنوا لإجماع المسلمين .

ويقال كذلك إن النبى قال لبعض أصحابه فى مرضه الذى توفى فيه : « إيتونى بصحيفة أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً » . فاختلفوا وتنازعوا . يقول بعضهم : إن النبى قد اشتد عليه الوجع وعندنا كتاب الله . ويقول بعضهم الآخر : بل دعوا رسول الله يكتب. فلما أكثروا قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : قوموا عنى. قالوا : فكان ابن عباس يرى أن الرزية كل الرزية أنهم لم يخلوا بين رسول الله وبين ما أراد .

وأكاد أقطع بأن هذا الحديث — مهما يكن سنده — غير صحيح . فما كان للمسلمين أن يخالفوا عن أمر رسول الله . وما كان لرسول الله نفسه أن يخلى بينهم وبين هذا الخلاف وهو الذى لبث فيهم ثلاثة وعشرين عاماً يتلو عليهم القرآن ويعلمهم شرائع الدين ويأمرهم وينهاهم وينبئهم بخبر السماء . وأكبر الظن أن هذا الحديث وضع بأخرة حين تفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً .

٢٠

ومهما يكن من شيء فقد تمت بيعة أبي بكر وصحت وإن كان المسلمون لم يتشاوروا فيها حتى كان عمر رحمه الله يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها .

ولكن أبا بكر واجه خلافاً كاد شره أن يستطير ويصبح خطراً على الإسلام نفسه لولا أن الله عز وجل تأذن أنه هو الذى نزل الذكر وأنه حافظ له . فقال فى سورة الحجر : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، ولولا أن أبا بكر قد ثبت لهذا الخلاف أروع الثبات وصمم على حسمه تصميماً أذعن له المهاجرون والأنصار ومسلمة الفتح من قريش . فقد انتقض العرب على أبي بكر انتقاضاً مختلفاً . قال كثير منهم : نقيم الصلاة ولا نؤتى الزكاة . رأوا أن الزكاة نوع من الإتاوة ولم يتعودوه بل كانوا يأنفون منه أشد الأنفة ويرون أنه ضرب من الذلة والخضوع . ولم يقبل منهم أبو بكر ذلك بل صمم على أن يؤدى الناس إليه ما كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن هؤلاء يفرقون بين الصلاة والزكاة مع أن الله لم يفرق بينهما بل ذكرهما معاً فى القرآن مرات كثيرة . فهم يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعضه

وكان عمر قد قال له : كيف تقاتل العرب وهم يقولون لا إله إلا الله ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» .

كأن أبا بكر أراد أن قول لا إله إلا الله بطرف اللسان ليس إيماناً ولا إسلاماً وإنما يجب أن تقال باللسان ترجمة عما فى القلب من الإيمان بالله والتصديق للنبى والائتمار بما أمر الله ورسوله به والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه ، وقد أمر الله رسوله بإيتاء الزكاة فالنكول عن أدائها كفر والالتواء بها جحود . وليس للكفار الجاحدين إلا القتال .

وقوم آخرون من العرب ظهر فيهم كذابون زعموا لأنفسهم النبوة وتلوا على قومهم كلاماً زعموا أنه وحى من الله .

ظهر الأسود العنسى فى اليمن وظهر مسيلمة فى بنى حنيفة باليمامة وظهر طلحة فى بنى أسد وظهرت سجاح فى أحياء من بنى تميم وتبعهم خلق كثير من العرب الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم . وصدق الله حين قال فى الآية الكريمة من سورة الحجرات :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ولم يشك أحد من المهاجرين والأنصار والذين استقاموا على الإسلام فى أن قتال هؤلاء واجب لا منصرف عنه . والمهم أن أبا بكر نظر فإذا جزيرة العرب قد انتقضت عليه إلا أقلها ، فلم ير بدًّا من أن يجاهد المرتدين كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين من قبل .

وقد جد أبو بكر فى الحرب واستجاب له المسلمون استجابة صادقة فقاتلوا المرتدين عن إيمانهم وعلى بصائرهم صادقين مستبسلين لا يبخلون

بأموالهم ولا بأنفسهم حتى قتل كثير من خيارهم ولا سيما فى حرب مسيلمة . وأنزل الله نصره عليهم وعادت الجزيرة خالصة للإسلام واستطاع أبو بكر أن يجند من أصحابه ومن الذين عادوا إلى الإسلام بعد الردة تلك الجيوش التى رمى ببعضها العراق ورمى ببعضها الشام .

الكتابُ الثانى

١

يقول الله عز وجل فى أول سورة الكهف : ﴿ الحَمْدُ للهِ الَّذِى أنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ ولمْ يَجْعَلْ لَه عِوَجاً . قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيدًا مِنْ لَدُنْه ويُبَشِّر المُؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحاتِ أنَّ لهمْ أجْرًا حَسَناً . مَاكِثِينَ فِيهِ أبدًا . ويُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللهُ ولَدا . ما لَهم بِهِ مِنْ عِلم ولاَ لآبَائِهم كبُرَت كَلِمَةً تخْرُجُ مِنْ أفْوَاهِهمْ إنْ يقُولُونَ إلَّا كَذِباً ﴾ .

ويقول فى سورة المدثر :

﴿ يـأيُّها المُدَّثِّر قمْ فأنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّر . وثِيابَكَ فطَهِّر . والرُّجْزَ فاهْجُر . ولاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِر . ولرَبِّك فاصْبِر ﴾ .

ثم يقول فى سورة الأحزاب :

﴿ يـأيُّها النَّبِىّ إنَّا أرْسَلْناكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا . وداعِياً إلى اللهِ بإذْنِه وسِرَاجاً مُنِيرا . وبَشِّر المُؤمِنِين بِأنَّ لهم مِنَ اللهِ فضْلاً كَبِيرًا . ولاَ تُطِعِ الكافرِينَ والمُنافقينَ ودَعْ أذاهُم وتوكَّل عَلَى اللهِ وكَفَى بِاللهِ وكِيلاً ﴾ .

ويقول فى سورة الجمعة :

﴿ هُوَ الَّذى بَعث فى الأُميِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيهم آياته ويُزَكِّيهم ويُعَلِّمُهمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلاَل مُبِين . وآخَرِينَ مِنهُم لمّا يَلْحقوا بِهم وهُوَ العَزيزُ الحَكِيم . ذَلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ وٱللهُ ذو الفضْل العَظِيم ﴾ .

فمن هذه الآيات وآيات أخرى كثيرة فى القرآن الكريم نفهم أن الله أرسل رسوله لينذر الذين لا يؤمنون به بما أعد لهم من بأس شديد عنده، ويبشر الذين يؤمنون به بما لهم عنده من أجر كريم خالدين فيه أبداً

والله يفصل هذا البأس الشديد فى القرآن حين يصف البعث وما يكون بعده من حساب عسير للكافرين به . وما يكون بعد هذا الحساب العسير من عذاب شديد متصل لا انقطاع له .

والله يفصل كذلك فى القرآن هذا الأجر الكريم الذى أعده للمؤمنين به حين يصف الجنة ونعيمها وخلود المؤمنين فى هذا النعيم المقيم .

والنبى حين ينذر ويبشر يعلم أوسع العلم وأعمقه وأدقه ما ينذر به وما يبشر ، يعلمه من ربه من طريق الوحى حين ينزل عليه القرآن ليتلوه على الناس ، وحين يلهمه من العلم والحكمة ما يتحدث به إلى الناس حديث الواعظ المخوف وحديث المؤدب المعلم . فهو بشير ونذير ومعلم أيضاً .

وتعليمه نوعان : أحدهما : كلام أوحاه الله إليه وأمره أن يبلغ نصه للناس وأن يتلوه عليهم ليسمعوه أولا ويفقهوه بعد ذلك ، وعليه أن

يفسر لهم بالقول أو بالعمل ، أو بهما جميعاً ، ما قد يقصرون عن فهمه من هذا النص .

والثانى : علم ألهمه الله إياه ألقاه فى قلبه لينتفع به هو أولا وليعلم الناس منه ما ينفعهم فى أمور دينهم ودنياهم جميعاً .

وقد أنفق النبى ثلاثة وعشرين عاماً منذ بعثه الله إلى أن اختاره لجواره ، أنفق هاته السنين مبشراً ومنذراً ومعلماً لم يقصر فى ذلك ولم يكف عنه يوماً ؛ فكان معلماً لا كالمعلمين ، كان تعليمه متصلا نهاره كله وجزءاً غير قليل من ليله . كان يعلم الناس حين يلقاهم ويعلمهم بالأمر والنهى والتبشير والإنذار وبكل ما كان يقوله لهم ، وكان يعلمهم بسيرته فيهم وسيرته فى غيرهم ، وبكل ما يأتى من الأمر أو يدع . فهو لهم قدوة وهو لهم أسوة وعليهم أن ينظروا إليه وأن يعملوا مثل ما يعمل ويجتنبوا مثل ما يجتنب وأن يسمعوا منه ويطيعوا . وقد أمرهم الله فى سورة الحشر أن يأخذوا كل ما يؤتيهم وأن يدعوا كل ما ينهاهم عنه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ .

كذلك هو حين يبرز للناس وهو حين يروح إلى أهله معلم أيضاً يقول فيحفظ عنه أزواجه ويعمل فيحفظن عنه أيضاً ويصنعن من صنيعه كل ما ينبغى لهن .

ولأمر ما أخذ المسلمون كثيراً من العلم عن أزواجه بعد وفاته ولا سيما عائشة وحفصة وأم سلمة . ثم هو معلم فى السفر والحضر جميعاً لا يأتى شيئاً إلا وفى نفسه أن الناس سيصنعون صنيعه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ومن أجل ذلك كان يرعى فيهم الرفق بهم والنصح لهم كان يطيق من العبادة فى الصلاة والصوم أكثر مما يطيقون فكان يستخفى ببعض عبادته حتى لا يراها الناس فيكلفوا أنفسهم فوق ما يطيقون .

ولم يكن له من حياة المعلم هذه بُدٌّ فالله يقول له : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فلا يسعه إلا أن يذعن لأمر الله . والله ينزل عليه من القرآن ما هو مجمل ويترك له تفصيله بما يلهمه من العلم . فهو يأمر بالصلاة والزكاة مثلا ، ولكنه لا يبين كيف تكون الصلاة ولا كيف تكون الزكاة لا يفعل ذلك فى القرآن وإنما يلهم نبيه من العلم ما يبين به للناس كيف يصلون وكيف يؤدون الزكاة فى أموالهم .

والقرآن يذكر الركوع والسجود ولكنه لا يحدد الركوع والسجود فى القرآن تحديداً دقيقاً فليس بُدٌّ للنبى من بيان ذلك كله بالعمل والقول جميعاً . فهو يقيم الصلاة للمسلمين ويأمرهم أن يصنعوا صنيعه وأن يقوموا حين يقوم ويركعوا ويسجدوا ويجلسوا حين يركع ويسجد ويجلس . وهو علمهم ما يقرءون فى صلاتهم وما يقولون فى السجود والركوع والجلوس . وقل مثل ذلك فى مجملات القرآن كلها ، وهى كثيرة . فكان النبى إذن مفسراً للقرآن بقوله وعمله وكان منبئاً للناس بما يلقى الله فى قلبه من العلم بما ينبغى لهم وما يجب عليهم وما يجب أن ينتهوا عنه .

ومن هنا نتبين أن السنة التى تثبت عن النبى ثبوتاً قاطعاً أو راجحاً هى الأصل الثانى من أصول الدين بعد القرآن الكريم .

فليس بد إذن من أن نقف وقفة عند كل واحد من هذين الأصلين .

٢

أما القرآن الكريم فهو المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم ، آية على صدقه فيما يبلغ عن ربه .

والقول في إعجاز القرآن يكثر ويطول وتختلف وجوهه وتختلف فنونه أيضاً . فالقرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبي . فهو في صورته الظاهرة ليس شعراً لأنه لم يجر في الأوزان والقوافي والخيال على ما جرى عليه الشعر . ثم هو لم يشارك الشعر الذي ألفه العرب في قليل أو كثير من موضوعاته ومعانيه . فهو لا يصف الأطلال والربوع ولا يصف الحنين إلى الأحبة ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال والقصار ولا يغرق فيما كان الشعراء يغرقون فيه من تشبيهات للإبل والصحراء والرياض والأشجار والحيوان والصيد وأدواته ؛ لا يعرض لشيء من هذا كله . وليس فيه غزل ولا فخر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء، وهو لا يصف الحرب وما يكون فيها من الكر والفر وهو لا يبالغ ولا يغلو ولا يعدو الحق . لا يعرض من هذا كله لشيء وإنما يتحدث إلى الناس عن أشياء لم يتحدث إليهم بها أحد من قبله ، يتحدث عن التوحيد فيحمده ويدعو إليه، ويتحدث عن الشرك فيذمه وينهى عنه ، ويتحدث عن الله فيعظمه ويصف قدرته التي لا حد لها وعلمه الذي لا غاية له وإرادته التي لا ترد وخلقه للسموات والأرض وما فيهن من يسير الأشياء وخطيرها ومن صغير الأشياء وكبيرها . ويدعو الناس إلى عبادة الله والائتمار بما يأمر به

والانتهاء عما ينهى عنه والتنزه عما لا يليق بكرام الناس . ثم يصف ما أعد الله من النعيم المقيم للذين يؤمنون به وحده ويخلصون له دينهم ويصف ما ادخر من العذاب الأليم الخالد للذين يشركون معه إلهاً آخر ويجعلون له أنداداً ويكفرون بآياته ويجحدون نعمه عليهم . وهو يبشر المؤمنين بما أعد لهم من نعيم وينذر الكافرين ما ادخر لهم من جحيم . وهو يصف قيام الساعة وما يكون فيه من هول يذهل المرضعة عما ترضع ويضطر ذات الحمل إلى أن تضع حملها ويجعل الناس كأنهم سكارى وما هم بسكارى وهو يعظ الناس ليطهر أنفسهم ويزكيها ويتلو عليهم من أنباء الغيب ما يثبت به قلوب المؤمنين ويخلع به قلوب الكافرين . فيقص عليهم أنباء الرسل الذين أرسلوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم وجاءوا قومهم بالآيات البينات . فأعرض عنهم أكثر قومهم ولم يؤمن منهم إلا قليل . فعذب الذين أعرضوا وأخزاهم فى الدنيا والآخرة ونجى الذين آمنوا وأرضاهم فى الدنيا والآخرة أيضاً .

كل هذا وأكثر جداً من هذا يتحدث به القرآن إلى الناس على لسان رجل من قريش لم يتعلم قط كتابة ولا قراءة ولا حساباً ولم يجلس قط إلى أحبار اليهود ولا رهبان النصارى ولا أصحاب الفلسفة ، وإنما هو رجل عربى أمى كأكثر العرب لا يعلم من أمر الدنيا إلا مثل ما كان أوساط العرب يعلمون . وهو مع ذلك يجادل اليهود فى التوراة ويجادل النصارى فى الإنجيل ويصفهم بأنهم يكذبون على موسى ويقولون على المسيح غير الحق ويحرفون ما عندهم من التوراة والإنجيل . كل ذلك وهو لا يقرأ التوراة ولا الإنجيل وإنما ينبئه الله نبأ الحق بما فى كليهما وهو لم يأت

لنسخ التوراة ولا لنسخ الإنجيل وإنما جاء مصدقاً لما بين يديه منهما ومضيفاً إليهما ما أمره الله أن يضيف من العلم والدين . وهو يحاج المشركين فى آلهتهم تلك التى كانوا يعبدونها ويجعلونها لله أنداداً ويتخذونها عنده شفعاء والتى لا تجيبهم إن دعوها ولا تسمع لهم إن تحدثوا إليها ولا تنفعهم ولا تضرهم ولا تغنى عنهم من الله شيئاً إن أراد بهم سوءاً ولا تمسك عنهم رحمة الله إن أراد بهم رحمة و إنما هى أشياء صنعوها بأيديهم أو صنعت لهم من قبل بأيدى الرجال ثم خلعوا عليها ما ليس لها من القوة والبأس والسلطان .

ثم هو يشرع لهم من الدين والشرائع ما ينفعهم فى الدنيا ويعصمهم من عذاب الآخرة إن استمسكوا به وأنفذوه على وجهه . فيشرع لهم فى أمر الزواج والطلاق والميراث والوصية والبيع والشراء وغير ذلك مما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وحياتهم الفردية أيضاً . ثم هو يفرض عليهم من أنواع العبادة ما يطهر نفوسهم ويزكى قلوبهم ويحضر فى ضمائرهم حب الله والإخلاص له وخوف الله والإشفاق منه . ويبين لهم ألا سبيل إلى أن يستخفوا من الله بكبيرة أو صغيرة فهو يسمع كل شىء ويرى كل شىء ويعلم كل شىء . وهو معهم حين يجتمعون وحين يخلو كل واحد منهم إلى نفسه وهو يعلم ما يثور فى قلب الإنسان من عاطفة وما يضطرب فيه من هوى وما يخطر فى ضميره من خير أو شر . بل هو يعلم أكثر من ذلك : يعلم كل ما كان وكل ما هو كائن وكل ما سيكون . وهو يحصى عليهم أعمالهم وكل ما تحدثهم به أنفسهم من الخير والشر ومن الفجور والبر ومن الطاعة والمعصية . وهو يسجل كل هذا فى كتاب

مدخر عنده . فيعرض على كل إنسان كتابه يوم الحساب ويجزيه عما سجل فى هذا الكتاب من أعماله الظاهرة والباطنة إن خيراً فخيراً وإن شرًّا فشرًّا .

ثم ينبئ الناس فى الدنيا بما تقول ألسنتهم وما تعمل جوارحهم وما تضمر نفوسهم . نجد هذا كله فى القرآن الذى يتلوه هذا الرجل الأمى والذى أخذ فى تلاوته فُجاءةً ذات يوم بعد أن بلغ الأربعين وأنفق ثلثى عمره فى الدنيا يحيا كما يحيا غيره من قريش . فلا غرابة فى أن يبهر قريشاً وسائر العرب هذا العلم الذى جاءه فجاءة . ولا غرابة فى أن يعجزهم فَهْم هذا كله ، فهم فى حيرة من أمر هذا الرجل وما يتلو عليهم من الآيات .

يقولون إنه شاعر ثم يستبين لهم أنه لا ينشدهم شعراً . ويقولون إنه كاهن ثم يتبين لهم أنه لا يسجع لهم سجع الكهان . ويقولون إنه ساحر ثم يستبين لهم أنه ليس من السحر فى شىء . وإنما هو رجل مثلهم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا يسعى فى الأرض كما يسعون ويكسب قوته كما يكسبون أقواتهم ويصارحهم بأنه لا يعلم من أمر الغيب إلا ما يعلمه الله حين يوحى إليه القرآن . فيريحون أنفسهم كما يريح الباحث المجد نفسه بعد الكد والعناء اللذين لا يغنيان عنه شيئاً فيقولون : إنه مجنون . ولكن هذا لا يريحهم فهم يقولون له ويسمعون منه ويرقبونه مصبحين وممسين فلا ينكرون منه شيئاً إلا هذا الكلام الذى يتلوه عليهم . فتخشع له قلوب فريق منهم ويعرض عنه أكثرهم . فلا يجدون لهم مخرجاً إلا أن يجاهروه بالعداء وينصبوا له حرباً منكرة . ولكن القرآن

ينزل عليه وهو مضطر إلى أن يتلوه عليهم .

قد أعياهم أمره كل الإعياء أرادوا أن يأخذوه باللين فلم يفلحوا . وأرادوا أن يأخذوه بالشدة فلم يفلحوا . وأكثر من هذا أنه يتلو عليهم من القرآن مايتحداهم ويسألهم أن يأتوا بمثله . وهم يحاولون فلا يستطيعون ، ولكنهم مصرون على العناد فيطالبونه بالآيات العظام ، يسألونه أن يغنى نفسه من فقر فينشئ لنفسه جنة من نخيل وعنب ويفجر فيها الأنهار والينابيع ، ويسألونه أن يأتيهم بالله والملائكة ، ويسألونه أن يسقط السماء عليهم كسفاً ، ويسألونه أن يرقى فى السماء ويأتيهم منها بكتاب يقرءونه ، ويسألونه أن يبتكر لنفسه بيتاً من زخرف أو أن ينزل عليهم من السماء كنزاً ، فلا يسمعون منه إلا رداً واحداً وهو أنه لا يملك أن يأتيهم من هذه الآيات بشىء لأنه بشر مثلهم لا يمتاز منهم إلا بأن الله اختصه برسالته وأرسله إلى الناس بشيراً ونذيراً .

فهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن لا سبيل إلى الجدال فيه . فقد جادل فيه العرب من قبل فلم يفلحوا ولم يبلغوا شيئاً . وإذا عجز العرب الذين عاصروه عن أن يأتوا بقليل مثل ما جاء به فالذين جاءوا بعدهم أعجز وغيرهم من الأمم أشد عجزاً .

ولكن للقرآن وجهاً آخر من وجوه الإعجاز لم يستطع العرب أن يحاكوه أيام النبى ولا بعده ، ذلك هو نظم القرآن أى أسلوبه فى أداء المعانى التى أراد الله أن تؤدى إلى الناس . لم يؤد إليهم هذه المعانى شعراً كما قدمنا ولم يؤدها إليهم نثراً أيضاً وإنما أداها على مذهب مقصور عليه وفى أسلوب خاص به لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . ليس شعراً لأنه

لا يتقيد بأوزان الشعر وقوافيه . وليس نثراً لأنه لا يطلق إطلاق النثر ولا يقيد بهذه القيود التى عرفها الكتاب فى الإسلام وإنما هو آيات مفصلة لها مزاجها الخاص فى الاتصال والانفصال وفى الطول والقصر، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف ، تتلو بعض سوره فإذا أنت مضطر فى تلاوتها إلى الأناة والتمهل لأنها فصلت فى ريث ومهل لأداء معانى تحتاج إلى البسط والريث . كالتشريع مثلا ووصف ما كان يثار بين المسلمين والمشركين من الحروب والمواقع . وتتلو بعض سوره الأخرى فإذا أنت مضطر إلى شىء من السرع لأنها تؤدى معانى يحتاج أداؤها إلى القوة والعنف ، قد فصلت آياتها قصاراً ملتئمة الفواصل تقرؤها فكأنك تنحدر من عل . وذلك حين يخوف الله عباده ويشتد فى تخويفهم فيأخذهم من جميع أقطارهم ويقطع عليهم طريق الجدال والحجاج .

وربما يقص من أنباء الرسل فيمضى القصص فى هدوء ومهل لأنه يتجه إلى إثارة التفكير والاعتبار والتروية فيما جرى على الأمم من قبل والحذر من أن يجرى عليهم مثله .

ثم يقص فى سورة أخرى نفس الأنباء فتقصر الآيات وتسرع وتتسق الفواصل وتنسجم وتتكرر عبارات بعينها فى آخر كل قصة لأنه يتجه إلى الإرهاب والإثارة والإحاطة بالسامعين والقارئين وإعجالهم عن التفكر والتدبر ، كأنما أخذتهم من كل مكان ريح عاصفة لا يجدون منها مهرباً ولا يرون لأنفسهم عنها مصرفاً . فهى تصب عليهم العبر والعظات والمثلات صبًّا ، أو كأنهم يمطرون من السماء صخوراً متتابعة فهم لا يملكون إلا أن يذعنوا لما يصب عليهم لا يجدون من الوقت ولا

من القوة ما يتيح لهم رجع الجواب أو الجدال فى بعض ما يصب عليهم . وإنما هى الآيات تتابع قصاراً أشد القصر متسقة أروع الاتساق والعبر القاصمة تستنبط منها فى سرع سريع أيضاً . وهم لا يكادون يفرغون من قصة حتى تتبعها قصة أخرى ، تأتى فى إثرها فى سرعة خاطفة وقوة مذهلة .

واقرأ إن شئت سورتين كسورة الشعراء وسورة القصص فستجد السرعة كل السرعة والقوة كل القوة فى السورة الأولى ، وستجد الأناة والمهل فى السورة الثانية ولكنك ستجد الروعة فى السورتين جميعاً تروع أولاهما بما اختصت به من هذه السرعة وتروع الأخرى بما امتازت به من الأناة ، وذلك فى القرآن كثير .

وسواء قرأت السور السريعة أو السور المستأنية فسترى من جمال اللفظ وروعة الأسلوب واتساق النظام ما يسحرك ويبهرك ويملك عليك أمرك كله . فإذا أنت خاشع لما تسمع أو تقرأ معجب به مستزيد منه حتى حين يستأثر بك العناد وتتكلف ما تتكلف من إظهار الإصرار والاستكبار والإعراض والإباء .

وأخص مزايا القرآن أن الذين يقرءونه أو يسمعونه دون أن يؤمنوا به يكذبون على أنفسهم ، فقلوبهم خاشعة وأذواقهم راضية وعقولهم هى المعارضة المكذبة فهم حين يقرءونه أو يسمعونه يناقضون أنفسهم يظهرون الإباء ويضمرون الاستجابة قد اختلفت قلوبهم وألسنتهم ووجوههم فقلوبهم تذعن وألسنتهم تنكر ووجوههم تعرض إلا أن يطبع الله على قلوبهم ويطمس على عقولهم ويجعل فى آذانهم وقراً .

ووجه آخر من وجوه إعجاز القرآن وهو هذا الأثر الباقى الذى يتركه فى قلوب الناس وعقولهم وأذواقهم على تتابع القرون واختلاف الأجيال .

فالعربى القديم من أهل الفصاحة واللسن والبراعة فى تصريف القول قد سمع القرآن فراعه منه ما راعه واستجاب له هذه الاستجابة التى يعرفها التاريخ ، ولكن أجيالا أخرى لا تحكم ولا تصرف القول ولا تذوق روعة البيان قد جاءت بعد أولئك القدماء من العرب فسمعت القرآن وقرأته ، فإذا هو يستأثر بعقولها وقلوبها وإذا هى لا تقرؤه أو تسمعه إلا خشعت له واستيقنت أنه كلام لا كالكلام بل له شأن آخر يختلف أشد الاختلاف عما يكتبه الناثرون وينظمه الشعراء ويقوله الخطباء . وأغرب من ذلك أن أمماً أخرى ليس بينها وبين العرب سبب قد قرأت القرآن وسمعته فى القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة فدانت له وآمنت به واستحببت قراءته والاستماع له على كل شىء غيره يُقرأ ويسمع أو يمتع الأسماع والقلوب والعقول معاً .

ونحن نعلم أن أروع البيان وأبرعه وأعلاه درجة فى الحسن إنما يروع من يقرؤه أو يسمعه من أصحاب اللغة التى أنشئ فيها . فإذا تجاوزهم إلى غيرهم من الأمم فقد كثيراً من روعته ولا كذلك القرآن حين يقرؤه أو يسمعه من لم ينشأ تنشيئاً عربياً بل هو يحتفظ بروعته على اختلاف الأزمنة والأمكنة وأجيال الناس .

ولست أذكر هنا تأثير القرآن فى تغيير التاريخ وتحويله أمة جاهلة غافلة أمية شديدة التنافر والتدابر يضرب بعضها رقاب بعض ، وينهب بعضها أموال بعض . فإذا هى تصبح أمة قد خلقت خلقاً جديداً فألفت

النظام والأمن والعدل وطمحت إلى الرقى وظفرت منه بحظ موفور ونشرت هذه الخصال كلها فى أمم كثيرة فى الأرض ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة تتعاون على الخير والبر وترقية الحضارة ــ لا أذكر هذا كله ولا أطيل فيه لأنه أظهر من أن يحتاج إلى ذلك . والقرآن وحده مصدر هذا كله فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها وغلظتها وانقسامها ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة فاستذلها واستغلها وبسط عليها سلطانه .

وقد ألفت كتب قديمة وحديثة فى إعجاز القرآن ولكنها على كثرتها لم تقل فى إعجازه كل ما يمكن أن يقال لأنه أروع روعة وأبهر جمالا من أن يستنفد فيه القول .

وقد نزل القرآن منجماً ولم يوح إلى النبى جملة وإنما كان ينزل بين وقت ووقت يتتابع أحياناً ويبطئ أحياناً أخرى . وقد تساءل المشركون من قريش لماذا لم ينزل القرآن جملة ؟ ولو قد أنزل عليه مرة واحدة لما أطاقوه . وإنما أراد الله أن ينزله منجماً ليتابع به حياة النبى والعرب وما اختلف عليهم من الأطوار فى هذا الأمد الذى قضاه النبى بينهم مبشراً ومنذراً .

وكان ما ينزل منه يكتب فى إثر تنزيله . ثم جمع القرآن أيام أبى بكر ثم نسخ فى المصاحف وأرسل إلى الأمصار أيام عثمان . وجعل المسلمون يروونه سماعاً ويقرءونه فى المصاحف حتى وصل إلينا كاملا كما هو الآن . فهو متواتر لا يجد الشك إلى شىء منه سبيلا لم يختلف فيه المسلمون وإنما تناقلوه مجمعين عليه . وتناقلوه مسموعاً ومكتوباً فجملته وتفصيله فوق الشك وفوق الجدال .

وقد تختلف قراءة المسلمين لبعض ألفاظه مدًّا وقصراً وإمالة وإطلاقاً ولكن سبعاً من هذه القراءات وصلت إلينا متواترة وأجمعت عليها الأمة ولا بأس منها على النص لا فى لفظه ولا فى معناه .

وقد رتب القرآن — كما هو بين أيدينا — سوراً منذ أيام النبى وقدمت فى المصحف طوال السور على أوساطها ، وأوساطها على قصارها . ولم يراع فى هذا الترتيب نزول السور والآيات فى مكة أو فى المدينة ولا تاريخ نزول الآيات وإنما وضعت الآيات حيث كان النبى يأمر أن توضع من السور .

ونحن نجد البقرة وآل عمران والنساء والمائدة فى أول المصحف بعد الفاتحة مع أنها مدنية . ونجد الأنفال والتوبة — وهما مدنيتان — بين سور مكية وربما وجدنا فى السورة المدنية آيات أنزلت بمكة وفى السّور المكية آيات أنزلت بالمدينة . ذلك أن هذا الترتيب حسب مكان النزول وزمانه لم يراع . وإنما القرآن واحد جاء كله من عند الله وتلاه النبى على المسلمين كله كما أنزل .

وقد بين الرواة الأولون والعلماء من بعدهم أماكن نزول الآيات والسور وتاريخها وحاول بعض المستشرقين أن يرتب القرآن حسب تاريخ نزول السور ، فلم يصنعوا شيئاً . وترجم القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية أحياناً على هذا الترتيب التاريخى فكان هذا النحو من الترجمة والترتيب عبثاً لا يدل على شىء وإنما ينأى عما ألف المسلمون من الترتيب المعروف فى المصحف .

وما أكثر العلم الذى استنبطه المسلمون من القرآن . فهم استنبطوا

منه شرائع الدين وجزءاً غير قليل من تاريخ المسلمين بمكة والمدينة وهم جعلوا من تفسير ألفاظه وتوضيح معانيه علماً مستقلاً هو علم التفسير ، وهم درسوا لهجات القراء كما تظهر فى القراءات المختلفة ، وجدوا فى توجيه هذه القراءات توجيهاً نحوياً . وهم استخرجوا علم تلاوة القرآن كما سمع من القراء الأولين ونظموا قواعد المد والقصر واللغة وإخراج الحروف حسب القراءات المختلفة . وهم اعتمدوا عليه اعتماداً شديداً فى تسجيل اللغة العربية فى المعجمات ووضع الأصول التى يقوم عليها النحو والصرف . وهم اعتبروه مثلا أعلى لروعة البيان ، وعسى أن يكونوا قد اعتمدوا عليه أشد الاعتماد فيما وضعوا من علوم البلاغة ولا سيما البيان والمعانى ، إلى آخر العلوم الكثيرة التى استنبطت منه . وألفت فيها وما زالت تؤلف فيها كتب لا تحصى .

ومع أن علم الكلام قد اعتمد على الفلسفة ، والفلسفة اليونانية خاصة ، فإنه يعتمد اعتماداً شديداً على القرآن فى قسم السمعيات من أقسامه وفى أبوابه النظرية .

والمتجنبون من المتكلمين للتأويل والإغراق فيه قد اعتمدوا على القرآن والسنة وحدهما فى تفصيل العقائد الإسلامية ، واتخذوا الفلسفة خادماً له يدافعون بها عن نصوصه ويخاصمون بها المؤولين والمتكلفين ويردون بها على الذين قصروا جهدهم على الفلسفة الخالصة ولم يعرضوا للنصوص وإنما اعتمدوا فى إثبات الله ووجوده على النظر وحده يذهبون فى ذلك مذهب القدماء من فلاسفة اليونان .

وربما أثارت العناية بالقرآن بعض الخصومات بين المسلمين . كالذى

كان حين ذهب المعتزلة إلى أن القرآن مخلوق . وتابعهم على ذلك بعض الخلفاء من بنى العباس ، فأثاروا بين الناس شراً عظيما وامتحنوا خيار العلماء بألوان من البلاء شداد .

على أن هذه الخصومات الخطيرة لم تلبث أن صارت إلى ما ينبغى أن تصير إليه الخصومات من الجدل الخالص بين العلماء ، وذلك حين انصرفت السياسة لما يسرت له . ولم تدخل فى شؤون ما يكون بين العلماء من اتفاق واختلاف .

وما أكثر ما توارثت الإنسانية من آيات الأدب وروائع البيان فى اللغات المختلفة منذ العصور القديمة . لكننا لا نعرف شيئاً من هذا التراث عنى به الناس على نحو ما عنى الناس بالقرآن . فهم يقرءون روائع البيان هذه ويشرحونها ، ويكثرون البحث والدوران حولها ، ولكن هذا كله لا يتجاوز الخاصة الذين يقفون أنفسهم على هذا النحو من الدرس .

فأما القرآن فالعناية به لا تشبهها عناية . فليس من المسلمين على كثرتهم واختلاف أجناسهم وتعاقب أجيالهم من لا يحفظ من القرآن قليلا أو كثيراً لأن أداء الصلاة لا يتم ولا يستقيم إلا بقراءة شىء من القرآن فيها .

فليس بد للمسلم من أن يحفظ منه ما يؤدى به صلاته . وما نعرف أحداً يحفظ أثراً من الآثار البيانية عن ظهر قلب كما يحفظ كثير من المسلمين القرآن ، يحفظه كثير منهم حفظاً يصاحبه فهم النصوص ويحفظه أكثرهم حفظاً دون أن يفهموه فهماً واضحاً أولئك وهؤلاء يرون حفظه تعبداً وقربى إلى الله . وما أكثر المسلمين الذين يحفظون القرآن ليتخذوا

تلاوته مهنة يكسبون بها قوتهم . ولولا أن المسلمين جميعاً يحرصون على أن يسمعوا القرآن تتلى عليهم آياته فى كل يوم وفى بعض الظروف الخاصة لما وُجدت هذه الصناعة ولما نفقت سوقها ولما كثر أولئك الذين يدخلون بالقرآن كثيراً من البيوت يصبحون الناس بآيات منه ويمسونهم . ولما كثر المصوتون به أولئك الذين يجتمع لهم الناس ليسمعوهم ويعجبوا بأصواتهم وتلاواتهم فى ظروف الحزن والفرح .

وجاء اختراع الإذاعة فكثرت إذاعة القرآن يصوت به أصحاب الأصوات الحسان فى البلاد الإسلامية وفى البلاد الأجنبية التى توجه الإذاعة إلى المسلمين لأسباب سياسية وغير سياسية .

فالقرآن يتلى فى الإذاعات الأوربية والأمريكية وهو يتلى على أنه إمتاع للمستمعين بحسن الأصوات . ولكن كثيراً من المستمعين يسمعونه لنفسه أولا وللأصوات التى تتلوه ثانياً وما يكون فيها من التطريب . وقد تذاع بعض روائع البيان فى اللغات الحية ولكنها لا تذاع فى نظام واضطراد كما يذاع القرآن .

وجملة القول أن القرآن قوام لحياة المسلمين يرضون به ربهم حين يأتون ما أمر به ويجتنبون ما نهى عنه وحين يقيمون صلاتهم مجتمعين أو متفرقين يقرءونه أو يسمعونه متعبدين بقراءته أو سماعه وحين يستنبطون منه العلم ويلتمسون فيه الروعة والجمال ويستمتعون بقراءته أو سماعه بالأصوات العذاب .

وليس فى التراث الإنسانى كله شىء يشبه القرآن فى تقويم الألسنة العربية حين تلتوى باللهجات العامية المختلفة ، والأجنبية حين

تلتوى بلغاتها المتباينة ، فالذين يحفظون القرآن فى الصبا ، ويكثرون قراءته ويجودونها أصح الناس نطقاً بالعربية وأقلهم تخليطاً فيها . ومن أجل ذلك كانت الأجيال السابقة إلى عهد قريب تأخذ الصبية حين يتعلمون الكتابة والقراءة بحفظ القرآن كله أو بعضه وتجويد قراءته ، يرون فى ذلك محافظة على الدين وتقويماً لألسنة الصبية والشباب . وكان الذين يحفظون القرآن أو شيئاً منه أجود نطقاً بالعربية حين يتكلمون ، وأجدر أن يفقهوا دقائق اللغة حين يتعلمونها . وقد أهمل حفظ القرآن وتمرين الصبية على قراءته وتجويده فى المدارس الحديثة حيناً ، فالتوت ألسنة الشباب وفسد نطقهم وضاقوا بدروس اللغة فى مدارسهم ثم أعرضوا عنها بعد الخروج من المدارس ثم مال كثير منهم إلى العامية فآثروها على الفصحى وحاولوا أن يجعلوها لغة الكتابة فلم تستقم لهم . ولأمر ما عاد القائمون على شؤون التعليم فراجعوا مناهج المدارس وبرامجها وجعلوا لقراءة القرآن وحفظه فيها مكاناً مرموقاً .

والقرآن بعد هذا كله هو الذى حفظ اللغة العربية أن تذوب فى اللغات الأجنبية التى تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة فى عصور كثيرة وظروف مختلفة . فقد تفرقت كلمة المسلمين فى السياسة وانحلت الخلافة العربية القديمة وخضع العرب لاستعمار الأعاجم . حكمهم الفرس فى دار الخلافة نفسها أولا ، وحكمهم الترك بعد ذلك قروناً متصلة ، وجاء العصر الحديث فخضع العرب لسلطان الأجنبى الأوربى يقهرهم مرة بالاستعمار والحكم المباشر لهم ويقهرهم مرة أخرى بالتفوق فى الحضارة المادية والمعنوية جميعاً ويضطرهم إلى أن يتعلموا اللغات الأوربية إرضاء لحكامهم

من الأوربيين والتماساً لما فى هذه اللغات من علم وأدب وفلسفة وفن . وكان هذا كله جديراً أن يمحق اللغة العربية محقاً ويذهب شخصية الشعوب العربية ولكن القرآن عصم هذه اللغة من الضياع وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها . حرص العرب على القرآن لأنه يحفظ عليهم دينهم ولأنه قوام حياتهم فقرأه عامتهم وخاصتهم وحفظوا منه القليل والكثير ودرسه علماؤهم فى المساجد والمدارس واختلف إليهم ألوف كثيرة من الطلاب على تباعد الأمكنة والأزمنة واضطروا من أجل فهم القرآن ودرسه فى تعمق أن يدرسوا اللغة التى أنزل بها .

وأكثر من ذلك أن بعض الأمم الإسلامية التى خضعت لسلطان العرب فى وقت مضى طوت قلوبها على بغض العرب والعروبة وآذتهم حين استطاعت إيذاء شديداً ولكنها على رغمها احتفظت بالقرآن لمكان الإسلام منها أو لمكانها من الإسلام فدرست القرآن ودرست لغته العربية .

وإذا كانت هناك الآن وحدة إسلامية عامة أو شىء يشبه هذه الوحدة فبفضل القرآن وجدت وبفضل القرآن ستبقى مهما تختلف الظروف وتلم الخطوب . وإذا كانت هناك وحدة يحاول العرب أن يعودوا إليها ويقيموا عليها أمرهم فى الحياة الحديثة كما قامت عليها حياتهم القديمة . فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان أساساً للوحدة القديمة .

وليقرأ العرب إن شاءوا قول الله عز وجل فى الآية الكريمة من سورة آل عمران :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

إِذْ كُنْتُم أَعْدَاءً فأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فأَصْبَحتُم بِنِعْمتِهِ إِخْوَاناً وكُنْتُمْ عَلَى شفا حُفْرةٍ من النَّار فأَنْقَذَكُم مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون ﴾ .

فهذه الآية الكريمة التى أنزلت وتلاها النبي صلى الله عليه وسلم على قوم من العرب كانوا يخرجون من جاهليتهم ويدخلون فى الإسلام فهم حديثو عهد بالكفر وحديثو عهد بالعصبية القديمة وحديثو عهد بتفرق القبائل واختصامها واحترابها لأيسر الأمور وأهونها شأناً . هذه الآية الكريمة ما زالت قائمة بعد قريب من أربعة عشر قرناً وستظل قائمة . وهذا الأمر للمسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا لم ينقض بانقضاء عهد الخروج من الجاهلية والدخول فى الإسلام وإنما هو قائم دائماً ما دام فى الأرض مسلمون . فمثل هذا الأمر فى القرآن لا يخص قوماً بأعينهم ولا عهداً بعينه ولا مكاناً بعينه ، وإنما هو أمر شامل عام واجب الاحترام فى كل زمان وفى كل مكان . والعرب أجدر الناس أن يفهموه وينفذوه فهو أنزل فيهم وأنزل فى لغتهم واتجه إليهم أول ما أنزل .

ولو مضينا نعدد آثار القرآن الباقية فى المسلمين عامة وفى العرب خاصة لما قضينا الحديث ولا فرغنا . فحسبنا ما أشرنا إليه منها على قلته .

ولنعد إلى نص القرآن فنقف عند بعض سوره ونحاول — إن أتيحت لنا المحاولة — أن نبين بعض المظاهر المختلفة لما امتاز به القرآن من روعة البيان ، وما اختص به من هذه الملاءمة بين المعانى والألفاظ والأساليب . وقد أشرنا فى هذا الفصل إلى ما يكون من اختلاف بين بعض السور

فى أداء المعانى الواحدة أو المتقاربة أشد التقارب بالآيات الطوال المبسوطة حيناً وبالآيات الخاطفة حيناً آخر .

فلنقرأ معاً قصة نوح وقومه وما جرى عليهم فى الآيات الكريمة من سورة هود فسنرى هذه القصة قد فصلت تفصيلا كاملا فى غير تزيد ولا إسراف وأديت معانيها فى آيات ليست بالطوال ولا بالقصار ولكنها تؤدى المعانى فى دعة وهدوء ، يكون فيها الإطناب حين يحتاج المقام إلى الإطناب ، ويكون فيها الإيجاز حين يكون الإيجاز آخذ للقلب وأدل على ما أريدت الدلالة عليه من الهول الذى يصوره الإيجاز أكثر مما يصوره الإطناب ومن الأمر الذى يصدر فينفذ إثر صدوره فى غير تردد أو إبطاء . وانظر إلى أول القصة كيف أدى فيه الحوار أداء يسيراً يصور ما يكون بين رجل ينذر قومه وقومه ينكرون عليه ويجادلونه ، ثم يشتدون فى الإنكار وينتهون إلى إنذاره كما كان ينذرهم . واقرأ هذه الآيات فى أول القصة : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِين . أَن لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

فانظر إلى نوح كيف أدى رسالته فى إيجاز فأنبأ قومه بأنه نذير لهم فى الآية الأولى وأظهر الرفق بهم والإشفاق عليهم فدعاهم إلى أن يعبدوا الله لأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم فى الآية الثانية :

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ما نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وما نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وما نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُم كَاذِبِين ﴾ .

ورد عليه الملأ من قومه فأنكروا دعوته لهم وأنبئوه بأنهم لا يرونه إلا بشراً مثلهم . لا يمتاز منهم بشيء فكثير عليه أن يزعم لنفسه التحدث عن الله والدعوة إليه والإنذار لهم باسمه . ثم أضافوا إلى ذلك بأنهم لا يستطيعون أن يتبعوه لأن الذين اتبعوه هم أراذلهم وأهونهم شأناً ، وهم أكبر فى أنفسهم من أن يؤمنوا بما آمن به الأرذلون . أعلنوا إليه أنهم يكذبونه ويكذبون من اتبعه .

وانظر كيف رد عليهم نوح فى الآيات الثلاث التالية ، فسألهم فى الأولى : ماذا يصنع إذا كان الله قد آتاه بينة من عنده وآتاه رحمة منه ، فلم يعقلوها ، وبين لهم أنه لا يستطيع أن يلزمهم رحمة الله وهم كارهون لها . فالإيمان لا يكون بالإكراه وإنما يكون باستجابة القلب ورضى الضمير . وأنبأهم فى الآية التى تليها بأنه لا يسألهم مالا جزاء على دعوته لهم إلى الحق وإنما أجره على الله ، فليس لهم أن يعتلوا عليه ولا أن يشفقوا من دعوته على أموالهم .

وجادلهم فى الذين اتبعوه فقال إنه لا يستطيع أن يطردهم لأن ذلك ليس إليه وإنما هو إلى الله الذى يعلم دخائل نفوسهم وسرائر ضمائرهم . وأفهمهم بأنهم إنما يستجيبون لحميتهم وكبريائهم حين يعتلون عليه بازدراء الذين آمنوا معه . ثم أنبأهم فى الآية التالية بأنهم لا يستطيعون نصره ولا يستطيع غيرهم نصره من الله إن طرد الذين آمنوا معه لأنهم ليسوا من الطبقة الممتازة .

ثم تبرأ من كل الغرور فأنبأهم بأنه لا يزعم لنفسه السيطرة على خزائن الله ولا علم الغيب ولا أنه ملك وإنما هو رجل مثلهم ولا يستطيع أن

يزعم أن الذين اتبعوه لن يؤتيهم الله خيراً لأن الممتازين من قومه يزدرونهم :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إنْ كُنْتُ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فعُمِّيَتْ عَلَيْكُم أَنُلزِمُكُمُوهَا وأَنتُم لَهَا كَارِهُون . ويا قَوْمِ لا أَسْأَلكم عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِم وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُون . ويا قَوْمِ مَنْ يَنصُرنى من اللهِ إِنْ طَرَدْتُهم أَفلاَ تَذَكَّرُون . ولا أَقولُ لَكُمْ عِندى خَزَائِنُ اللهِ ولا أَعْلَمُ الغيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّى مَلكٌ ولاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُم اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بما فى أَنفُسِهِم إِنِّى إذًا لَمِنَ الظَّالمين ﴾ .

وقد ضاق به قومه بعد هذا الحوار فأنبئوه بأنه قد جادلهم فأكثر وأطال ، وسألوه إن كان صادقاً أن يأتيهم بما خوفهم منه . فرد عليهم بأن الله وحده قادر على أن يأتيهم به إن شاء وأنهم أهون من أن يكونوا معجزين لله . واستيأس منهم أو كاد فقال لهم : إن نصحه لن ينفعهم إن كان الله قد كتب عليهم الغواية وهو ربهم وهم صائرون إليه آخر الأمر :

﴿ قَالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنا إن كنتَ مِنَ الصَّادقين . قالَ إِنَّما يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إن شَاءَ وما أَنتُمْ بِمُعْجِزِين . ولا يَنْفَعُكُم نُصْحِى إن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُم إن كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُم هُوَ رَبُّكُم وإِلَيْه تُرْجَعُون ﴾ .

وهنا تعترض آية ليست من القصة ولكنها تمت إليها بسبب كأن

المشركين من قريش قد ارتابوا حين تليت عليهم هذه الآيات فى صدق النبي وفى أن ما يتلوه عليهم قد أتاه من عند الله فأمره الله أن يقول لهم : لا عليكم إن كنت مفترياً فعلى وحدى تبعة ما أفترى . وأنا على كل حال برىء من جرائمكم :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُون ﴾ .

وينبئ الله نوحاً بما يشعره فى وضوح بأنه لم يعجل حين استيأس من قومه، فهم لن يثوبوا إليه ولن يقبلوا منه دعوته ، ويعزيه الله عن هذا الإعراض ، فيقول :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمن . فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون ﴾ .

ثم يأمره الله أن يتهيأ لما كتب له من النجاة هو وأهله والذين آمنوا معه فيأمره أن يصنع الفلك برعايته وعن أمره وينهاه أن يتوسل إليه فى الذين ظلموا أنفسهم من قومه وأعرضوا عن دعوته فيقول :

(واصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِى فى الَّذِين ظَلَمُوا إِنَّهِمْ مُغْرقون ﴾ .

ثم ينبئ الله نبيه بما كان بين قوم نوح وبينه أثناء صنعه للفلك فهم كلما مروا به سخروا منه ، قد أوغلوا فى الشك بل وثقوا بأنهم آمنون من عذاب الله وبطشه ، وبأن نوحاً يصنع فلكه عبثاً أو إمعاناً فى

تخويفهم من هول موهوم . ويرد نوح عليهم ساخراً أيضاً متوعداً لأنه واثق بما أنبأه به ربه: ﴿ وَيَصْنع الفُلْكَ وَكلما مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنهُ قال إنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فإنَّا نَسْخَرُ مِنكُم كَمَا تَسْخَرُونَ .فَسَوف تَعْلَمُون مَنْ يأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ويَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيم ﴾ .

ثم أتى أمر الله وآن للظالمين من قوم نوح أن يعلموا حين لا ينفعهم العلم ، بأن نوحاً لم يكذب عليهم ولم ينذرهم عبثاً . فقد فار التنور وأخذ الماء يغمر الأرض ، وأمر الله نوحاً أن يحمل فى سفينته من كل زوجين اثنين وأن يحمل أهله إلا من كتبت عليه الشقوة منهم وأن يحمل تلك العصبة القليلة التى آمنت معه : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَن ومَا آمَن معه إلاَّ قلِيل ﴾ .

وهذا نوح يأمر الناجين من أهله وأصحابه أن يركبوا فى السفينة . وهو يسمى الله على مجرى السفينة ومرساها : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مَجْرٰيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغفُورٌ رحِيم ﴾ .

وهنا ينبغى أن نقف عند هذا الإيجاز الرائع المألوف كثيراً فى القرآن والذى يقتضى أن يحذف من القصة كل ما يمكن أن يستحضره السامع والقارئ من أحداثها لأنه طبيعى لازم لما تلى من القصة . فهذا الماء قد غمر الأرض ولقى الظالمون من قوم نوح ما لقوا من الجهد وحاولوا كل محاولة ممكنة لينقذوا أنفسهم من الغرق فلم ينفع جهدهم ولم تغن عنهم

محاولاتهم من الله شيئاً . ذلك لأن الله إذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له ولا سبيل إلى اتقائه . ولكن القرآن هنا يهمل هذا كله فلا يتحدث عن المغرقين ولا عن جهودهم ومحاولاتهم ولا عما لقوا من الألم فى أنفسهم ولا عما أحسوا من الندم لإعراضهم عن نوح ودعوته . لا يتحدث الله عن هذا وإنما يستأنف الحديث عن السفينة فإذا هى تجرى بأصحابها فى موج كالجبال ، وإذا نوح يفتقد ابنه فيراه مع الكافرين وإذا ابنه قد حق عليه العذاب فهو لا يستجيب لأبيه وإنما يزعم أنه سيأوى إلى جبل يعتصم به من الماء . ونوح يحاول أن يقنعه بألا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . ولكن الموج يحول بين الابن وأبيه فيصير ابنه إلى الغرق مع المغرقين :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِم فى مَوْجٍ كَالْجِبَال وَنَادَى نُوحٌ ابْنَه وَكَانَ فى مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تكُنْ مَعَ الكَافِرِين . قالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنى مِنَ المَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَومَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ وحَالَ بَيْنَهما المَوْجُ فَكَانَ مِن المُغْرَقين ﴾ .

كم من يوم ظل الماء غامراً للأرض ؟ ! وكم من يوم جرت السفينة فى هذه الأمواج المتلاطمة قبل أن تستقر على الجودى ؟ ! هذه أشياء لا يتحدث الله بها فى هذا الموضع من القصة وإنما يتركها لفهم السامع والقارئ وتقديرهما . وفى هذا الإيجاز المعجز ما يصور هول القصة . وربما صور الهول بالإعراض عن وصفه تصويراً أروع وأشد من وصفه .

وانظر إلى فعلى الأمر هذين اللذين يوجه أحدهما إلى الأرض بأن تبتلع ماءها ووُجه ثانيهما إلى السماء بأن تكف عن صب الماء . وإذا

الماء يغيض وإذا الأمر كله قد قضى وإذا السفينة قد استقرت على الجودى وإذا نداء ببعد القوم الظالمين . فعلا أمر فى أول الآية . ثم أنباء قصار أشد القصر موجزة أروع الإيجاز قاطعة لا معقب لها تلقى فى أفعال بُنى أكثرها لما لم يسم فاعله .

وتنتهى بهذه الأنباء قصة ما أصاب قوم نوح من العذاب :

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى ، وَغِيضَ الْمَاءُ وقضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِين﴾ .

على أن قصة نوح نفسه لم تنته بعد . فهو محزون على ابنه الذى أغرق وكأنه يعاتب ربه فيه ولكن فى إيمان به وإذعان لحكمه فيقول :

﴿إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ .

كأنه يذكر أن الله قد أمره أن يحمل أهله فى السفينة ولكن ربه يرد عليه ردًّا فيه الشدة والرفق جميعاً . فينبئه بأن ابنه ليس من أهله لأنه عمل غير صالح ، ويعظه ناهياً له عن أن يسأله ما ليس له به علم . وإذا نوح يثوب إلى نفسه ويتوب إلى ربه ويعوذ به من أن يسأله ما ليس له به علم ويلتمس منه الرحمة والمغفرة :

﴿وَنَادَى نُوحٌ ربَّه فَقالَ رَبِّ إن ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غيرُ صَالِح فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِين . قَالَ رَبِّ إِنى أَعُوذ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لى

بِهِ عِلْم وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِين ﴾ .

ثم يؤمر نوح أن يهبط إلى الأرض بسلام من الله عليه وعلى فريق ممن معه وينبأ بأن فريقاً آخر ممن معه يستمتعون فى الحياة الدنيا ثم يضطرون إلى عذاب أليم . آمنوا بدعوة نوح فنجوا من الغرق ولكنهم محتاجون إلى أن يمتحنوا فى الدنيا فإن أحسنوا نجوا وإن أساءوا فعذاب الله مدخر للذين يخالفون عن أمره ويظلمون أنفسهم :

﴿ قِيلَ يا نُوحُ اهْبِط بِسَلَامٍ مِنَّا وبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وهنا تنتهى قصة نوح فى هذه السورة الكريمة وينبئ الله نبيه بأن أحداث هذه القصة إنما هى بالقياس إليه وإلى قومه من الغيب لم يعلمها النبى ولم تعلمها قريش إلا بعد أن أوحيت إليه من هذه الآيات ؛ ثم يأمر الله نبيه أن يصبر على ما يلقى من إعراض قومه عنه وإيذائهم له كما صبر نوح على ما لقى من قومه فكانت له العاقبة لأن العاقبة دائماً للمتقين :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا فاصْبِر إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِين ﴾ .

وما أشك فى أنك حين قرأت هذه الآيات لم تعجل فى قراءتها لأنها مبسوطة قد اطمأنت وتتابعت فى رفق وفى مهل أيضاً . فأنت تقرؤها مفكراً فيها معتبراً فى أحداثها لا يعجلك عن ذلك شىء . وأنت معجب بانبساط الحديث ومضى القصة فى أناة تؤدى المعانى مستوية ، ويأتى

الإيجاز حين يجب أن يأتى ، فلا يضيع عليك شيئاً من تمهلك ولايعجلك عن التأمل والتدبر .

ولكن لنقرأ معاً هذه القصة نفسها فى سورة أخرى هى سورة الشعراء. ولنوازن بين الأناة هنا والسرع هناك ، وسنرى أن من العسير أن نقف عند كل آية من آيات القصة فى سورة الشعراء كما وقفنا بإزاء الآية والآيات فى القصة نفسها من سورة هود . وسنرى سبب ما يكون بين القصتين من فرق فى السورتين .

وسورة الشعراء كلها تروع وتبهر بقصر آياتها وانسجامها فى هذا القصر وفى اتساق الفواصل فى الآيات كلها حتى الآيات الأخيرة التى يقال إنها أنزلت فى المدينة . وإن كانت الآية الأخيرة من السورة أطول شيئاً من سائر الآيات . وهى منسجمة كذلك بآيتين تأتيان بنصهما فى آخر كل قصة ، بل فى آخر كل حديث ما عدا آخر السورة وهما قول الله عز وجل : ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً ومَا كَانَ أَكْثَرُهم مؤمنين . وإن رَبكَ لَهُوَ العَزِيز الرَّحيم ﴾ .

فهما تأتيان ختاماً لكل حديث . وتوطئة للانتقال إلى حديث آخر أو قصة أخرى . وقد فصلت آيات السورة على قدر واحد حتى كأن إحداها لا تزيد على الأخرى أو تنقص عنها .

وهذا الأسلوب مألوف فى القرآن تراه فى سورة الصافات مثلا ، وترى شيئاً منه فى قصار السور التى أنزلت بمكة والتى تقرؤها فى آخر المصحف .

وفى سورة الشعراء هذه يتجه الحديث أولا إلى المشركين من العرب

وإلى قريش منها خاصة . فيذكرون بآيات الله ويعاب جحودهم وإصرارهم على العناد والكفر . ويختم هذا القسم من الحديث بالآيتين اللتين تلوناهما آنفاً . ثم تأتى قصة موسى وإرساله إلى فرعون وما كان من حديث موسى مع السحرة وما كان من إخراج موسى لبنى إسرائيل من مصر عن أمر الله ، واتباع فرعون لهم وإنجاء الله لموسى وقومه ، وإغراقه فرعون ومن معه . وتختم القصة بالآيتين نفسهما . ثم تأتى قصة إبراهيم ومن بعدها قصة نوح ثم قصة ثمود فقصة قوم لوط فقصة شعيب وقومه . ثم يعود الحديث فيتجه إلى قريش ، حتى توشك السورة أن تنتهى فتختم بالآيات المدنية التى يذكر فيها الشعراء .

وقصة نوح هنا موجزة أشد الإيجاز ، لا يذكر فيها تفصيل العذاب الذى أخذ الله به الظالمين من قوم نوح وإنما يكتفى بذكر إغراق الله لهم ولا يذكر فيها صنع الفلك وحمل من حمل نوح فيه ولا وصف الموج الذى جرت فيه السفينة ولا قصة ما أصاب ابن نوح من العذاب ولا الحديث بين نوح وبين ربه ؛ لا يذكر من هذا كله شيء وإنما يقص الحوار بين نوح وقومه وإعراض قومه عن دعوته وإنذارهم نوحاً بالرجم إن لم ينته عن دعوته ودعاء الله نوحاً أن ينجيه وما كان من نجاته فى الفلك المشحون ونجاة من آمن معه وإغراق الظالمين . فقد اختصرت القصة هنا لأن ما قصد إليه من القصص كلها فى هذه السورة إنما أريد به إلى تذكير المشركين بآيات الله فيمن سبقهم من الأمم وتخويفهم أن يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم وإظهارهم على بطش الله بالظالمين وعلى الآيات الكبرى التى آتاها الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن أجل هذا اكتفى بما يؤدى هذه الأغراض فى قوة وعنف يملكان على السامعين والقارئين أمرهم كله ، ومن أجل هذا أيضاً أديت هذه الأغراض فى هذه الآيات القصار المتتابعة فى نسق واحد كأنها السيل المندفع الذى يغمر كل ما يلقاه أو كأنها الريح العاصفة التى لا تدع شيئاً تأتى عليه إلا دمرته تدميراً .

واقرأ إن شئت هذه الآيات التى صورت فيها قصة نوح وقومه وقسها إلى الآيات التى أثبتناها من سورة هود فسترى أنك حين تأخذ فى قراءة الآيات هنا ستجد نفسك منساقاً بل مدفوعاً إلى المضى فى القراءة حتى تبلغ آخر القصة لا تقف بين آية وأخرى وإنما تقف حين تبلغ ختام القصة لتتدبر وتتفكر . وأكاد أقطع بأنك إذا بدأت السورة من أولها فستمضى فيها إلى آخرها ثم تراجع نفسك بعد ذلك فى جملتها وتفصيلها وفى روعتها وإعجازها : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُون . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِين . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِين . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون . قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوتَشْعُرون . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِين . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِين . قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتكونَنَّ مِنَ المَرْجومين . قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُون . فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِين. فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَن

مَعَهُ فى الفُلْكِ المَشْحُون . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِين . إِنَّ فى ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَان أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِين . وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيم﴾ .

وهذا الأسلوب الرائع مألوف فى القرآن كما قدمنا يلتزم فيه تكرار آية بعينها أو غير آية للانتقال من حديث إلى حديث ، كما فى سورة الصافات ، وسورة القمر ، وأحياناً لا يلتزم هذا التكرار وإنما يرسل نظام الآيات إرسالا مع اتحاد الفواصل ، كما فى سور كثيرة من المفصل .

وفى القرآن أسلوب آخر من التكرار للتخويف حيناً وللتعجيز حيناً آخر كما ترى فى سورة المرسلات من ختام الآيات دائماً يقول الله عز وجل : ﴿وَيْلٌ يومَئذٍ لِلْمُكَذِّبين﴾ . والسورة كلها تخويف . وكما فى سورة الرحمن حيث تنتهى الآيات كلها بهذا الاستفهام الرائع ﴿فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَان﴾ . والسورة كلها تصف قدرة الله وتعدد آلاءه على الناس .

وأسلوب آخر فى القرآن تتسق فيه فواصل الآيات ويلتزم فيها أو فى أكثرها نسق بعينه كالذى تراه فى سورة مريم من ختام الآيات أو أكثرها بكلمات تنتهى بالياء المشددة المفتوحة .

﴿كهيعص . ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ ربِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شقِيًّا . وَإِنِّى خِفْتُ المَوَالِىَ مِنْ وَرَائِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا فهَبْ لِى مِنْ لَدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِى ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعقُوبَ وَاجْعَلهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ .

وعلى هذا النسق تمضى آيات السورة حتى تذكر قصة يحيى ومريم والمسيح وطائفة أخرى من الأنبياء لا تخالف عنه إلا فى آيات قليلة .

والتزمت فى قصة يحيى والمسيح آية بعينها مع شىء من الخلاف بين آخر القصتين . كان الحديث عن يحيى حديثاً عن الغائب فقيل فى آخر قصته: ﴿ وَسَلَامٌ عليْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حيًّا ﴾ .

وكان المسيح يكلم فى المهد بنى إسرائيل فقيل فى آخر كلامه :

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حيًّا ﴾ .

وأسلوب آخر من الفواصل لا يلتزم فيه حرف بعينه كما التزمت الياء فى مريم ، أو حرفان كما التزمت الياء والنون فى الشعراء مثلا ، وإنما تلتزم حركة بعينها هى الفتحة ، وإن اختلفت الحروف فى أواخر الكلمات ، كالذى ترى فى سورة الكهف من التزام الكلمات المنصوبة أو المفتوحة الآخر :

﴿ الحَمْدُ للهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لهُ عِوَجاً . قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيدًا مِنْ لَدُنْه ويُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُم أَجْرًا حَسَناً . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . ويُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ ولدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم ولاَ لآبائِهِمْ كَبُرَت كَلِمةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يقولُون إِلَّا كَذِباً . فَلَعلَّكَ باخِعٌ نَفسَكَ عَلى آثَارِهِم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بهذَا الحَدِيثِ أَسَفاً . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لهَا لنَبْلوَهم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا

جُرُزًا . أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كَانوا مِنْ آياتِنَا عَجباً . إِذْ أَوَىَ الفِتيَةُ إِلَى الكهْفِ فقَالُوا رَبَّنا آتِنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً وهَيِّئْ لنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهم فِى الكهْف سِنينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا . نَحْن نقصُّ عَلَيْكَ نبَأَهُم بالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنوا بربِّهم وزِدْنَاهُم هُدًى ﴾ .

وتمضى السورة على هذا النحو إلى آخرها .

وكذلك التزمت الفتحة فى سورة الإسراء ، وكادت الراء أن تلتزم معها فى أكثر فواصل السورة .

والتزمت الفواصل المقصورة فى أكثر سورة طه والنجم والأعلى والضحى . وحديث الفواصل فى القرآن أطول وأكثر تنوعاً من أن نحصيه فى هذا الفصل . وربما كان من الممكن أن يخص لها كتاب كامل .

وما نجده فيها من التنوع إن دل على شىء فإنما يدل على أن القرآن قد أنزل ليتلى ، ويتلى فى صوت يسمع . ذلك يظهر تنوع الآيات فى خواتيمها وفواصلها . ويظهر ألواناً مختلفة تروع باختلافها من الموسيقى . فإذا أضيف ذلك إلى عذوبة الألفاظ واتساق النظم واختلاف الأسلوب باختلاف المقامات شدة وليناً وترغيباً وترهيباً وتبشيراً وإنذاراً ، لم يشك سامع أو قارئ فى أن فنون الإعجاز فى القرآن أكثر وأروع من أن تحصى أو يحاط بها .

وأكبر الظن أن التزام هذه الفواصل المتسقة إنما يكون حين يتحد موضوع السورة أو يأتلف ائتلافاً شديداً . فسورة الشعراء مثلا قد اختلفت فيها قصص الأمم التى كذبت رسلها ولكن موضوعها واحد هو التخويف والإرهاب وإنذار قريش وغيرها من مشركى العرب بأن ما أصاب تلك الأمم التى أصرت على تكذيب الرسل قد يصيبهم إن أصروا على تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم .

وسورة طه توشك قصة موسى أن تستغرقها . وفى سورة مريم تمجيد للأنبياء وتخويف للجاحدين .

وأكبر الظن أيضاً أن الفواصل حين تلتزم على هذا النحو يدل التزامها على أن السورة أنزلت مرة واحدة ولم تتجسم آياتها كما تكون الحال فى سور أخرى لم تلتزم فيها الفواصل على هذا النحو ولم يتحد موضوعها أو يشتد الائتلاف بين موضوعاتها إن تعددت . واتحاد الموضوع نفسه وشدة ائتلاف الموضوعات حين تتعدد قد يشعر بأن السورة أنزلت جملة واحدة وإن لم يلتزم فى فواصلها ما نراه قد التزم فى السور التى أشرنا إليها .

فسورة يوسف مثلا قد اتحد موضوعها اتحاداً لا شك فيه ، قد قصرت على قصة يوسف . وما أرى إلا أنها أنزلت جملة .

وقل مثل ذلك فى سورة هود . أو فيما اشتمل عليه أكثرها من قصص الأمم التى كذبت رسلها . فبعد أن بدئت بآيات فيها الإنذار والتخويف وضرب الأمثال للموعظة قصت فيها قصة نوح فى الآيات التى أثبتناها منذ حين . وعند الفراغ من قصة نوح عطفت عليها قصة عاد وبدئت

هذه القصة بالآية الكريمة : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ .

ثم عطفت عليها قصة ثمود بنفس الأسلوب : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوه ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيب مُجِيب) .

ثم عرض طرف من حديث إبراهيم وقصة لوط وقومه ثم قصة شعيب وقومه أهل مدين فى قوله عز وجل : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ولاَ تَنْقُصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ إِنى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيط ﴾ .

ويلاحظ أن قصة قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب ختمت كلها بخواتم متشابهة . فنرى فى آخر قصة المغرقين من قوم نوح : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وفى آخر قصة عاد وقوم هود نقرأ : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْم هُود ﴾ .

وفى آخر قصة ثمود قوم صالح نقرأ : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ .

ونقرأ فى آخر قصة أهل مدين : ﴿ كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ .

وبعد هذا القصص ، الذى يحدث أخبار الأمم التى كذبت نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً وموسى ، تختم السورة بالتذكير بآيات الله وإثبات أن النبي صادق فيما يحدث به لأنه يتلو أنباء لم يكن يعلمها ولم يكن قومه يعلمونها : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ القرَى نَقُصُّه عَلَيْكَ مِنْها قَائِم وَحَصِيد﴾ .

وتنتهى السورة بتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم بكل ما قص عليه فى السورة وتخويف الذين لا يصدقونه من المشركين وإعلان أن الله مستأثر بغيب السموات والأرض وأن مصير كل شيء وكل إنسان إليه :

﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَك وجَاءَك فِى هَذه الحقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلمؤْمِنين . وَقُلْ للَّذِينَ لا يؤْمِنون اعْمَلوا عَلَى مَكانَتِكُمْ إنَّا عَامِلُونَ . وَانتظِرُوا إنَّا منْتَظرون . وَلله غيبُ السَّموَاتِ والأَرْضِ وَإليهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كلُّه فاعْبُدْهُ وتَوَكَّلْ عَلَيْه وَما ربك بغَافل عَمَّا تَعْملون ﴾ .

وسور أخرى فى القرآن تشبه سورة هود فى خصائصها هذه وفى أنها أنزلت جملة واحدة كسورة الأنفال التى أنزلت فى غزوة بدر ولم تتجاوزها إلا إلى ما يتصل بقريش وكفرها ومكرها بالنبي بما كانت وقعة بدر نتيجة له .

وكذلك سور أخرى فى القرآن تكثر موضوعاتها وتتباعد الصلة بين هذه الموضوعات ولا يلتزم فى فواصلها ولا فى أسلوبها نسق بعينه منذ تبدأ إلى أن تنتهى . فسورة البقرة مثلا كثرت فيها الموضوعات وتباينت فدل هذا على أن السورة لم تنزل مرة واحدة وإنما نجمت تنجيما . فهى تبدأ بذكر المؤمنين الذين يتقون الله ويؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ويؤمنون بما أنزل على النبى وما أنزل على الأنبياء من قبله ويوقنون بالآخرة وما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب : ﴿ أولئِكَ على هُدًى مِنْ ربهمْ وَأُولئِك همُ الْمُفْلِحُون ﴾ .

ثم تتحدث عن الذين كفروا ، والذين لا يجدى إنذارهم أو إمهالهم ، والذين لا يؤمنون على كل حال ، وقد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وغشيت أبصارهم وكتب عليهم عذاب عظيم . ثم تتحدث عن المنافقين الذين يقولون آمنا وليسوا بمؤمنين والذين يريدون أن يخادعوا الله والذين آمنوا فلا يخدعون إلا أنفسهم والذين فى قلوبهم مرض فيزيدهم الله مرضاً ويدخر لهم عذاباً أليماً عقاباً على كذبهم بإظهارهم الإيمان وإضمارهم الكفر . ثم تصف بدء الخلق وخلق آدم وتذكر قصة إبليس حين أبى أن يسجد مع الملائكة إعظاماً لخلق آدم ، وطرده من الجنة ، وإغواءه آدم وزوجه حتى أكلا من الشجرة التى نهاهما الله عن أن يقرباها ، وإخراجهما من الجنة وتوبة الله على آدم آخر الأمر .

ثم تذكر اليهود فتطيل فى ذكرهم وتفصل من أنبائهم وسيرتهم مع المسلمين ومحاجتهم للنبى شيئاً كثيراً .

ثم تذكر طرفاً من قصة إبراهيم حين أنزل من ذريته بواد غير ذى

زرع وحين بنى البيت بمكة ، وتذكر طرفاً من حديث الأنبياء ثم تذكر تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، ثم تذكر الصفا والمروة وأنهما من شعائر الله ، وتذكر طرفاً من حساب الكافرين يوم القيامة ، ثم تذكر البر وتبين حقائقه ، ثم يشرع فيها القصاص وبعض أحكام الوصية ويشرع الصيام وصيام رمضان خاصة ، ثم يجاب فيها عن الذين يسألون عن الأهلة . ويذكر فيها شىء من أمر القتال ومن أمر الحج ومن أمر المعاندين من مشركة قريش . ثم يذكر فيها إثم الخمر والميسر ويبين فيها للناس ما ينبغى لهم أن ينفقوا فى صدقاتهم . ثم تشرع فيها طائفة من أحكام الزواج والطلاق والعلاقة بين الأزواج وعدة المرأة إذا طلقت وإرضاع الوالدات أولادهن وما لهن على أزواجهن من حق فى ذلك ، واسترضاع الأولاد عند غير أمهاتهن وحق المرضعات على آباء من يرضعن من الطفل .

ثم يرجع الحديث إلى اليهود ويقص ما كان بين طالوت وجالوت من القتال وقتل داود لجالوت وإيتائه الملك والحكم والنبوة . ثم تعظ المؤمنين وتذم الكافرين وتعلن ألا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، وتذكر طرفاً من حديث إبراهيم حين حاج الملك الذى كفر فحجه ، وحين سأل الله أن يريه كيف يحيى الموتى ، فأراه الله من ذلك ما أراد . ثم تأمر المؤمنين بالصدقة ملحة عليهم فيها مبينة لهم أحكامها ومرشدة لهم إلى خيرها وأكملها ومواضعها .

ثم تحرم الربا وتشدد فى تحريمه . ثم تأمر المؤمنين إذا تداينوا وتبايعوا أن يكتبوا ما تداينوا عليه أو ما تبايعوه وأن يستشهدوا على ذلك

رجلين أو رجلا وامرأتين ممن يرضون من الشهداء . وتحظر كتمان الشهادة وتبين أن من يكتمها فإنه آثم قلبه . ثم تختم السورة بإعلان ما اجتمع عليه النبي والمؤمنون من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، غير مفرقين بين أحد من رسله ، ومن إذعانهم لربهم وإنابتهم إليه وسمعهم وطاعتهم لأمره حين يأمرهم ونهيه حين ينهاهم وتضرعهم إليه فى ألا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطئوا وألا يحمل عليهم إصراً كما حمله على الذين من قبلهم، وألا يحملهم ما لا طاقة لهم به وأن يعفو عنهم ويغفر لهم ويرحمهم وينصرهم على الكافرين .

وواضح أن كل هذه الموضوعات إنما فصلت آياتها للناس فى إبانها وحين اقتضت حياتهم وظروفهم أن تتلى عليهم وتبصرهم بما يحتاجون إلى أن يبصروا به حين تنوب النوائب وتعرض الأحداث .

ومثل هذا يقال فى سورة آل عمران التى لم تكثر فيها الموضوعات كما كثرت فى سورة البقرة ، ولكنها اختلفت وتباعدت .

فالسورة تبدأ بإثبات التوحيد وأن الله الذى لا إله إلا هو نزل على رسوله الكتاب بالحق وجعل فيه آيات محكمات وأخر متشابهات ؛ فالذين زاغت قلوبهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله مع أن الله وحده هو العالم بتأويله وأما الراسخون فى العلم من المؤمنين فيؤمنون بالكتاب كله محكمه ومتشابهه ، وبأنه جاء من عند الله يفهمون منه ما يستطيعون ويكلون ما تشابه منه إلى الله .

ثم أخذت السورة فى ذم الكافرين وتخويفهم وبينت ، ما يفتن الناس فى الحياة الدنيا ويبقى بعضهم فى الكفر وبعضهم فى المعصية .

وذكرت اليهود وذمت بعض أعمالهم ونهت المؤمنين أن يتولوا الكافرين ورغبتهم فى اتباع النبي لأنه دليل على حبهم لله وحذرهم الله نفسه فيها وعلم نبيه والمؤمنين ما يدعون الله به من أنه مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ومن أن بيده الخير ومن أنه على كل شيء قدير ، ومن أنه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويرزق من يشاء بغير حساب .

ثم قص الله فيها ما كان من استجابته لزكريا حين وهب له يحيى ، وما جعل له من آية على ذلك ، ثم قص أنباء مريم والمسيح فى شيء من التفصيل واسع ، ثم جادل أهل الكتاب من النصارى وأمر النبي أن يباهلهم إن حاجوه فيما جاءه من عند الله فى أمر المسيح ، وأن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء ألا يعبدوا إلا الله وألا يشركوا به شيئاً وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، وأن يشهدهم — إن أبوا — أنه وأصحابه مسلمون لله .

ثم مضى فى حديث أهل الكتاب من النصارى واليهود ، فذكر شيئاً من أخلاقهم وسيرتهم ، وفرق بين الأمناء منهم والخائنين ، ثم ذكر إسرائيل وأنه أحل له الطعام كله إلا ما حرم هو على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . ثم فرض الحج على المسلمين من استطاع إليه سبيلا . وذكر أن فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأن من دخله كان آمناً وأنه أول بيت وضع للناس .

ثم أمر المؤمنين أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا . وأن يذكروا ما كانوا عليه من القلة والضعف قبل أن يكثرهم ويؤمنهم .

وكلفهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وذكر المؤمنين والكافرين بيوم القيامة وما يكون فيه من نجح للمؤمنين وخزي للكافرين .

كل هذا يأتى أثناء محاجة اليهود . ثم يفرق بين أهل الكتاب فمنهم المؤمنون الصالحون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات . ومنهم الكافرون الذين يجحدون الحق وينسون نعمة الله عليهم و يشاقون الله ورسوله . ثم يحذر المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين الذين يبغضونهم ، ويعضون عليهم الأنامل من الغيظ ، ولا يألونهم خبالا ، يفرحون إن أصابت المؤمنين سيئة ، ويستاءون إن أصابتهم حسنة ، ويودون لو استطاعوا أن يردوا المؤمنين بعد إيمانهم كفاراً ، وهم مع ذلك يعلنون الإيمان ويجهرون به . ثم ينهى الله المؤمنين أن يأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، ويحذرهم النار ، ويأمرهم بطاعة الله ورسوله والمسارعة إلى مغفرة من ربهم وإلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . ثم يذكر وقعة أحد ويلوم المنهزمين فيها من المسلمين ويعفو عنهم . ويمضى فى أنباء هذه الوقعة وما كان بعدها وتثبيت قلوب المؤمنين وتهيئتهم لما سيبلون به فى أنفسهم وأموالهم ولما سيسمعون من أذى المشركين واليهود ويبشرهم بما أعد للشهداء عنده من حياة راضية . ويذكرهم بآياته ثم يرغبهم فى الصبر ويأمرهم أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقوا الله لعلهم يفلحون .

فهذه السورة اشتملت فيما عدا الوعظ والتخويف على ما قص الله من أمر المسيح وأمه وعلى محاجة النصارى واليهود وعلى قصة أحد . فمن البيّن أن هذه الموضوعات لم تنزل آياتها جملة وإنما نزلت منجّمة حسب

الظروف والأحداث . وقل مثل هذا فى سائر سور القرآن الكريم .

فكل سورة يتحد موضوعها أو تتداعى موضوعاتها تداعياً شديداً ويلتزم فيها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت جملة .

وكل سورة تختلف موضوعاتها وتتباعد ولا تتداعى ولا يلتزم فى آياتها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت منجمة .

والقرآن كله من عند الله ، وهو وحدة فى روحه وفى إعجازه مهما يختلف تنزيل سوره ، ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيها.

واختلاف مذاهب القول فى القرآن دليل قوى من دلائل الإعجاز . فالقرآن وحدته من حيث إنه يدعو دائماً إلى أصول معينة : إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك على اختلاف صوره والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من القرآن ، والإيمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد وما أنزل عليهم من الكتب ، والإيمان بالبعث وبالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الأولى وما يكون فيها من ثواب ونعيم لمن أجابوا دعوة الله ومن عذاب وجحيم لمن أعرضوا عن هذه الدعوة ونفروا منها واستكبروا على الله ورسوله ، ثم هو يأمر الناس بأن يقيموا حياتهم على هذه الأسس ، حياتهم فيما بينهم وبين نفوسهم بحيث يبرءون من الرذائل كلها كبارها وصغارها فلا يضمرون فى أنفسهم منها شيئاً ، وحياتهم الظاهرة فيما يكون بينهم وبين غيرهم من الناس فلا يظلمون ولا يستعلون ولا يؤثرون الشر وإنما ينبذونه ما استطاعوا إلى نبذه سبيلا ويؤثرون عليه الخير وحده فيحسنون إلى الوالدين ويتجنبون الإساءة إليهما حتى ولو كانا مشركين. فى هذه الحال يخالفونهما إلى الإيمان ويعاشرونهما فى الدنيا معروفاً .

ويبرون أولى القربى ويرحمون اليتامى والمساكين ويعطفون على الفقراء وأولى الحاجة ويعدلون فيما بينهم وبين نظرائهم من صلة . والناس جميعاً نظراؤهم مهما تكن منزلتهم الاجتماعية . فالفقير نظير الغنى والضعيف نظير القوى والرقيق نظير الحر لكل حقوق يجب أن تؤدى إليه وعلى كل واجبات يجب أن يؤديها . والمهم أن يلائم الإنسان بين إيمانه بالله الواحد القوى العالم بكل شيء القادر على كل شيء وما أعد من خير للمحسنين وما أعد من شر للمسيئين ، أن يلائم بين إيمانه الصادق بهذا كله وبين ما يخفى وما يظهر من ذات نفسه وما يأتى من الأعمال وما يدع منها . ومن أجل هذا يشرع الله للناس فى القرآن من الأحكام والأصول ما يبين لهم السبيل إلى هذه الملاءمة ويمهد لهم الطريق إلى أن يقيموا حياتهم على السلم الكاملة بينهم وبين الله ما عاشوا فى هذه الدنيا .

والنفس المطمئنة التى ذكرها الله فى سورة الفجر ودعاها إلى أن ترجع إلى ربها راضية مرضية وإلى أن تدخل فى عباده وتدخل جنته إنما هى هذه النفس التى صدقت فى إيمانها بالله ورسله وكتبه وثوابه وعقابه وأخلصت هذا الإيمان واطمأنت إليه فعاشت فى سلم مع الله لا تحاربه بالمعصية حرباً ظاهرة أو باطنة .

وأما النفوس الأخرى التى لم تطمئن إلى إيمان ولم تستقم على ما أمرت به وإنما جارت عن القصد والتوت بها السبل فهى تظهر السلم وتضمر الحرب فتعلن الإسلام وتضمر الكفر أو تضمر الإيمان ولكنها لا تثبت له ولا تقوى عليه وإنما تقترف الآثام وتجترح السيئات وتستجيب لشهواتها فتجور

وقد أمرت بالعدل وتفجر وقد أمرت بالبر وتعصى وقد أمرت بالطاعة .

كل هذه النفوس محاربة لله حرباً خفية أو ظاهرة بالقياس إلى الناس ولكنها جلية بينة بالقياس إلى الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وفى بيان ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم — فيما روى الشيخان —: « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . يريد أن ارتكاب الكبائر لا يكون من الإنسان وهو مستحضر إيمانه بالله ورسوله وما أعد من ثواب وعقاب . فلو قد استحضر الإنسان هذا الإيمان لصده عن الفواحش . ولكن غرائزه تطغى على نفسه كلها فتجور بها عن الطريق ثم يثوب الإنسان إلى نفسه أحياناً فيندم ويأسى ويتوب إلى الله ويسأله العفو والمغفرة .

إلى هذا كله وإلى أكثر من هذا كله ، دعا الله فى القرآن فى تفصيل أى تفصيل ، وفى ترغيب للراغبين وترهيب للراهبين ، وتخويف للذين تغرهم أنفسهم وتزدان فى أعينهم زهرة الحياة الدنيا فيفتنون بها . فلا غرابة فى أن تختلف مذاهب القوم فى القرآن باختلاف الموضوعات وباختلاف المقامات أيضاً . وإنما الغرابة فى التزام مذهب واحد من مذاهب القول فى التشريع والقصص والتبشير والإنذار والموعظة اللينة واللوم العنيف . وهذا التنوع فى مذاهب القول بتنوع الموضوعات والمقامات هو الذى يسميه أصحاب البيان فى اللغة العربية وفى غيرها أيضاً مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فالإنذار بقيام الساعة وما يكون فيه من الهول ، وبيوم الحساب وما يكون فيه من الشدة يقتضى أن يكون القول

من القوة والأيد بحيث يملأ القلوب رعباً ولا سيما حين يكون النذير متجهاً إلى الملحين فى الإنكار والعناد والمكابرة . وأنت تقرأ من هذا الإنذار الشديد المروع فى القرآن شيئاً كثيراً . واقرأ إن شئت طائفة من السور القصار فى آخر المصحف فسترى تصوير الهول قد بلغ من القوة ما يملأ النفوس رهباً ورعباً .

واقرأ إن شئت ما جاء فى سورة التكوير والانفطار والانشقاق ، وانظر إلى ما فيها من هذه الآيات القصار المتلاحقة التى تنصب على السامعين كأنها الصواعق المتتابعة . واقرأ إن شئت فى السور الطوال والقصار جميعاً بعض الآيات التى يستحضر فيها يوم الحساب وما يكون فيه من الهول المروع للمجرمين ومن الأمن الآمن للمؤمنين فسترى الشدة كل الشدة واللين كل اللين وستراهما متجاورين وستحس كأنك تشهد ما أعد للمجرمين من هول وما أعد للمؤمنين من أمن فتضطرب نفسك أشد الاضطراب بين الرهب والرغب وبين الخوف والأمن . وقلما يفترق الترهيب والترغيب فى القرآن وإنما يوشكان أن يجتمعا دائماً . ولأمر ما كان هذا الاجتماع ، فالله لا يؤيس الكافرين من رحمته حتى يفتح لهم باب الأمل فيها ويمد لهم أسبابه إليها . فليس بين الكافر الجاحد المعاند الذى يرى عذابه كأنه حاضر بين يديه وبين الجنة ونعيمها إلا أن يؤمن .

فالكافر بين شيئين يكاد يراهما رأى العين حين يتلى عليه القرآن عن يمينه جنة فيها الأمن والرضى والنعيم وعن شماله النار فيها الهول والروع والعذاب وما عليه إلا أن يختار . والله لا يؤيس المؤمن العاصى

وإنما يجعل بين يديه خطيئته التي تكبه على وجهه في النار وتوبته التي تسعى به إلى الجنة . والله يبين للكافرين وللعصاة من المؤمنين أنه غفور رحيم وأن رحمته وسعت كل شيء وأن السبيل إلى رحمته هو أن يؤمن الكافر وأن يتوب المؤمن ويصلح . وكلاهما مختار بين ما يدخله الجنة وما يوقعه في النار .

وقف إن شئت عند كل موضوع عرض له القرآن فسترى من ملاءمة القول للموضوع وللمقام مثل ما بينت لك آنفاً .

ولو ذهبت أصف فنون الإعجاز في القرآن وملاءمة كل مذهب من مذاهب القول فيه لما فرغت من هذا الحديث . والقرآن بعد ذلك بين يدى كل ذى بصيرة يستطيع أن يقرأه وأن يقف عند سوره وآياته متدبراً متأملا مستبصراً فسيرى من غير شك أنى لم أبلغ من وصف القرآن وإعجازه بعض ما أريد ؛ وإعجاز القرآن شيء يشعر به القلب وتمتلئ به النفس ويذعن له الضمير ويعجز عن وصفه القلم واللسان .

وواضح أنى لم أرد في هذا الحديث إلا أن أصور تصويراً مقارباً موقع القرآن من قلوب الذين سمعوه حين كان النبي يتلوه على الذين استجابوا له والذين امتنعوا عليه ، ولم يكن امتناعهم عليه إلا إمعاناً في العناد ولجاجاً في المراء .

ولننتقل الآن إلى الأصل الثانى من أصول الإسلام وهى السنة .

٣

أشرت فى أول الكتاب الثانى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أرسل بشيراً ونذيراً وشاهداً على أمته وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً كما نص الله عز وجل ذلك فى سورة الأحزاب .

وأريد أن أبين فى هذا الفصل أن ما ثبت من سنة النبى قولا وعملا إنما هو خلاصة تبشيره وإنذاره وشهادته ودعوته إلى الله ، وأن أبين أيضاً أن النبى كان كما أشرت إلى ذلك فى أول هذا الكتاب معلماً حياته كلها منذ بعث إلى أن آثره الله بجواره . كان يتلو القرآن على المسلمين ويفسر لهم منه مايحتاج إلى تفسير ، ويفصل لهم منه ما كان مجملا يحتاج إلى التفصيل ، وكان يعلم أحياناً عن أمر الله له فى القرآن نصًّا . فالله يأمره أن ينبئ عباده بأنه هو الغفور الرحيم وبأن عذابه هو العذاب الأليم . وذلك فى قوله من سورة الحجر : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغَفُورُ الرحِيمُ . وأَنَّ عَذَابِى هُوَ العذَابُ الأَليم ﴾ .

ويأمره أن يقول لعباده إن سألوه عن الله إنه قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ويأمرهم أن يستجيبوا له يؤمنوا به لعلهم أن يرشدوا ، وذلك فى قوله من سورة البقرة : ﴿ وإذا سَأَلَكَ عِبادِى عَنِّى فَإِنِّى قريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى ولْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُون ﴾ .

ويأمره أن يقول لعباده الذين يسرفون على أنفسهم باقتراف الذنوب : لا تقنطوا من رحمة الله لأنه يغفر الذنوب جميعاً ، ولأنه هو الغفور الرحيم . وذلك فى قوله من سورة الزمر : ﴿ قُلْ يَا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِم لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّه هُو الغَفُورُ الرَّحِيم ﴾ .

وفى غير آية من القرآن الكريم يأمر الله النبى أن يعلم عباده أشياء كثيرة مما يريد أن يعلموها . سواء فى ذلك ما كان أمراً لهم بالخير ، أو نهياً لهم عن الشر، أو تثبيتاً لقلوبهم، أو عصمة لهم من اليأس والقنوط .

وأحياناً يأمره أن يقول لهم أشياء ليس فيها أمر ولا نهى ولا تثبيت للقلوب ، وإنما فيها مجرد العلم ، مثل قوله فى سورة الكهف :

﴿ قُل لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ .

فهو فى هذه الآية لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثبت قلوبهم ولا يذود عنهم اليأس ، وإنما يعلمهم أن كلامه أزلى خالدٌ لا سبيل إلى إحصائه ولا إلى انقضائه ، حتى ولو حاول الناس كتابته بمداد يشبه فى كثرته ما فى البحر من الماء ، حتى ولو مد هذا البحر ببحر آخر مثله .

وفى موضع آخر من القرآن يذكر الله هذا المعنى فى تفصيل أكثر وأشمل ، ويتحدث هو إلى الناس فى الآية الكريمة من سورة لقمان :

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وأحياناً أخرى يوجه الله عز وجل الحديث إلى الناس ولا ينص أمره بتكليف النبي أن يعلمهم كذا أو كذا . ولكنه على ذلك قد اختاره لرسالته وأمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه وأن يبلغه كاملا كما أنزل إليه لا يزيد فيه ولا ينقص منه .

وهذا الأمر نفسه يقتضى أن يبلغ النبي نص ما أنزل إليه كما ألقى فى قلبه ، وأن يبينه للناس حين يحتاجون إلى بيانه ، وهو يبينه للناس بما يلقى الله فى قلبه من العلم .

فالله يأمر المؤمنين أن يقيموا الصلاة ، ويأمرهم أن يؤتوا الزكاة ، ولكنه لا يبين لهم فى القرآن كيف تؤدى الصلاة ، ولا يبين لهم مواقيتها فى تفصيل ولا يبين لهم عدد الركعات فى كل صلاة ، وإنما يعلم نبيه هذا كله بما يلقى فى قلبه من المعرفة . وعلى النبي أن يعلم الناس مما علمه الله ، ولا يخفى عليهم منه شيئاً يمكن أن ينفعهم فى الدنيا والآخرة إن فعلوه ، أو يمكن أن يضرهم فى الدنيا أو الآخرة إن اقترفوه . فالنبي حين يصلى الصبح ركعتين بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس إنما يفعل ذلك عن أمر ربه ، ويفعله لأداء واجب عليه ، ثم ليعلم الناس كيف يؤدون ما يجب عليهم من الصلاة لله تعالى .

وقل مثل ذلك فى سائر الصلوات المكتوبة . وهو حين يصلى بعض النوافل قبل أداء المكتوبة أو بعدها إنما يفعل ذلك عن تعليم الله له ، وليعلمه للناس على أنه ليس حتماً عليهم بل هو مستحب منهم . وهو حين يبين النصاب الذى تجب فيه الزكاة من المال ، ومقدار ما يطلب

فى هذه الزكاة ، إنما يبين ذلك للناس عن أمر ربه أيضاً .

وقل مثل ذلك فى كل ما أجمله القرآن وفصله النبى بتعليمه للناس بالقول أحياناً وبالعمل أحياناً وبهما جميعاً أحياناً أخرى .

وقد بين الله للناس كيف يؤدون إليه حقه عليهم من صيام رمضان ، فأمرهم أن يحيوا حياتهم المألوفة ليلاً حتى إذا تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر صاموا عن الطعام وعن أشياء أخرى مما ألفوا إلى الليل .

ولكن هذا الصيام الذى بينه الله وبين ما رخص فيه لمن كان مريضاً أو على سفر لم يفصل فى القرآن كل التفصيل . فالناس يألفون أشياء كثيرة فى حياتهم كلها مباح لهم ولم يحظر الله على الناس من هذه الأشياء فى القرآن إلا الطعام والشراب والرفث . وفصل النبى للمؤمنين سائر ما يجب عليهم أو يحسن بهم أن يجتنبوه وما لا حرج فى أن يأتوه ، وقل مثل ذلك فى الحج وفى كل ما أمر الله به أو نهى عنه إجمالا أو تفصيلا .

فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذن أول مفسر للقرآن ، وهو فسر القرآن بالقول وبالعمل ، ولأمر ما جعلت كتب الحديث بين أبوابها باباً نقلت فيه ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو عمل بمناسبة سورة أو آية من القرآن . والله قد طلب إلى الناس فى القرآن أن يؤمنوا به وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبالأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل محمد وبما أنزل من كتب قبل القرآن وأن يؤمنوا باليوم الآخر وما يكون فيه من الحساب والثواب والعقاب وأن يؤمنوا بالملائكة .

فقال فى الآية الكريمة من سورة البقرة : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إليهِ مِن رَبِّه والمُؤمنون كُلٌّ آمَنَ باللهِ ومَلائِكته وكتُبهِ ورُسُله لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ مِن رُسله وقالُوا سَمِعْنا وأَطَعنا غُفرانَكَ ربَّنا وإليْكَ المَصِير ﴾ .

وقال فى أول السورة نفسها فى بيان المتقين : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُون . والَّذِينَ يُؤْمِنونَ بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وبِالآخِرةِ هُمْ يُوقِنُون . أولئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِم وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾ .

والله ذكر الإسلام فقال فى سورة آل عمران : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَم ﴾ .

وقال فى سورة الأنعام : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَه لِلإِسْلام ومَن يُرِد أن يُضِلَّه يَجْعل صَدْرَه ضَيقاً حرَجاً كأنما يَصَّعَّد فى السَّماءِ كَذَلِكَ يَجْعل الله الرِّجْسَ عَلَى الَّذينَ لاَ يُؤْمِنُون ﴾ .

وذكر الله فى غير موضع من القرآن أن إبراهيم قد أسلم وجهه لله ، وأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . قال فى سورة آل عمران : ﴿ مَا كَانَ إبرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كانَ مِنَ المُشْرِكِين. إنَّ

أوْلَى النّاسِ بإبرَاهِيمَ لَلّذِينَ اتّبَعُوهُ وَهَذَا النّبِيُّ وَالّذِين آمَنُوا والله وَلِيُّ المُؤْمِنِين ﴾ .

وقال فى سورة البقرة على لسان إبراهيم : ﴿ رَبّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْن لك ومنْ ذُرِّيتِنَا أمّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ علَيْنَا إنّكَ أنتَ التّوابُ الرّحيم . رَبّنا وَابعَثْ فِيهم رَسُولاً مِنْهم يَتْلو عَليهم آياتِك وَيُعلِّمُهم الكِتابَ والحِكمة ويُزكِّيهِم إنك أنت العَزيزُ الحَكيم . ومَنْ يَرْغَبُ عن مِلّةِ إبرَاهيم إلّا مَن سَفِه نَفْسَه ولقد اصْطَفَيناه فى الدّنيا وَإنّه فى الآخِرةِ لمنَ الصّالحين . إذْ قالَ لهُ رَبُّه أسْلم قالَ أسْلمْتُ لربِّ العَالَمِينَ . ووَصّى بِهَا إبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقوبُ يَا بَنِىَّ إنّ اللهَ اصْطَفَى لكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَموتُنّ إلاَّ وَأنتُمْ مُسْلِمُونَ أمْ كنتُمْ شهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوتُ إذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قالوا نَعْبدُ إلٰهكَ وإلٰه آبائِكَ إبْرَاهِيمَ وَ إسْمَاعِيلَ وإسْحٰقَ إلٰهاً واحِدًا ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون . تِلْكَ أمّةٌ قدْ خلَتْ لهَا مَا كَسبَتْ ولَكمْ مَا كَسَبْتُمْ ولاَ تُسْئَلُونَ عمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وقَالُوا كُونُوا هُودًا أو نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ . قولوا آمَنّا باللهِ ومَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلَى إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحٰقَ ويَعقُوبَ والأسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وعِيسَى ومَا أُوتِىَ النّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لاَ نُفرِّقُ بَيْنَ أحَد

مِنْهُم ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون. فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وإِنْ تَولَّوا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

فالله يثبت فى هذه الآيات دعاء إبراهيم وإسماعيل أثناء رفعهما القواعد من البيت أن يجعلهما الله مسلمين له ، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له ، وأن يبعث فى هذه الأمة رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وينبئنا بعد ذلك بأن أبناءه وأحفاده ظلوا مسلمين من بعده وأن يعقوب قد وصى بنيه بالإسلام وامتحنهم فيه حين حضره الموت .

ثم ينبئنا بأن أهل الكتاب يزعمون أن من أراد الهدى فعليه أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا . ثم يأمر الله نبيه أن يرد عليهم بقوله : ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، ومَا كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ .

ويأمر المؤمنين بأن يعلنوا إيمانهم بالرسل والنبيين من قبلهم ، وبما آتاهم ربهم من كتاب وعلم ودين وأنهم مسلمون لله .

ويقول الله فى سورة الحج : ﴿ يـأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكم وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ . وجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ومَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِى الدِّين مِنْ حَرَجٍ مِلةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيم هُوَ سَمَّاكُم المُسْلِمِين مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُم وتَكُونُوا شُهدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ واعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُم فَنِعْمَ المَولى ونِعْم النَّصِير ﴾ .

فإبراهيم إذن هو الذى سمى المؤمنين مسلمين ، وهو أبوهم ، وقد كان مسلماً . وقد قرأت آنفاً ما قص الله من دعائه فى سورة البقرة ، ودعاء إسماعيل معه ، حين سألا ربهما أن يجعلهما مسلمين له ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له .

فالله إذن قد ذكر الإيمان والإسلام فى هذه الآيات التى تلوناها ولم يفرق بينهما . كلاهما فيه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد فى سبيل الله وفعل الخير ، وأداء كل ما يأمر الله به ، واجتناب كل ما نهى الله عنه . والله قد ذكر الإيمان والإسلام فى آيات أخرى كثيرة من القرآن ولم يفرق بينهما . فقال فى سورة « المؤمنون » يصف الذين آمنوا حق الإيمان وهو بذلك يعرف الإيمان تعريفاً عملياً بأنه أداء ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنون . الَّذين هُم فى صَلاتِهمْ خَاشِعُون . والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْو مُعْرِضُونَ . والَّذِينَ هُمْ للزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، والَّذِينَ هُمْ لِفرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأُولَئكَ هُمُ الْعَادُونَ . والَّذِينَ هُم لأَمَانَاتِهِمْ وعَهْدِهِم رَاعُونَ . والَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الوارِثُونَ الَّذين يَرِثُون الفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خالِدُون ﴾ .

ويقول الله فى سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ والمُسْلِمَاتِ والمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ والقَانِتِينَ والقَانِتَاتِ والصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ والصَّابِرَاتِ والخَاشِعِينَ والخَاشِعَاتِ والمُتَصَدِّقِينَ والمُتَصَدِّقَاتِ والصَّائِمِين

والصَّائِمَات والْحَافِظِينَ فرُوجَهُمْ والحافِظَات والذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا والذَّاكِرَات أَعَدَّ اللهُ لهمْ مَغْفِرَةً وأَجْراً عَظِيماً ﴾ .

فهو فى هذه الآية يعطف المؤمنين على المسلمين وفى هذا العطف إشارة إلى أن بين الإسلام والإيمان شيئاً من الاختلاف . وليس من الضرورى أن يكون هذا الاختلاف تناقضاً أو تغايراً بين اللفظين ، وإنما يمكن أن يأتى الاختلاف من أن بين معنى هاتين الكلمتين شيئاً من الافتراق فى الزيادة والنقص . فمعنى إحدى الكلمتين أكمل من معنى الكلمة الأخرى . ثم يعدد الله فى هذه الآية الكريمة صفات كلها يدخل فى معنى الإيمان وفى معنى الإسلام . فهى تدل على أوامر من الله يجب أن تؤدى ونواه من الله يجب أن يُجتنب ما تنهى عنه .

على أن الله يوضح الفرق بين الإسلام والإيمان توضيحاً لا يحتمل نزاعاً فى قوله من سورة الحجرات : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخل الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لايَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ .

فأولئك الأعراب الذين أعلنوا أنهم آمنوا ، يأمر الله نبيه أن يرد عليهم بأنهم لم يؤمنوا ، ويأذن لهم فى أن يقولوا أسلمنا ، وإن كان الإيمان لم يدخل فى قلوبهم بعد . ثم يعلن إليهم أنهم إن يطيعوا الله ورسوله لا ينقصهم الله من أعمالهم شيئاً وإنما يوفيهم أجر ما عملوا كاملاً يوم القيامة ذلك أن الله غفور رحيم .

وإذن فقد كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم مؤمنون ومسلمون .

فما عسى أن يكون الفرق بين الإيمان والإسلام ؟ فأما الإيمان فالظاهر من هذه الآية الكريمة نفسها ، أنه شيء فى القلوب قوامه إخلاص الدين لله من دخيلة النفس واستقرار التصديق بوجوده وبإرساله النبي وبكل ما أوحى إليه فى أعماق الضمير . ونتيجة هذا الإيمان الاستجابة لله ولرسوله فى كل ما يدعوان إليه ، من غير جمجمة ولا لجلجة ولا تردد مهما تكن الظروف والخطوب والكوارث والأحداث على نحو ما ذكر الله من أمر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح يوم أحد ، فخرجوا مع النبي فى أعقاب المشركين من قريش ، على ما أصابهم من حزن ، وما بذلوا فى الموقعة من جهد وما كانوا عليه من قلة وضعف ، والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم هذا القول إيماناً ، وصمموا على اتباع النبي وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . وذلك فى قول الله عز وجل فى سورة آل عمران ، بعد أن ذكر حياة الشهداء عنده : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُون بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنون . يَسْتَبْشِرُون بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ وأَنَّ ٱللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِين . الَّذِينَ ٱسْتَجَابوا لِلهِ والرسولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصَابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِين أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيم . الَّذِينَ قالَ لهمُ النَّاسُ إِنَّ النَاسَ قدْ جمَعُوا لَكمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم إِيماناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ ونِعْمَ الوكيلُ . فانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ لم يمْسَسْهُم سُوءٌ واتَّبَعوا رِضْوَانَ اللهِ ، واللهُ ذو فَضْلٍ عَظِيم ﴾ .

ولازمة أخرى من لوازم هذا الإيمان ذكرها الله فى سورة الأنفال ، هى الخوف العميق من الله إذا ذُكر اسمه ، والثقة العميقة بالله إذا جد الجد وازدياد التصديق إذا تُليت آيات الله . وذلك فى قوله :

﴿ إنما المؤمِنونَ الَّذِين إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيماناً وعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون ﴾ .

فهذا هو الإيمان صورناه تصويراً مقارباً ، فأما الإسلام فهو الطاعة الظاهرة لما يأمر الله ورسوله به وما ينهيان عنه ، بأداء الواجبات واجتناب المحظورات ، وإن لم يبلغ الإيمان الصادق من القلب المبلغ الذى وصفه الله فى الآيات الكريمة التى أثبتناها آنفاً . فمن الناس من يسلمون خوفاً من البأس ، كما أسلم الطلقاء من قريش يوم فتح مكة ، ومنهم من يسلم خوفاً وطمعاً كالأعراب الذين ذكرهم الله فى سورة الحجرات ، وجائز أن يصير هذا الإسلام إلى الإيمان على مر الزمن ومن أجل ذلك اصطنع الله لفظ « لما » فى قوله فى الآية التى أثبتناها آنفاً بشأن هؤلاء الأعراب :

﴿ ولَمّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِى قُلُوبِكُم ﴾ . فكل مؤمن مسلم ، لأنه يصدق تصديقاً عميقاً ويطيع الطاعة الظاهرة والباطنة . وليس كل مسلم مؤمناً. والإسلام كما شرحناه آنفاً هو الذى يعصم نفوس أصحابه وأموالهم من النبي ومن أولى الأمر بعده إلا بحقها وحسابهم على الله .

ذلك أن النبي كان كثيراً ما يستأذن فى قتل المنافقين أو من يظهر منهم الشك فيأبى ويقول إنى لم أومر بالتنقيب عما فى قلوب الناس .

والإيمان يزيد وينقص ولا داعى لتكلف الدليل على ذلك . فقد

نصّ الله ذلك فى القرآن فى الآية التى أثبتناها آنفاً من سورة الأنفال حيث يقول : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُه زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ . وفى الآية التى أثبتناها أيضاً من سورة آل عمران حيث يقول الله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُم فزَادَهم إيماناً وقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ ونِعْمَ الوَكِيل ﴾

وما تجوز عليه الزيادة يجوز عليه النقص . ومن أجل هذا يُذكر فى حديث الشفاعة أن الله يقول لنبيه حين يشفع عنده فى أمته : اذهب فأخرج من النار من كان فى قلبه مقدار حبة من إيمان . ثم يقول له آخر الأمر : اذهب فأخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان .

والإسلام كذلك يضيق ويتسع . فإسلام إبراهيم عليه السلام لم يكن طاعة ظاهرة تؤديها الجوارح وإنما كان طاعة واسعة عميقة تملأ القلب وتمتزج بالنفس وتسخر لها الجوارح ويقدم لها على ما لا يُقدم الناس عليه إلا بالجهد كل الجهد واستكراه النفس عليه أشد الاستكراه . ومن أجل ذلك قدم إبراهيم ابنه ضحية ، وكاد يبلغ من ذلك غايته لولا أن كفه الله عن ذلك فناداه : أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا؛ ثم فداه بذبح عظيم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً وكان سائر الأنبياء مسلمين كما رأيت منذ حين . فلم يكن إسلام الأنبياء جميعاً طاعة ظاهرة . وإنما كان إسلامهم أوسع وأعمق وأصدق ما يمكن أن يكون الإسلام .

وإسلام الصالحين من أصحاب النبي كذلك لم يكن كإسلام الأعراب ضيقاً يقف عند الطاعة الظاهرة وإنما كان أوسع وأعمق من هذا .

ومن أجل ذلك تحدث الله عنهم فى القرآن حين قال فى سورة الفتح : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ . فهم قد كانوا بايعوا رسول الله على الموت ، طابت أنفسهم عن ذلك استجابة لله ورسوله . وتحدث الله عنهم أيضاً بأنه رضى عنهم ورضوا عنه .

وللإسلام بعد ذلك معنى آخر أخص جدًّا من هذا ، فهو علَم على الدين الذى يرضاه الله لعباده .

وقد نص الله ذلك فى قوله من سورة المائدة : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ .

وفى قوله من سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

وقد ذكر الله شيئاً ثالثاً فى القرآن وهو الإحسان وذلك فى قوله من سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وفى الآية التى أثبتناها من سورة آل عمران حيث يقول :

(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وفى كل آية ذكر الله فيها ﴿لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين﴾ أو أنه ﴿يَجْزِي الْمُحْسِنِين﴾ أو أنه ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ كل هذا يدل على الإحسان لأن لفظه مشتق منه ولأن معناه يلائم ما أمر الله به .

والإحسان هو أن يبلغ الإنسان فى الطاعة حتى يصل منها إلى أقصى ما يطيق لا يفتر ولا يكسل ولا يقصر بل يجتهد بقلبه ونفسه وجوارحه ما وجد إلى الاجتهاد سبيلا .

فهذه كلمات ثلاث فى القرآن : الإيمان والإسلام والإحسان ، يكثر استعمالها وتتقارب معانيها . وقد عرّفها النبى صلى الله عليه وسلم فلم يجعل فى واحدة منها شكًّا. وذلك فى الحديث الذى رواه الشيخان عن طلحة ابن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دوى صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فقال : هل علىّ غيرها؟ قال : لا ، إلا أن تتطوع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وصيام رمضان . قال : هل علىّ غيره ؟ قال : لا ، إلا أن تتطوع . قال : وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة . قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا، إلا أن تتطوّع . قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق » .

فهذا الحديث يفسر الإسلام الذى كان عليه الأعراب ، وهو هذه الطاعة الظاهرة فى أداء الفرائض واجتناب المحظورات .

ولكن لأبى هريرة حديثاً أجمع من حديث طلحة وإن كنت أخشى أن يكون فى آخره شىء من تزيد وقد رواه الشيخان أيضاً . قال أبو هريرة : كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث . قال : وما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها ، إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان ، فى خمس لا يعلمون إلا الله . ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية . ثم أدبر . فقال : رُدّوه فلم يروا شيئاً . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم .

والقسم الأول من الحديث هو الذى يعنينا لأنه مطابق للقرآن فالإيمان — كما وصفه النبى صلى الله عليه وسلم — هو الذى ذكره الله فى الآية المتقدمة من سورة البقرة . وكذلك الإسلام والإحسان .. والله عنده علم الساعة — ما فى ذلك شك — لأنه منصوص فى القرآن . فأما أشراطها التى جاءت فى الحديث وأن الرجل الذى جاء يسأل النبى كان جبريل أقبل يعلم الناس دينهم فإنا نتركه لأبى هريرة وان روى عنه يحملون تبعته .

وفى حديث آخر — يرويه الشيخان عن عبد الله بن عمر — يذكر النبى الأركان الخمسة للإسلام فيقول : بُنى الإسلام على خمس :

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان .

وهذه الأركان كغيرها من الأعمال التى أمر الله بها أو ندب إليها . والتى علّمها النبي لأصحابه لا تُقبل من أصحابها إلا إذا حسنت نيتهم وصدق إيمانهم حين يؤدونها . ومن أجل ذلك قال النبي فى الحديث الذى يروى عن عمر ، والذى يوشك ثقاة المحدثين أن يجمعوا على صحته حتى قال بعضهم إنه متواتر: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» . ومعنى ذلك أن إخلاص النية لله فيما يؤدى الإنسان من الفرائض وما يأتى من أعمال الخير والبر شرط لصحة ما يأتى وما يدع ، وقبول ذلك من الله عز وجل . والنية لا تكون بالألسنة وحدها وإنما يجب أن تكون فى أعماق القلوب سواء أنطق بها الإنسان أم لم ينطق .

ومن أجل هذا كله تأذن الله أن أعمال المنافقين لا تقبل وأنبأ بأنهم فى الدرك الأسفل من النار وقال لنبيه :

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ .

ونهاه آخر الأمر عن أن يصلى على أحد منهم مات أبداً أو يقوم على قبره ؛ ذلك لأنهم كانوا يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم يعلنون الإيمان ويبطنون الكفر . وكانوا إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى لا ينشطون

لها ولا يقبلون عليها من قلوبهم . كأنما كانوا يستكرهون عليها استكراهاً .

ولم يكتف النبي بتعليم الناس حقائق الإيمان والإسلام والإحسان وإنما كان يعلمهم خصائص هذه الخصال الثلاث وما ينبغي لأصحابها من العمل وما يجب عليه أن يجتنب فى خاصة حياته وفى صلاته بالناس . فكان يعلمهم أن الإنسان لا يؤمن حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه وكان يعلمهم أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ينبغى له أن يؤذى جاره ولا أن يقصر فى إكرام ضيفه . وكان يعلمهم أن جائزة الضيف يوم وليلة وأن الضيافة ثلاثة أيام وأن ما زاد على هذه الأيام الثلاثة من القرى فهو صدقة على الضيف .

وكان يعلمهم حتى الأشياء التى بينها الله فى القرآن بياناً لا لبس فيه . فالله قد بين الوضوء فى الآية الكريمة من سورة المائدة :

﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فاغْسِلُوا وجُوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ وامْسَحُوا برُؤُوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ وإنْ كُنْتُمْ جُنُباً فاطَّهَّرُوا ، وإنْ كنتُمْ مَرْضَى أَوْ على سفرٍ أَوْجاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فلم تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّباً فَامْسَحُوا بوُجُوهِكمْ وَأَيْدِيكُمْ منه ، مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حرَجٍ ولكنْ يُرِيدلِيطَهِّركم وليُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكمْ لعَلَّكم تَشْكرُون ﴾ .

فالله قد بين للناس فى هذه الآية كيف يتوضؤون للصلاة وأن

عليهم أن يغتسلوا إن كانوا جنباً فإن لم يجدوا الماء للوضوء أو للاغتسال أو كان الماء يؤذيهم إن اصطنعوه لمرض يمنعهم من اصطناعه أو كانوا مسافرين فلهم أن يمسوا صعيداً طيباً وأن يمسحوا منه وجوههم وأيديهم إلى المرافق فذلك يجزئهم عن الوضوء والغسل جميعاً . ثم بين الله تعالى فى آخر الآية أنه لا يريد أن يشق على عباده وإنما يريد منهم أن يطهروا .

وعلى رغم ما فى هذا كله من الوضوح فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ للناس ليريهم كيف يتوضؤون . وكان يتيمم لهم أيضاً ليريهم كيف يتيممون . وكان يذكر لهم كيف يغتسلون . كل هذا ليكون المسلمون على ثقة مما يأتون ويدعون ، وليكون النبى مؤدياً لرسالته على أتم وجه وأحسنه ، وكان يلح عليهم فى النظافة نظافة أجسامهم وثيابهم ومجالسهم بل نظافتهم فى حياتهم مع الناس فكان ينهى الذين يأكلون البصل أو الثوم أو أى شىء تؤذى رائحته أن يدخلوا المسجد ويشهدوا صلاة الجماعة ، حتى لا يؤذى بعضهم بعضاً . وكان يرخص لهم فى الصلاة فرادى فى بيوتهم حتى يذهب عنهم ما يمكن أن يؤذى جلساءهم . وكان يلح عليهم فى أن تكون طرقهم التى يعشون فيها نظيفة ، وينبئهم بأن إماطة الأذى عن الطريق فضيلة يكمل بها الإيمان .

وكان يكره لمن عنده فضل من الماء أن يمنعه ابن السبيل ومن تشتد حاجته إليه .

ثم كان يحثهم على الأمانة فى معاملاتهم كلها فى حفظ الودائع وأدائها إلى أصحابها وفى البيع والشراء وفى جميع أقوالهم وأعمالهم ، وكان يشدد عليهم فى العدل فى صلاتهم كلها ويحرج على المختصمين بين يديه أن

يجور بعضهم على بعض واو بفصاحة الألسنة والبراعة فى الجدل . وكان ينبئهم بأن من غلب خصمه باللسن أو قوة العارضة ثم قضى له بغير ما يستحق فإنما قضى له بقطعة من النار .

وكان بهذا كله ينفذ فيهم قول الله تعالى فى سورة النساء :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

وكان يشدد فى تخويف الحكام من الأئمة والولاة والقضاة بالعذاب الشديد إن جاروا فى الرعية ولم يرفقوا بها ولم يرعوا العدل فى أحكامهم تنفيذًا لقول الله فى الآية الكريمة من سورة النحل :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ولم يكن شىء أبغض إليه من نقض العهود والحنث فى الأيمان يبين للناس قول الله من سورة النحل :﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى من أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لكم يَوْمَ الْقِيَامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وكان شديد الحياء جداً وكان شديداً فيه على أصحابه ، وكان يقول لهم إن الحياء شعبة من الإيمان . ثم كان لا يدع صغيرة أو كبيرة من أعمال الناس فى حياتهم العامة والخاصة إلا بين لهم ما يحسن أن يأتوا منها وما يحسن أن يتركوا، وكان يعظهم فيبالغ فى الموعظة حتى يوشك أن يشرف بهم على اليأس . ثم يبشرهم فيبلغ فى تبشيرهم حتى يفتح لهم أبواب الرجاء على مصاريعها . وكان كثيراً ما يقول لأصحابه : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً .

ثم كان يحب اليسر فى الأمر كله لا يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وكان يقول لأصحابه إنما بعثتم ميسرين لا معسرين . وكان يكره الغلو فى الدين وتجاوز القصد فى العبادة . بلغه أن رجلا من أصحابه ومن خيارهم هو عبد الله بن عمرو بن العاص أزمع أن يصوم الدهر ويقوم الليل فراجعه فى ذلك أشد المراجعة ، وذكره بأن لجسمه عليه حقاً ولأهله عليه حقاً، وما زال به حتى ألزمه بعد ما رأى من تشدده أن يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وأنبأه أن ذلك كان صيام نبى الله داود .

وأبى على رجل من كرام أصحابه — هو عثمان بن مظعون — أن يترهب ويعتزل أهله .

وكان هو يشتد على نفسه فى العبادة فيقوم كثيراً من الليل وربما واصل بين الليل والنهار فى صيامه وكان أصحابه يريدون أن يصنعوا صنيعه فينهاهم عن ذلك أشد النهى كراهة أن يشددوا على أنفسهم فيشدد الله عليهم . ويقول لهم فى مواصلة الصوم إنى لست كهيئتكم إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى ، يريد أن الله يمنحه من الصبر والجلد وحسن الاحتمال ما لا

يمنح غيره من أصحابه .

ونحن نروى لك شيئاً من موعظته لأصحابه لترى كيف كان يبلغ بوعظه أعماق النفوس ودخائل الضمائر .

قال لأصحابه ذات غداة : « إنه أتانى الليلة آتيان وإنهما ابتعثانى وإنهما قالا لى : انطلق ، وإنى انطلقت معهما ، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتهدهد الحجر هاهنا ، فيتبع الحجر ، فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان . ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى .

قال : قلت لهما : سبحان الله ! ما هذان ؟

قال : قالا لى : انطلق .

قال : فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلق لقفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكوب من حديد ، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه .

قال : ثم يتحول إلى الجانب الآخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى .

قال : قلت : سبحان الله ! ما هذان ؟

قال : قالا لى : انطلق . فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنور ، فإذا فيه لغط وأصوات .

قال : فاطلعنا فيه . فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا [1] .

---

(١) أى : ضجوا وصاحوا .

قال : قلت لهما : ما هؤلاء ؟

قال : قالا لى : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا . فأتينا على نهر أحمر مثل الدم ، وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً . فينطلق يسبح ثم يرجع إليه ،وكلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجراً .

قال : قلت لهما : ما هذان ؟

قال : قالا لى : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا ، فأتينا على رجل كريه المرآة ، كأكره ما أنت راء رجلا ، مرآة ، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها .

قال : قلت لهما : ما هذا ؟

قال : قالا لى : انطلق . انطلق .

قال : فانطلقنا ، فأتينا على روضة معتمة ، فيها من كل نور الزبيع ، وإذا بين ظهرى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط .

قال : قلت لهما : ما هذا ؟ ما هؤلاء ؟

قال : قالا لى : انطلق انطلق .

قال : فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة ، لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن .

قال : قالا لى : ارقَ فيها .

قال : فارتقينا فيها فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ، ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجال ، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء .

قال : قالا لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر .

قال : وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض فى البياض . فذهبوا فوقعوا فيه . ثم رجعوا إلينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا فى أحسن صورة .

قال : قالا لى : هذه جنة عدن وهذا منزلك .

قال : فسما بصرى صعداً ، فإذا قصر مثل الربابة البيضاء .

قال : قالا لى : هذاك منزلك .

قال : قلت لهما : بارك الله فيكما ، ذرانى فأدخله . قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله .

قال : قلت لهما : فإنى قد رأيت الليلة عجباً . فما هذا الذى رأيت ؟

قال : قالا لى : أما إنا سنخبرك . أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة . وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق . وأما الرجال والنساء العراة الذين فى مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزوانى . وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر ، فإنه آكل الربا . وأما الرجل الكريه المرآة الذى عند النار ،

يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم . وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم . وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة .

قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله أوَأولاد المشركين !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأولاد المشركين .

وأما القوم الذين كانوا : شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم قوم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم .

وهذا الحديث يرويه البخارى بالنص الذى رويناه ويوافقه عليه مسلم وتظهر فيه الصحة لأنه لا يعدو ما أنذر الله به المذنبين من ألوان العذاب إلا أن يتوبوا ويصلحوا ، ولأن قوة لفظه وحسن تمثيله وإشراق عبارته كل ذلك يلائم ما نعرف من فصاحة النبي وروعة بيانه .

ففكر فى موقع هذا الكلام من قلوب أصحاب النبى حين سمعوه وكيف خوف حتى ملأ القلوب رعباً وكيف رغب حتى ملأ النفوس أملا .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ربما عاقب بعض أصحابه فأبلغ فى عقابهم عن أمر الله له بذلك إمعاناً فى تأديبهم وضنًّا بهم أن يشبهوا المنافقين فى قليل أو كثير .

فهؤلاء الثلاثة الذين كانوا من خيار أصحابه والذين تخلفوا عن النبي ولم يخرجوا معه فى غزوة تبوك وإنما أقاموا فى المدينة وانتظروا فيها عودة النبي إليها فصنعوا صنيعاً يشبه صنيع المنافقين من أهل المدينة وممن حولها من الأعراب أولئك الذين رغبوا بأنفسهم عن رسول الله واستحبوا الراحة على العناء والجهد وأشفقوا على أنفسهم من عواقب الحرب وأولئك الذين

ذكرهم الله فى آيات كثيرة من سورة التوبة يلومهم ويعنفهم ويأمر نبيه ألا يصلى عليهم إن ماتوا ولا يقوم على قبورهم ويأمره كذلك ألا يقبل منهم الخروج معه بعد هذا الذنب .

وقد كره الله ورسوله لهؤلاء الثلاثة من المؤمنين الصادقين أن يظهر من صنيعهم شىء يشبه قليلا أو كثيراً صنيع المنافقين .

وقد ذكر الله توبته على هؤلاء الثلاثة ولكن بعد أن أدبهم النبى فأبلغ فى تأديبهم نصحاً لهم أولا وموعظة للمؤمنين الصادقين بعد ذلك .

والآيتان اللتان ذكرت فيهما توبة الله على هؤلاء الثلاثة هما قول الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ تَابَ ٱللهُ على النَّبِىِّ والمُهاجِرِينَ والأَنْصَارِ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ العُسْرةِ مِن بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قلوب فَرِيق مِنهُمْ ثُمَّ تابَ عليهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيم . وَعَلَى الثَّلاثةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حتى إذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بما رَحُبَتْ وضاقَتْ عَلَيهِمْ أَنْفُسُهُم وظَنُّوا أن لاَ مَلْجَأَ مِنَ الله إلاَّ إِلَيْهِ ثُم تابَ عليهمْ لِيَتُوبُوا إنَّ ٱللهَ هوَ التَّوابُ الرَّحِيم ﴾ .

وكان كعب بن مالك الأنصارى ، وأحد المنافحين عن النبى بشعره ، أحد هؤلاء الثلاثة . وقد حفظ لنا الشيخان قصة تخلفه ، كما تحدث هو بها . وليس أبلغ منها فى بيان تأديب النبى لأصحابه ، فنرويها لك هنا لترى كيف كان النبى يشتد على الصادقين من أصحابه حين تجب الشدة عليهم ، تمحيصاً لقلوبهم وتنقية لضمائرهم .

قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة غزاها ، إلا فى غزوة تبوك . غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها . إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش . حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام . وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها . كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة . والله ! ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط ، حتى جمعتهما فى تلك الغزوة . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد غزوة إلا ورى بغيرها . حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً وعدواً كثيراً . فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم . فأخبرهم بوجهه الذى يريد . والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير . ولا يجمعهم كتاب حافظ — يريد الديوان — .

قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن يستخفى له ، ما لم ينزل فيه وحى الله . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة ، حين طابت الثمار والظلال . وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه . فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم . فأرجع ولم أقض شيئاً . فأقول فى نفسى : أنا قادر عليه . فلم يزل يتمادى بى ، حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه . ولم أقض من جهازى شيئاً . فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم

ألحقهم . فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً . ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل بى حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم . وليتنى فعلت ! فلم يقدر لى ذلك . فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصاً عليه النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء . ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك . فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب » ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ! حبسه برداه ونظره فى عطفه . فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت . والله يا رسول الله ! ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى . وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عنى الباطل وعرفت أنى لن أخرج منه أبداً بشىء فيه كذب ، فأجمعت صدقه . وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً . وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا . فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله . فجئته . فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب . ثم قال : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه . فقال لى : ما خلفك ؟

ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ؛ إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر . ولقد أعطيت جدلا . ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ، ليوشكن الله أن يسخطك علىّ . ولئن حدثتك حديث صدق تجد علىّ فيه ، إنى لأرجو فيه عفو الله . لا والله ، ما كان لى من عذر . والله ، ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق . فقم حتى يقضى الله فيك ، فقمت . وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى . فقالوا لى : والله ! ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون . قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك . فوالله ! ما زالوا يؤمنوننى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى . ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم . رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة ابن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى . فذكروا لى رجلين صالحين ، قد شهدا بدراً فيهما أسوة . فمضيت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما يبكيان . وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم . فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ،

وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد . وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة . فأقول فى نفسى : هل حرّك شفتيه برد السلام علىّ أم لا ! ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر . فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلىّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى . حتى إذا طال علىّ ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه . فوالله ما رد علىّ السلام . فقلت : يا أبا قتادة ! أنشدك بالله ! هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت . فعدت له فنشدته . فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

قال : فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له . حتى إذا جاءنى ، دفع إلى كتاباً من ملك غسان . فإذا فيه : أما بعد . فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك . ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة . فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء . فتيممت بها التنور فسجرته بها . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين . إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها ؟ أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبىّ مثل ذلك . فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ! قال : لا . ولكن لا يقربك . قالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء . والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان ، إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : او استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ! فقلت : والله لا أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها . وأنا رجل شاب ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا . فلما صليت صلاة الفجر ، صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا . فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت على نفسى وضاقت علىّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع ، بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، قال فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج . وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون وركض إلى رجل فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل . وكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىّ، فكسوته إياهما ببُشراه . والله ! ما أملك غيرهما يومئذ . واستعرت ثوبين فلبستهما . وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئوننى بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك .

قال كعب : حتى دخلت المسجد . فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس . فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله يهرول وهنأنى والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره . ولا أنساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قال : قلت أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر . وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت ، يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر .

فقلت : يا رسول الله ! إن الله إنما نجانى بالصدق وإن من توبتى ألا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت . فوالله ! ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث ، منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلانى ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا كذباً . وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت .

وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ تابَ ٱللهُ على النَّبِيِّ والمهَاجِرِينَ ﴾ — إلى قوله — ﴿ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فوالله ! ما أنعم الله علىّ من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام ، أعظم فى نفسى

من صدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا . فإن الله قال للذين كذبوا ، حين أنزل الوحي ، شر ما قال لأحد. فقال تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُم إِذَا انقلبتمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فإنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِين ﴾ .

قال كعب : وكنا قد تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم . وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه .

فبذلك قال الله ﴿ وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِين خُلِّفُوا ﴾ وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه .

فانظر إلى هذه القصة الرائعة وإلى ما فيها من العبر والموعظة ، وإلى تأديب النبي لمن يحب من أصحابه الصادقين حين يحتاجون إلى التأديب فهؤلاء الثلاثة قد تخلفوا ولم يكن لهم عذر من ضعف أو فقر أو عجز عن السفر ، وإنما امتحنهم الله ببعض أعمالهم ليبلوهم ويطهر قلوبهم ، وكان كثير من الناس قد تخلفوا عن هذه الغزوة ، يعدهم كعب نيفاً وثمانين رجلا . فلما عاد النبي إلى المدينة أقبل المتخلفون فجعلوا يتكلفون المعاذير ويقولون للنبي غير الحق ، وجعل النبي يقبل معاذيرهم ويستغفر لهم ، لأنه — كما كان يقول دائماً — لم يؤمر بالتنقيب عما فى قلوب الناس . ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا أشد إيماناً بالله ورسوله ، وأصدق حباً لهما من أن يضيفا إلى تخلفهم خطيئة الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم . وهم يعلمون

حق العلم أن ضمائر المتخلفين المنافقين لم تكن لتخفى على الله ، وأن الله جدير أن ينبئ رسوله بسرائرهم . فآثروا الصدق وفاء لدينهم ، وإشفاقاً أن يفضح الله كذبهم وتخلفهم فاعترفوا بذنوبهم وسمع النبي منهم وأعلن أنهم قد صدقوه ولم يعف عنهم مع ذلك . ترك أمرهم إلى الله يقضى فيه بما يشاء ، ثم لم يلبث أن أمعن فى عقابهم فأمر المؤمنين ألا يكلموهم. وينظر هؤلاء الثلاثة فإذا هم قد اقتطعوا من الناس اقتطاعاً ، وإذا هم فى عزلة بغيضة إلى نفوسهم كان السجن أهون منها . ومن أجل ذلك لزم اثنان منهم بيوتهما فلم يخرجا منها ولم يتعرضا لجفوة الناس ، وإنما أقاما يؤديان الصلاة فى بيوتهما ولا يشهدان جماعة المسلمين . ثم يبكيان أكثر وقتهما . وأما كعب فقد كان جلداً يحسن الاحتمال ، فجعل يخرج ويغدو على الأسواق ويحتمل جفوة الناس متأذياً بها ، كأنه يبالغ فى تأديب نفسه بالعقاب الذى فرض عليه . وهو يذهب إلى ابن عم له من أصحاب النبي فينشده الله ثلاثاً : أيعلم من أمره أنه محب لله ورسوله ؟ فيسكت عنه ابن عمه حتى إذا ألح عليه كعب فى المسألة أجابه بهذا الجواب اللاذع الممض : الله ورسوله أعلم . وما كان له أن يجيب بغير هذا فالنبي غاضب على هؤلاء الثلاثة وغضبه من غضب الله . ثم كان كعب يذهب إلى المسجد ويشهد صلاة المسلمين ويصلى بعض النوافل قريباً من مجلس النبي ، ليرى أينظر النبي إليه أم يعرض عنه . وإذا هو يستكشف أن النبي ينظر إليه حين يقبل على صلاته . فإذا نظر إلى النبي أعرض النبي عنه ، ولكن النبي يرسل إليه ذات يوم وإلى صاحبيه من يبلغهم أن النبي يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم .

وليس فى هذا شىء من الغرابة . فنساؤهم مؤمنات وقد صدر الأمر إلى المؤمنين باعتزالهم ، فليعتزلهم نساؤهم أيضاً . فأما كعب فقد أرسل زوجه إلى أهلها حتى يقضى الله فى أمرهم . وبعد أن مضت عليهم خمسون ليلة فى هذه العزلة ، وقد أخذ الندم من قلوبهم أقوى مأخذ ، أنزل الله توبته عليهم فى الآيتين الكريمتين اللتين أثبتناهما منذ حين . وابتهج المؤمنون كلهم لذلك ، فكانوا يهنئون هؤلاء الثلاثة بتوبة الله عليهم . وقد فرح كعب بهذه التوبة فرحاً لم يفرح مثله لشىء قبلها ، وهمّ أن يتصدق بماله كله ، فانظر إلى النبى يرفق به ويقبل منه الصدقة فى وقت واحد . فيأمره أن يمسك بعض ماله ليعيش منه وينفق على أهله ، وأن يتصدق بسائره . فأمسك سهمه من خيبر وتصدق بما عداه .

وعاهد النبى على ألا يتكلف ولا يكذب متعمداً فى حديث حتى يموت .

وتبلغ روعة هذه القصة أقصاها حين تقرأ فى سورة التوبة تعذير الله للمتخلفين من المنافقين ، بين أهل المدينة ومن حولها من الأعراب . فترى شدة هذا التعذير وعنفه ، وتقرأ قصة هؤلاء الثلاثة فترى كيف نزلت عليهم رحمة الله كما ينزل الغيث على الأرض الميتة فيحييها بعد موتها .

وقد صورنا لك فى كثير جداً من الإيجاز مكان النبى بين أصحابه بشيراً ونذيراً ، وشاهداً وداعياً إلى الله بإذنه ، ومفقهاً للمؤمنين فى دينهم ، ومعلماً لهم فى عظائم أمورهم ودقائقها .

فلا غرابة فى أن تكون السنة هى الأصل الثانى بعد القرآن الكريم ، من الأصول التى تبنى عليها حياة المسلمين . فكل ما يعرض للمسلمين

من الأمر فى حياتهم من المشكلات يجب عليهم أن يردوه إلى الله ورسوله . يلتمسون له الحل فى القرآن ، فإن وجدوا هذا الحل فهو حسبهم ، وإن لم يجدوه فعليهم أن يلتمسوه فى سنة النبى ، فيما صحت به الرواية عنه من قول أو عمل . ذلك أن النبى لم يكن ينطق عن الهوى وإنما كان يعلم الناس مما علمه الله ، ويعلمهم فى أكثر الأحيان عن أمر الله له بتعليمهم ويستشيرهم فيما لم يعلّمه الله من الأمر ويقبل مشورتهم . فإذا التُمس حل المشكلات فى القرآن فلم يوجد، والتُمس فى السنة فلم يوجد ، فالمسلمون يرجعون إلى أصل ثالث من أصول الأحكام فى الدين ، وهو إجماع أصحاب النبى . ذلك أن أصحاب النبى إن أجمعوا على شى فأكبر الظن أنهم لم يجمعوا عليه إلا لأحد أمرين : فإما أن يكونوا قد عرفوا من قول النبى أو عمله ما لم يصل إلينا ، وإما أن يكونوا قد اجتهدوا رأيهم واختاروا لأنفسهم ، وهم خيار المسلمين وهم قدوة لهم ، ولا سيما قبل أن ينجم بينهم الخلاف وتفسد الفتنة عليهم كثيراً من أمرهم . فإن لم يجد المسلمون فى القرآن ولا فى السنة ، ولا فيما أجمع عليه أصحاب النبى ،حلا لبعض مشكلاتهم فعليهم أن يجتهدوا رأيهم ، ناصحين لله ورسوله وللمسلمين .

٤

وأمر السنة بعد ذلك مختلف عن أمر القرآن أشد الاختلاف ، ذلك أن القرآن قد وصل إلينا متواتراً مجمعاً عليه ، من أجيال المسلمين منذ حياة النبي إلى الآن ، وإلى آخر الدهر ما بقي في الأرض مسلمون . توارثته الأجيال كما تلاه النبي ، وكما كتبه عنه كتّاب الوحي وكما جمع أيام أبي بكر ، وكما نسخ في المصاحف أيام عثمان ، وعلى ما كان بين المسلمين من اختلاف وانقسام وافتراق إلى فرق متباينة في الرأى ، من خوارج وشيعة وجماعة ، ثم على ما كان من الاختلاف بعد ذلك بين المسلمين في أصول الدين وفروعه وانقسام المتكلمين في الأصول إلى الكثرة المعروفة ، وانقسام الفقهاء وأصحاب الفروع كذلك إلى شيع تتباعد حيناً وتتقارب حيناً ، وعلى ما نزل بالمسلمين من الأحداث وما تتابع عليهم من الخطوب ، وما كان من تنقل الحكم فيهم بين الأحزاب أولا وبين الأمم والأوطان ثانياً .

على هذا كله ظل القرآن كما هو ، لم يختلف المسلمون في نصه ، فهو باق على الدهر لا يضره أن يختلف المسلمون في فهم نصوصه وفي تأويلها ، ولا كذلك السنة لأن النبي لم يأمر بكتابتها بل يروى أنه كان يكره ذلك . فالاعتماد في روايتها على الذاكرة ، وعلى ذاكرة الصالحين من المؤمنين . وكان أصحاب النبي يتشدد أكثرهم في رواية الحديث عن النبي ، بل كانوا لا يقبلون حديثاً عن النبي إلا أن يشهد اثنان من

عدول المسلمين أنهما سمعاه من النبي أو رأياه يعمله . وكان عمر رحمه الله أشد الخلفاء فى ذلك ، فكان ينذر من يتحدث عن النبى بالعقاب إلا أن يأتى بعدل من المسلمين ، يشهد معه بأنه سمع من النبى أو رأى منه مثل ما يروى المتحدث ، هنالك كان عمر يقبل الحديث ويعمل به .

ولكن الأمور لم تمض على ذلك دهراً طويلا ، فلم تكد الفتنة تظل المسلمين حتى اشتد الخلاف بينهم ، وجعل بعضهم يكفر بعضاً وجعلت الأحزاب على مر الزمن تكثر الحديث عن النبي يريد كل حزب أن يثبت أنه أشد استمساكاً بسنة النبي من غيره ، ونشأ القصّاص الذين كانوا يجلسون لوعظ الناس مرغبين ومرهبين ، فأكثروا من الحديث وأضاف كثير منهم إلى النبي ما لم يقل يرغبون فى فضائل الأعمال وينفرون من سيئاتها ولا يجدون حرجاً فى أن يضيفوا إلى النبى ما لم يقل ما داموا لا يريدون إلا النصح للمسلمين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنبي أول ناصح للمسلمين ، وأول آمر بالمعروف وناه عن المنكر ، فكل أمر بالخير أو نهى عن الشر يمكن عند كثير من القُصّاص أن يحمل على النبي . ثم نشأ الأشرار من المتكلفين وذوى النيات السيئة فأسرفوا فى رواية الحديث وأكثروا من الكذب وعرف ذلك خيار المسلمين فأخلصوا أنفسهم لتصحيح الحديث ، وتنقيته من كل مكذوب أو مشكوك فى كذبه . وذهبوا فى ذلك مذاهبهم المعروفة ، فجعلوا يتتبعون رواة الحديث ينقدون حياتهم ويتحرون أمرهم ، فمن وجدوا فيه مطعناً بالكذب ، أو الانحراف عن العدالة فى السيرة ، أو ضعف الذاكرة أو قلة التثبت مما يروى ، أو الأخذ عمن لا يصح الأخذ عنه ، أعرضوا

عنه ونبذوا حديثه ، ونبهوا على ما فيه من علة ، حتّى نشأ عند المحدثين علم خاص بتصحيح الحديث .

وعلى رغم هذا كله ظل من الواجب على كل مسلم ، حين يُروى له الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يحتاط قبل الأخذ به ، وأن يعرضه على القرآن ، فإن كان لا يناقض القرآن فى قليل ولا كثير ، ولا يناقض المألوف من سيرة النبي وعمله ، أخذ به وإلا وقف فيه .

وكذلك كان يفعل الصالحون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل لعائشة — رحمها الله — إن بعض أصحاب النبي يروى عنه أنه قال إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . فأنكرت هذا الحديث وقالت : اقرءوا قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ . وقيل لها : إن بعض أصحاب النبي يزعمون أن النبي رأى ربه . فأنكرت هذا أشد الإنكار وقالت لمحدثها : اقرأ قول الله عز وجل : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

وقد رأيت كيف كان عمر يتشدد فى رواية الحديث . فليس بد إذن كما قدمنا من الاحتياط فى قبول الحديث ، حتّى حين يرويه المصححون من المحدثين .

ولا بد من أن نلاحظ أن بعض أعمال النبي قد وصلت إلينا متواترة لا معنى للشك فيها . فقد علمنا بالتواتر أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى الصبح ركعتين ، والظهر والعصر والعشاء كل منها أربع ركعات ، والمغرب ثلاث ركعات .

وعلمنا أنه كان يركع مرة فى كل ركعة ، ويسجد مرتين فى كل ركعة ، ويجلس بعد كل ركعتين . كل هذا فى الفرائض المكتوبة ، فلا معنى للجدال فى ذلك . وعلمنا كذلك ما بيّن من نصاب الزكاة وما فرض فيها . وعلمنا من القرآن ومن السنة العملية كيف كان يصوم ، وكيف اعتمر وكيف حج ، فجملة أركان الإسلام ثابتة بالقرآن أولا ، وببيان النبى العملى لها ثانياً.

وكثير من أعمال النبى وصل إلينا على نحو يقطع الشك ، فقد عرفنا كيف كان يصلى صلاة العيدين ، وكيف كان يصلى للاستسقاء ، ولما يعرض من كسوف الشمس وخسوف القمر.

فجملة الأصول وتفصيلها بمعزل عن الشك ، وإنما يكثر الشك ويختلف قوة وضعفاً فى بعض الفروع ، وفيما يتصل بالترغيب فى الفضائل وفى التنفير من الشر ، ولا سيما أن بعض أئمة الحديث — كأحمد بن حنبل رحمه الله — كانوا لا يرون بأساً برواية الحديث الضعيف ، إذا كان متصلا بالفضائل .

ومهما يكن من شىء فالقرآن جامع لما يحتاج إليه المسلمون من أصول الدين وأكثر فروعه ، والسنة الثابتة تفصل مجمله وتبين ما يحتاج منه إلى البيان . فليس على خلاصة الإسلام وأصوله بأس من ضعف الضعفاء، وكذب الكذابين ، وزيغ الزائغين .

٥

وكذلك استقامت للمسلمين حياتهم صافية نقية مبرأة من الاختلاف والتنازع ، كأصفى وأنقى وأصدق ما تكون الحياة ، كان النبي بين أظهرهم يردون إليه أمرهم كله ؛ فيعلمهم مما علمه الله ، فإذا جاءه من أمرهم ما ليس عنده علم فيه رده هو إلى الله عز وجل ، فلا يلبث أن يأتيه الخبر اليقين من السماء . فلم تتصل الأرض بالسماء قط كما كانت متصلة أثناء حياة النبي . ومن أجل ذلك كان كعب بن مالك وصاحباه مشفقين من أن يعتذروا إلى النبي بغير الحق ، فيكذبهم الله بقرآن يتلى على الناس ، أو بوحي يلقى إلى النبي فيتحدث به إلى أصحابه . ومن أجل ذلك أيضاً أنبأ الله نبيه أثناء غيبته عن المدينة بكل ما كان المنافقون يعملون ويقولون . وأنبأه كذلك بأنهم سيعتذرون إليه وإلى أصحابه من تخلفهم حين يرجعون إليهم ، وأمره أن يقول لهم لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم . وذلك فى قوله عز وجل فى سورة التوبة :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ . قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قدْ نَبَّأَنا اللهُ مِنْ أَخْبارِكم ، وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُه ثُمَّ تُرَدُّون إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾ .

وكثيراً ما كان المسلمون يعرضون على النبي بعض أمرهم ، فيقول لهم أحياناً : ما عندى فى هذا شيء ، ثم لا يلبث أن يدعو من عرضوا عليه

الأمر فينبئهم بحكم الله فيه. وأحياناً يظهر الإعراض عن سائليه بأنه لم يأته علم من الله بما سألوه عنه، ثم ينزل القرآن فيقضى فيهم بحكم الله، كما كان من أمر ذلك الرجل الذى زعم لرجل من أصحاب النبى أنه وجد عند أهله غيره ولم يدر ماذا يصنع، وأشفق أن يقتله فيقتل به. فكلف صاحبه ذاك أن يسأل النبى فى أمره. وذهب صاحبه فسأل النبى، فأعرض عنه وأظهر الكراهة للسؤال. وقص الرجل على صاحبه ما رأى من كراهية النبى للمسألة، فأبى الرجل إلا أن يسأل النبى ففعل، وأجابه النبى بأن الله قد أنزل فيه وفى صاحبته قرآناً، وأمره أن يدعو صاحبته. فأنفذ فيهما ماقضى الله بالآية الكريمة من سورة النور: ﴿ والَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ ولَمْ يَكُنْ لهُمْ شُهَدَاءُ إلاَّ أنْفُسُهمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهادَاتٍ باللهِ إنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. والخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إنْ كانَ مِنَ الكَاذِبِين. ويَدْرَأُ عَنْها العَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهادَاتٍ بِاللهِ إنَّهُ لَمِنَ الكاذِبِين والخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْها إنْ كَانَ منَ الصَّادِقين ﴾.

ولست أعرف أبلغ من قول أم أيمن، حين كلمت فى بكائها بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، فقالت: إنها إنما تبكى لانقطاع خبر السماء. ذلك أن وفاة النبى قطعت عن المسلمين هذا الخبر حقًّا. فلم يكن وحى بعده. ولم يكن للذين قاموا بأمر المسلمين من الخلفاء إلا أن يصرفوا الأمور بما نزل من القرآن، وبما ثبت لهم من حديث النبى، بسماعهم هم أو سماع العدول من أصحابهم.

وقد ظلت حياة المسلمين نقية صافية أيام أبى بكر — رحمه الله —

كدرتها ردة العرب . فلما قمعت ثورتهم ، وعادوا إلى ما كانوا عليه أيام النبي من الطاعة فى كل ما أمر الله ، برئت حياة المسلمين من الشوائب ، ورمى بهم أبو بكر الشام والعراق ، ثم جاء عمر — رحمه الله — بعد أبي بكر فاشتد إلى أقصى حدود الشدة فى المحافظة على صفاء الحياة الإسلامية ونقائها ، على نحو ما كانت عليه أيام النبي وأبي بكر، وبذل فى ذلك من الجهد فى دقيق الأمور وجسامها ما لم ينسه التاريخ بعد ، وما أرى أنه سينساه آخر الدهر . ذلك أن المشكلات الجسام التى عرضت للمسلمين فى حياة عمر كانت جديدة كل الجدة ، لم يعرض مثلها ولا شىء قريب منها أيام النبي وأيام أبي بكر . فقد كانت غزوات النبي على خطرها يسيرة بالقياس إلى فتح بلاد الفرس ، واقتطاع الشام ومصر من بلاد الروم . وكانت الغنائم التى تتاح للمسلمين أيام النبي شيئاً لا يكاد يقاس إلى ما أتيح لهم من الغنائم أيام عمر . فكان من أيسر الأشياء أن ينفذ النبي فيها حكم الله الذى بينه فى سورة الأنفال :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فكانت الغنائم تجمع للنبي فيحتجز منها الخمس ، ينفق منه على ما بين الله فى الآية الكريمة ، ويقسم سائرها على المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان .

ومع أن الأمانة أيام النبي كانت كأقوى ما يمكن أن تكون فى قلوب المسلمين ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما ينهى عن الغلول ، ويخوف منه أشد التخويف وأهوله . وأنزل الله فى الغلول قرآناً ، فقال فى سورة آل عمران : ﴿وَما كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وهمْ لا يُظْلَمُون . أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ كمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ومَأْواهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصِير﴾ .

ومع هذا كله فقد غل بعض الناس من الغنائم أيام النبي ، فذكر الرواة أمر ذلك الذى قُتل بخيبر ، فجعل الناس يتباشرون له بالشهادة أمام النبي ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الشملة التى غلها لتشتعل حوله ناراً . أو شيئاً بمعنى ذلك .

قال الرواة فقام رجل فجاء بشراكين فألقاهما وكان قد احتجزهما . فلما سمع ما سمع من النبي خاف فردهما .

كذلك كانت أمور الجهاد والغنائم أيام النبي ، وأين هذا مما عرف المسلمون فى حروبهم مع الفرس والروم ، وفيما ملئوا به أيديهم من الغنائم التى لا يكاد المؤرخون يحسنون تصويرها ولا إحصاءها .

وجيوش المسلمين بعيدة عن مركز الخلافة بعداً شديداً ، والخليفة قارٌّ بالمدينة لا يرى ما يصنع المسلمون بعد أن ينزل الله نصره عليهم ، وإنما تأتيه أنباء النصر وترسل إليه أخماس الغنائم . فيقسمها على من حضره من المسلمين ، وينفق منها على نوائب الأمة .

والمسلمون فى تلك الأيام لا يغنمون الأموال التى تنقل فحسب ، وإنما يغنمون الأرض التى تفتح وما عليها من العقار ، وكل ذلك بعيد عن الخليفة ، وأموره معقدة أشد التعقيد . فالغنائم التى تنقل يمكن أن تخمس ويرسل خمسها إلى الخليفة . ويقسم سائر أخماسها على الجند . ولكن الغنائم الثابتة ماذا يصنع بها قائد الجيش ، لا يستطيع أن ينقلها ولا أن يقسمها ؛ ولا يستطيع الجند إن قسمت فيهم أن يقوموا عليها ، فهم لم يرسلوا ليكونوا زراعاً ، وإنما أرسلوا للحركة المتصلة ، لا تفتح عليهم مدينة إلا تجاوزوها إلى غيرها . فكل هذا كان جديداً بالقياس إلى الخلفاء.

ولم يكن بُد لعمر من أن يضع نظاماً يحصر هذه الغنائم ويكفل القيام عليها ، ويكفل حقوق الجند فيها . وهذه الجيوش التى ترسل تباعاً إلى الأرض البعيدة فى الشرق والغرب ، لم يكن بد من تهيئتها للحرب قبل أن ترسل ، ولم يكن بد من إمدادها بكل ما تحتاج إليه بعد إرسالها . ولم يكن بد من حكم المدن والأقاليم التى تفتح ، ومن نشر الإسلام فيها ، وأن يجرى الحكم فيها على ما أمر الله أن تجرى عليه الأحكام إلى غير ذلك من المشكلات التى لا تحصى ، والتى جعلت تظهر ويتبع بعضها بعضاً كلما أمعن المسلمون فى الغزو وأبعدوا فى الأرض ، وقد جد عمر — رحمه الله — فى حل هذه المشكلات وتدبر أمور هذه الدولة الناشئة ، التى كانت تكبر وتتسع رقعتها ، وتزداد مشكلاتها يوماً بعد يوم .

وقد وفق عمر إلى كل ما حاول من حل المشكلات وتدبير الأمر ، وحكم الأقطار البعيدة عنه والقريبة منه ، توفيقاً لم يكن ينتظر من رجل من أهل مكة لم يعرف من أمور الدنيا إلا أيسرها ، ولم يبل شؤون الحكم قبل

خلافته . وهو بعد ذلك يحكم أمماً ليست على حال العرب من البداوة ، وإنما هى متحضرة ممعنة فى الحضارة ، قد عرفت من أنظمة الحكم ضروباً وألواناً.

وما رأيك فى خليفة ينبئه أحد عماله بأنه قد حمل إليه خمسمائة ألف من الدراهم ، فلا يصدقه وإنما يظن به الجهد والإعياء ، ويأمره أن يذهب فيستريح ، ثم يأتيه من غد . فإذا جاءه من الغد وأنبأه بما حمل إليه من المال صعد المنبر وأعلن إلى الناس : أن قد جاءه مال كثير ، فإن شاءوا كاله لهم كيلا ، وإن شاءوا هاله لهم هيلا ، كل ذلك لنصف مليون من الدراهم ، فكيف به حين جاءته الملايين الكثيرة والعروض المختلفة التى لا تكاد تحصى . وإذا كان النجح قد أتيح لعمر ، لما آتاه الله من عبقرية ، فهو كذلك قد أتيح لقواده الذين فتحوا الأرض ، وعماله الذين حكموا الأقاليم ، وكلهم كان كهيئة عمر لم يبل من الحرب إلا أيسرها وأهونها شأناً ، ولم يعرف من شؤون الحكم إلا أدناها إلى السذاجة البدوية ، فكيف بهم حين حكموا الشام ومصر والعراق وفارس . وأتيح هذا النجح أيضاً للجند الذين قهروا أعظم دولتين فى الأرض حين ذاك : دولة الفرس ودولة الروم . وهم لم يعرفوا قط من شؤون الحرب إلا ما كانوا يألفون من هذه الحرب الأولية ، التى كانت تثار بين القبائل . لم يعرفوا الجيوش الضخمة ، ولا أداة الحرب التى ابتكرتها الحضارة ، ولا حصار المدن ولا اقتحامها ؛ وهم مع ذلك قد انتصروا أى انتصار . ونشروا لواء الإسلام فى أقطار الأرض شرقاً وغرباً ، وأزالوا من الأرض دولة عظيمة لم تستطع جيوش روما ولا جيوش قسطنطينية أن تزعزعها ، وهى دولة الفرس الساسانيين .

وقد عرفت أن أكثر هؤلاء الجند كانوا قد ارتدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام مع قبائلهم . وأبوا أن يؤدوا الزكاة حتى قاتلهم عليها أبو بكر ،فانظر إليهم بعد أن عادوا إلى الإسلام كيف أحسنوا فى سبيله البلاء . وكيف جاهدوا فأمعنوا فى الجهاد وكيف صبروا فأبلغوا فى الصبر ، وكيف جنوا نتيجة هذا كله نصراً مؤزراً .

وما أشك فى أن القرآن هو المؤثر الأول فى هذا كله . كانوا يقرءونه أو يقرأ عليهم فيملأ نفوسهم روعة ، وقلوبهم إيماناً ، ويدفعهم هذا كله إلى أن يفعلوا الأعاجيب ، وإلى أن يتيحوا لقائد من قوادهم — هو خالد ابن الوليد — أن يكتب إلى بعض محاربيه حين دعاهم إلى الإسلام أو إلى الخضوع وأداء الجزية ، ثم قال لهم بعد ذلك : فإن أبيتم فإنى قد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . واقرأ إن شئت حديث الفتح فى كتب التاريخ ، وفى تاريخ الطبرى خاصة ، فسترى فيما تقرأ من العبر والعظات والأعاجيب ما يقنعك بأن بلاء المسلمين فى تلك الحروب ، وما أتيح لهم من الظفر ، إنما كان نتيجة لأثر الإسلام والقرآن خاصة فى نفوس أولئك المجاهدين .

وانظر إليهم حين يتلو عليهم القاص الذى كان يطوف على الجنود ، فيعظهم ويحمسهم للحرب حين يتهيئون للقاء العدو .

انظر إليهم حين يتلو عليهم هذه الآية الكريمة ، من سورة التوبة مثلا : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ المدِينةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللهِ ولا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِك بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ

ظَمَأٌ ولاَ نَصَبٌ ولاَ مَخْمَصَةٌ فِي سبيلِ اللهِ ولاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفَّارَ ولاَ يَنالونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لهم بِهِ عمَلٌ صالحٌ إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المُحْسِنِين ﴾ .

فأى غرابة فى أن تملأهم هذه الآية ، وأمثالها من آيات القرآن الكريم . ثقة وأمناً وأملا واطمئناناً إلى أنهم من غير شك ظافرون بإحدى الحسنيين . فإما الانتصار على العدو ، والفوز بما فى أيديهم من الملك وزهرة الحياة الدنيا ، مع الأجر العظيم عند الله ، وهو خير من كل ما ظفروا به ؛ وإما الفوز بنعمة الشهادة والحياة عند الله ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ومستبشرين بالذين لم يلحقوا بهم من بعدهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . كما يقول الله عز وجل فى الآية الكريمة من سورة آل عمران .

وانظر إليهم حين يقرءون أو يتلى عليهم قول الله من سورة الأنفال :

﴿ يـأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبارَ ومَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إلَى فِئَةٍ فقَدْ باءَ بِغَضَبٍ منَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ .

كيف تمتلئ قلوبهم ثقـــة بأنهم حين أزمعوا الخروج للجهاد ، قـــد باعوا الله أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون ، وعداً على الله حقًّا فى التوراه والإنجيل والقرآ ن . كما يقول الله عز وجل فى الآية الكريمة من سورة التوبة : ﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرَى

مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عليهِ حَقًّا فى التَّوراةِ والإنجيل والقرآن . وَمَنْ أَوْفى بعَهْدِهِ منَ اللهِ . فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذِى بايعْتُمْ بهِ وذلِكِ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم ﴾ .

فهم يُقبلون على الجهاد وهم مطمئنون إلى أنهم قد باعوا نفوسهم وأموالهم لله بالجنة . فالموت أحب إلى الصادقين منهم من الحياة ، لأن نعيم الحياة زائل ونعيم الله باق خالد . وكلهم يرهب الفرار من العدو، أكثر مما يرهب الموت ، فهم واثقون بأن أمام الفارين منهم جهنم يُضطرون إليها وبئس المصير . هم بذلك يصدقون ماكتب خالد — رحمه الله — من أن جنوده يحبون الموت كما يحب عدوهم الحياة .

ومن أجل ذلك أقبل بعض قواد المسلمين ، وهو أبو عبيد بن مسعود ، أيام عمر بجنده متعرضاً لعدوه من الفرس فعبر إلى العدو بجيشه نهراً ، وغامر فإذا العدو أكثر منه قوة وأعظم منه بأساً ، وكان يستطيع حين رأى ذلك أن يعبر النهر ويرجع بجنده إلى مواقعهم ، ويلتزم خطة الدفاع أو ينتظر المدد . ولكنه ذكر الآية الكريمة من سورة الأنفال فكره الفرار ، وأقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله ، وامتحن المسلمون فى تلك الوقعة محنة عظيمة ولم ينج من نجا منهم إلا بعد الجهد كل الجهد . و بلغت قصة هذا الجيش عمر — رحمه الله — بالمدينة فبكى واسترحم لقائده وقال : لو انحاز لكنت فئته ، يريد أنه لو رجع واستمد الخليفة لما كان ذلك فراراً ، وإنما هو التحرف للقتال والتحيز إلى من وراءه من المسلمين ، ينصرونه ويمدونه بالقوة والعتاد .

والله قد أذن للمسلمين فى الآية الكريمة ، التى أثبتناها آنفاً من سورة الأنفال ، أن يرجعوا عن العدو متحرفين للقتال أو متحيزين إلى فئة تنصرهم . كذلك كان بلاء المسلمين فى الفتوح ؛ لا يقبلون بلاء أقل منه حتى عاب بعضهم سعد بن أبى وقاص لما عجز عن القتال مع جيشه يوم القادسية ، فأدار الموقعة من حصن كان فيه ، لما أعجزه المرض عن الحركة والخروج ، فقال قائلهم :

ألم تر أن الله أنزل نصره ... وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيم

وكذلك استقامت حياة المسلمين أيام الشيخين : أبى بكر وعمر ، كلاهما ساس الناس كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوسهم أثناء حياته ، والتزم عمر القرآن وسيرة النبي وأبى بكر ورأى الصالحين من الصحابة ، فى حل ما عرض له من المشكلات التى نشأت عن الفتوح واتساع الدولة وانتشار الجيوش وكثرة الغنائم والفىء ، وتنظيم أمور الأرض التى ظهر عليها المسلمون فى البلاد المفتوحة ، فكان كلما عرضت له مشكلة التمس حلها فى كتاب الله ، فإن لم يجد ففى سنة رسول الله وسيرة الخليفة من قبله ، فإن لم يجد دعا أولى الرأى من المهاجرين والأنصار فشاورهم حتى يجد الحل للمشكلة أو المشكلات التى عرضت له .

وكان تفوق عمر فى جهاده نفسه حتى قهرها وذللها ، وألزمها سيرة النبي وأبى بكر ، من الزهد والقناعة ، ومن الصبر والاحتمال ، ومن إيثار المسلمين على نفسه والاكتفاء بما يقيم الأود ، على رغم ما كان يجبى إليه من كرائم الأموال ونفائسها ، وعلى رغم ما كان يغرى الناس من زهرة الدنيا

ونعيمها ، كان تفوق عمر فى جهاد نفسه وقهرها على هذا النحو أروع من تفوقه فيما حاول من إقامة الدولة الناشئة ، ثم كان يشتد على الناس ولا سيما الذين رأوا النبي وصاحبوه ، وعرفوا كيف رفض الدنيا ، وكيف آثر عليها الآخرة . فكان يمسك كبار الصحابة فى المدينة ولا يأذن لهم بالخروج منها . فإذا همّ أحدهم بالجهاد أبى عليه . وقال : قد كان فى جهادك مع رسول الله ما يجزئك . كان يخاف عليهم أن يفتتنوا إذا رأوا الأقاليم التى فتحت على المسلمين . وكان يخاف منهم أن يفتتن الناس بهم فى الأمصار والأقاليم . فكان يمسكهم فى المدينة حماية لهم ولعامة الناس من الفتنة . وكان فى هذا موفقاً أشد التوفيق . وسترى الدليل على ذلك واضحاً حين أذن عثمان لكبار الصحابة بالتفرق فى الأرض ، فكان ذلك من مصادر الفتنة التى حادت بالمسلمين عن الجادة ، وضربت بعضهم ببعض ، وجعلت بأسهم بينهم شديداً ، ثم كان شديداً على قريش خاصة ، وعلى مسلمة الفتح منهم بنوع أخص . كان يعرف ذكاءهم ومهارتهم فى اكتساب المال وإيثارهم للثراء ورغد العيش ، فكان يحميهم من أنفسهم ومن أن يتهافتوا فى النار كما كان يقول .

وكان شديداً على أسرته من آل الخطاب ، يكره أن يغتروا أو أن يغتر الناس بأنهم رهط أمير المؤمنين . ثم كان شديد المراقبة لأهل المدينة ومن حولها ، يريد أن يعرف من قرب حاجاتهم وأن يبلغ من رضاهم ما يستطيع ، ولم يعرف المسلمون خليفة كان أشد منه على ولاته فى الأقاليم يدعوهم إلى لقائه فى الموسم من كل عام ، ويدعو مع كل واحد منهم ذوى الرأى فى إقليمه . فإذا التقوا فى موسم الحج سأل الولاة

عن رعيتهم وسأل الرعية عن ولاتها . وكان كثيراً ما يبرأ إلى الله مما يمكن أن يتورط الولاة فيه من جور أو خطأ أو تقصير ، ولذلك كانت نكبة المسلمين بقتله حين قتل أعظم وأكبر من أن توصف . وما أشك فى أن عمر — رحمه الله — لو مدت له أسباب الحياة لأقام الدولة الإسلامية على أسس تعصمها من التفرق والانقسام . ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً .

وولى أمور المسلمين بعده عثمان ، فاستقامت له الأمور أعواماً فيها رضى عن الناس ورضى الناس عنه ، ومضت جيوش المسلمين فى الفتح شرقاً وغرباً . ولكنه وسع على الناس فأسرف الناس على أنفسهم ، ولان لقريش فطمعت فيه قريش . ووصل بنى أمية رهطه فأغراهم بالغنى ، وفتح أمامهم أبواب الطمع واسعة حتى طمعوا فيه هو فاستأثروا به . وتسلطوا عليه حتى غلبوا على أمره كله . فجعلوا يولون ويعزلون والخليفة يقر ما يفعلون .

وكان عثمان حين ولى الأمر قد تقدمت به السن فبلغ السبعين أو جاوزها . فلم يلبث أن ضعفت مقاومته للطامعين من قريش عامة ، ومن بنى أمية خاصة .

وما هى إلا أن تنتشر فى الأقاليم كلمة السوء ، فيفتن الناس بمن رأوا من كبار الصحابة ، كطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام . ويعسف الولاة فتظهر الفتنة ولا تلبث الأقاليم والأمصار أن تنكر من أمور الحكم أشياء ، وتنتهى أمور الأقاليم إلى الثورة ، وإذا الجنود تأتى من البصرة والكوفة ومصر ، فيشكون ، ويحتال بعض الصحابة — وعلى خاصة —

فى أن يأخذ لهم الرضى من عثمان ، وتوشك الأزمة أن تنحل ولكن البطانة من بنى أمية ينقضون ما أبرم الخليفة ويغرون بعض الولاة برعيتهم سراً ، ويستكشف الثائرون هذا الإغراء الذى ختم بخاتم الخليفة عن غير علم منه ، فيرجعون إلى المدينة ويحتلونها ثم يحاصرون الخليفة فى داره ، وما يزالون على حصارهم حتى يتسوروا الدار ويقتلوا الخليفة فى النهار المبصر .

وبمقتل عثمان — رحمه الله — تفتح أبواب الفتنة على مصاريعها وليس من شك فى أن السخط على حكم عثمان لم يكن مقصوراً على الأمصار والأقاليم ، بل كان فى المدينة نفسها منكرون لنظام الحكم ضائقون بغلبة بنى أمية للخليفة على أمره . وكان من أهل المدينة مشنعون على عثمان ومشهرون به . فلما قتل عثمان حكم الثوار المدينة حكماً عسكرياً أياماً حتى دفن الخليفة سراً بليل .

ثم أقبل الناس على على رحمه الله فبايعوه ، بايعه أكثرهم عن رضى ، وبايعه بعضهم عن كره ، وأبى معاوية فى الشام أن يؤمن لهذه البيعة ، وذهب فريق من أصحاب النبي إلى البصرة مغاضبين ، على رأسهم أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام . وكلاهما من كبار الصحابة ومن رجال الشورى الذين اختاروا عثمان للخلافة ومن العشرة الذين توفى النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وبشرهم بالجنة . واعتزل فريق من المهاجرين والأنصار أمر الناس فلم يشاركوا فى الفتنة وكان منهم سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر من أكابر قريش وكان سعد من العشرة الذين بشروا بالجنة ، وهو القائد المظفر الذى أبلى أحسن البلاء فى فتح بلاد الفرس . وقد جىء به ليبايع علياً

فأبى البيعة وقال لعلى : ما عليك منى من بأس . فأمر علىّ بتخليته وكفله هو . وجىء كذلك بعبد الله بن عمر فأبى أن يبايع فأمر علىّ بتخليته وقال له بين الجاد والمازح : ما علمتك إلا سيئ الخلق .

ولم تتم البيعة لعلى حتى نظر فإذا هو بين عدوين : أحدهما بالبصرة يرأسهم طلحة والزبير وعائشة والآخر بالشام يرأسهم معاوية بن أبى سفيان . فلم ير بدًّا من أن يقاتل هذين الفريقين ليردهما إلى الطاعة ولتجتمع كلمة المسلمين بعد أن تفرقت . فيعودوا أمة واحدة كما كانوا أيام النبي وأيام الشيخين أبى بكر وعمر . ولا بد من الاعتراف هنا بأن عليًّا — رحمه الله — لم يبدأ بحرب قط إلا بعد أن دعا إلى الصلح ورغّب فيه وألح فى الدعوة وحاج مخاصميه حتى أظهر عليهم حجته وأثبت فى وضوح لا لبس فيه أنه لم يشارك فى قتل عثمان ولم يظاهر عليه ، وإنما نصح له ما استطاع النصح ، ورد الثائرين عن المدينة وكاد يحسم الفتنة لولا غدر بنى أمية من بطانة الخليفة . وأنه كذلك حاول أن يعين عثمان وأن يحميه من الثائرين به والذين ظاهروهم عليه . ولكن خصوم علىّ كانوا حراصاً على الحرب يظهرون المطالبة بدم عثمان ويطلبون أن يسلم إليهم علىّ من قتل عثمان أو شارك فى قتله وكان علىّ يأبى إلا أن ينفذ حكم الله على وجهه ، فيخضع الناس قبل كل شىء لإمام واحد ثم يحتكمون إليه فى قتل الخليفة المقتول . فيقيم حد الله كما ينبغى أن تقام الحدود ، فى ظل النظام والأمن لا فى ظلمة الفتنة والانقسام.

وكذلك لم يجد علىّ بدًّا من الحرب بعد أن بذل الجهد كل الجهد فى الإصلاح بينه وبين طلحة والزبير وعائشة ومن تابعهم من أهل

البصرة . فكان يوم الجمل الذى عظمت فيه المحنة على المسلمين وقد اقتنع الزبير بن العوام — رحمه الله — بخطئه فرجع عن الحرب ولكنه قتل غيلة فى طريقه إلى الحجاز .

ومضى طلحة فى القتال حتى قتل غيلة هو الآخر أثناء الموقعة ، رماه رجل من بنى أمية — هو مروان بن الحكم الذى أفسد على عثمان أمره كله فقتله .

ويقول الرواة إن طلحة نقل من مصرعه ودمه ينزف ، وهو يقول : اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى . فقد اعترف هو أيضاً بخطئه قبل أن يموت . وثبتت عائشة فى هودجها على جملها ذاك الذى قتل حوله من المسلمين عدد غير قليل . وكان من خيارهم محمد بن طلحة بن عبيد الله ، قتل وهو آخذ بزمام الجمل ، وقال قاتله :

وأشعث قوام بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شققت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم
يذكرنى حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حميم قبل التقدم
على غير شىء غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يندم

وصرع عبد الله بن الزبير فلم ينج إلا بعد مشقة وجهد . وكان المسلمون يقتتلون حول الجمل وعائشة تحمس أهل البصرة للقتال ، حتى أشار على بعقر الجمل ، فلما عقر تفرق الناس وانهزم أهل البصرة ونقلت عائشة فى هودجها لم يمسها أذى . وبعد أيام ردها على مكرمة إلى المدينة فقرت فى بيتها الذى ما كان لها أن تفارقه ، بعد أن قال الله

لنساءِ النبي في الآيتين الكريمتين من سورة الأحزاب : ﴿ وَقَرْنَ في بيُوتِكُنّ ولاَ تَبَرَّجْنَ تَبرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولى وأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ وأَطِعْنَ اللهَ ورسُولَهُ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويطهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ، وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى في بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والحِكْمَةِ إن اللهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيرًا ﴾ .

وأقام على بالبصرة حتى ضبط أمرها ، ثم عاد إلى الكوفة فأقام فيها وجعلها عاصمة للخلافة . وأكبر الظن أنه نقل عاصمة الخلافة إلى الكوفة ليعصم المدينة من أن تكون دار حرب ، فهو قد كان يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، وأعلن أن من أحدث في المدينة حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا .

وجعل عليّ يسفر إلى معاوية من الكوفة . يعرض عليه الطاعة ويدعوه إلى الصلح ، وإلى جمع كلمة المسلمين وحقن دمائهم والدخول فيما دخل فيه الناس . وكان المسلمون قد قبلوا بيعة عليّ في جميع أقطار الأرض الإسلامية شرقاً وغرباً ، إلا الشام فقد أقام معاوية في دمشق يطالب بدم عثمان ويرفض كل صلح يعرض عليه .

فلم يجد عليّ بدًّا من حربه ، فسار بجيشه حتى بلغ صفين ، فوجد معاوية قد سبقه في أهل الشام إلى الماء . يريد أن يظمئ عليًّا وجيشه . فاقتتل القوم على الماء حتى غلب أصحاب عليّ عليه . ولكن عليًّا رحمه الله أبى أن يظمئ معاوية وأهل الشام ، فتركهم يشربون ويسقون

أنعامهم ، ويأخذون من الماء حاجتهم ، وسعى السفراء بين الفريقين وعلىّ يعرض الصلح دائماً ويظهر حجته وحجة من معه على أهل الشام ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص أبيا إلا القتال فكان القتال ، وجعل المسلمون من الفريقين يتفانون وكانت الحرب سجالا تدور الدائرة على أهل الشام يوماً وعلى أصحاب علىّ يوماً آخر . ولكن عاقبة الحرب كادت تكون لعلى، وكاد جيش الشام يهزم ، وزعم الرواة أن معاوية همّ أن يركب فرسه للهرب ، لولا أنه ذكر شعراً فثبت هذا الشعر قلبه ، وهو هذه الأبيات :

أبت لى عفتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإجشامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح

وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

وقد وجد له عمرو بن العاص مخرجاً من هذا الحرج ، فاقترح أن ترفع المصاحف على الأسنة ، وأن يدعى علىّ وأصحابه إلى كتاب الله يحتكمون إليه ، فيحقون ما أحق ويبطلون ما أبطل . وجازت الحيلة على كثير من أصحاب علىّ ، وعلى أهل اليمن منهم خاصة ، فاستكرهوا عليّاً على الهدنة . وحاول علىّ أن يمتنع عليهم وعرف أنها خدعة ، ولكن أهل اليمن أبوا إلا قبول الهدنة وأنذروا عليّاً ؛ فاضطر كارهاً إلى الإذعان لرأى الكثرة من أصحابه ، وتقررت الهدنة بين الفريقين ، على أن يرسل كل فريق منهما حكماً يرضاه ، وعلى أن يجتمع هذان الحكمان فيقضيان بما قضى به القرآن بين الفريقين المختصمين . واشتد معاوية وأصحابه فى كتاب الهدنة ، فأبوا أن يلقب علىّ نفسه أمير المؤمنين ، واضطر علىّ إلى

أن يمحوها ، وذكر صلح الحديبية حين أبت قريش على النبي فى كتاب الهدنة أن يسمى نفسه رسول الله ، فمحا هذا الوصف واكتفى باسمه . ولست أدرى أتفاءل علىّ حين ذكر يوم الحديبية أم لا . ولكن عاقبة الهدنة على كل حال لم تشبه عاقبة الهدنة التى أمضاها النبى صلى الله عليه وسلم مع أهل مكة ، كانت عاقبة هدنة الحديبية فتحاً قريباً ونصراً مؤزراً ، وكانت عاقبة الهدنة فى صفين فُرقة واختلافاً على علىّ أى اختلاف . وفى هذه المواقع التى كانت بصفين قتلت ألوف كثيرة من المسلمين من أهل العراق وأهل الشام .

وكان بين قتلى أصحاب علىّ عمار بن ياسر الذى كان يقاتل فى حماسة أى حماسة ، وهو شيخ قد بلغ التسعين أو جاوزها . وكان يقاتل عن إيمان أى إيمان بأنه يدافع عن الحق ، وكان يرتجز :

نحن ضربناكم على تنزيله   واليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

وكان يوم قتل يحرض الناس ويقول : من رائح إلى الجنة ؟ اليوم ألقى الأحبة : محمداً وحزبه .

وكان قتل عمار تثبيتاً لعلىّ والصالحين من أصحابه وتشكيكاً لمعاوية ومن معه ، ذلك أن كثيراً من المهاجرين والأنصار قد سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم يقول ، وهو يمسح رأس عمار أثناء بناء المسجد : ويحك يابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية .

وكان رجل من صالح الأنصار ، هو خزيمة بن ثابت يشهد صفين مع علىّ ولكنه لم يكن يقاتل كأن قلبه لم يخل من بعض الشك . فلما رأى مقتل عمار بسيوف أهل الشام قال : الآن ظهر الحق . وقاتل حتى قُتل .

فأما معاوية وعمرو بن العاص فما أسرع ما وجدا مخرجاً من هذا الحرج ، فقالا : لم نقتله وإنما قتله الذين جاءوا به إلى الحرب . وأذاعا مقالتهما هذه فى أهل الشام ، تثبيتاً لقلوب الذين أدركهم شىء من الشك والقلق .

ورجع علىّ إلى الكوفة مرجعاً لم يكن ينتظره ، ذلك أن جيشه اختلف عليه ، رضيت كثرة الجيش بالهدنة وفرضت على علىّ أن يقبل اختيار أبى موسى الأشعرى حكماً . وقد اختار معاوية عمرو بن العاص . وأبت قلة من جيش علىّ هذه الهدنة ورأتها مخالفة للقرآن ، فكان الناس يقتتلون ويتضاربون ويتشاتمون فى طريقهم إلى الكوفة ، ثم وصل علىّ إلى الكوفة فلم ير فيها إلا مظاهر الحزن والحداد ، لكثرة من ذهب معه من أهل الكوفة ثم لم يعد بعد أن لقى مصرعه بصفين .

ولم يلبث المنكرون لأمر الهدنة أن نظموا أمرهم وخرجوا من الكوفة أرسالا ، وكتبوا إلى إخوانهم فى البصرة فانضموا إليهم وأعلنوا العصيان ، بل أعلنوا أكثر من العصيان . أعلنوا أن عليًّا وأصحابه ، الذين قبلوا الهدنة ، قد كفروا لأنهم خالفوا عن أمر الله حين قال فى الآيتين الكريمتين من سورة الحجرات : ﴿ وإِنْ طائِفَتَانِ مِنَ المؤْمِنينَ اقْتَتَلوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا . فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا

الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمرِ اللهِ . فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ . إنما المُؤْمِنُون إِخْوَة فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقوا اللهَ لَعَلكم تُرْحَمُون ﴾ .

ولما كان علىّ قد عرض الصلح غير مرة على معاوية وأصحابه فرفضوه ، ثم كانت الحرب بينهم ، فكان يجب على علىّ وأصحابه فيما رأى الخوارج أن يمضوا فى الحرب حتى يقضى الله أمره ، فيحق الحق ويبطل الباطل . ولكنهم لم يمضوا فى الحرب وإنما قبلوا التحكيم فحكموا الرجال فى دين الله ، والله وحده هو أحكم الحاكمين . وما كان ينبغى لعلى وأصحابه أن يضعوا السيوف حتى يفىء معاوية وأهل الشام إلى أمر الله .

ومن هنا اتخذ الخوارج لأنفسهم شعاراً من هذه الكلمة : لا حكم إلا لله . أى لا حكم إلا لله بواسطة الحرب ينصر الحق ويهزم الباطل . وكانوا كثيراً ما يجهرون بدعوتهم هذه فى مسجد الكوفة ؛ وربما قاطعوا بها علياً أثناء خطبته . وكان على يقول : كلمة حق أريد بها باطل . ثم قوى أمر هذه الفئة حين التقى الحكمان فلم يصنعا شيئاً ، إنما اختلفا وتشاتما وافترقا كما التقيا ، لأن عمراً أعلن خلعه لعلى وإثباته لمعاوية ، ولأن أبا موسى زعم أنه كان اتفق مع عمرو على خلع الرجلين جميعاً وجعل الخلافة شورى بين المسلمين . فلم يتحرج عمرو بن العاص من أن يخالف عما تراضى عليه الحكمان . وقد رفض علىّ هذا الحكم طبعاً وقبله معاوية . وعادت الحرب بينهما سيرتها الأولى .

هنالك ازداد الخوارج ثقة بأنهم على الحق ، وبألا حكم إلا الله .

وكثر خروجهم من الكوفة سرًّا حتى أصبح لهم شيء من قوة .

وقد تجهز عليّ مرة أخرى للقاء أهل الشام ، ولكن أشير عليه أن يفرغ من هذه الفئة التي خرجت عليه ، وجعلت تفسد في الأرض وتسفك الدماء ، ترى كل من تبع عليًّا ومعاوية كافراً حلال الدم والمال .

وقد أرسل عليّ إلى الخوارج عبد الله بن العباس ليحاورهم ويحاول إقناعهم بالرجوع إلى الجماعة ، ولكن ابن عباس لم يصنع شيئاً . فذهب إليهم عليّ بنفسه فناظرهم وأقنع كثيراً منهم بالرجوع ولكن آلافاً منهم أبوا عليه فاضطر إلى قتالهم ، فقاتلهم وظهر عليهم . وهمّ بعد ذلك بالمضي إلى الشام ، ولكن المنافقين من أصحابه أشاروا عليه بالعودة إلى الكوفة ليصلحوا من أمرهم بعد هذه الموقعة ، وليذهبوا إلى عدوهم بما ينبغي لهم من العدد والعدة . فعاد بهم إلى الكوفة ولكنه لم يخرج منها : تفرق أصحابه إلى أهلهم وأقبلوا على أعمالهم ، وزهدوا في الحرب حتى أيئسوا عليًّا منهم ، فجعل يدعوهم ويلح في دعائهم ، ولكنهم لا يسمعون منه ولا يستجيبون لدعائه ، حتى قال ذات يوم في خطبة له : لقد أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان حتى قالت قريش : ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم ! ومن يكون أعلم بها مني ؟ ثم أنشد — فيما زعم الرواة — هذين البيتين :

تلكم قريش تمناني لتقتلني ... فلا وربك ما بروا ولا ظفروا

فإن قتلت فرهن ذمتي لهمُ ... بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وكثيراً ما كان علي — رحمه الله — يحرض أصحابه على القتال ويثيرهم إليه ويتهمهم بالجبن تحميساً لهم حتى أنشدهم ذات يوم ذلك البيت القديم :

القوم أمثالكم لهم شعر في الرأس لا ينشرون إن قتلوا

ولكنه — رحمه الله — لم يبلغ من أصحابه شيئاً حتى طمع معاوية وأهل الشام فى العراق وفى جزيرة العرب نفسها . فكان معاوية يرسل الكتائب تغير على أطراف العراق فتقتل وتنهب ، وكان علىّ يرسل فى إثر هذه الكتائب قطعاً من جيشه تردهم عن أطراف دولته .

وقد أسرف معاوية فى ذلك فأرسل بسر بن أرطاة فى جيش إلى الحجاز ، فأفسد فيه كثيراً وأفسد فى اليمن أيضاً واقترف من القسوة ما لم يكن للمسلمين به عهد .

ثم ما زال معاوية بمصر حتى أخذها وقتل والى علىّ : محمد بن أبى بكر ، وأهداها إلى عمرو بن العاص حياته . وقد جعل أمر على يضعف شيئاً فشيئاً ويقوى أمر معاوية بما يتتابع على علىّ من هذا الضعف. ثم كانت الكارثة التى امتحن بها على — رحمه الله — حين خالف عن أمره ابن عمه عبد الله بن العباس والى البصرة ، فأخذ كل ما فى بيت المال وفر به إلى الحجاز ، فأقام بمكة آمناً مغاضباً لابن عمه لعرض من أعراض الدنيا . وأطمع ذلك معاوية فأرسل رسله إلى البصرة فأثاروا أكثر أهلها ، واضطر على إلى أن يرسل إلى البصرة جيشاً يخضعها ويردها إلى الطاعة .

وفى أثناء ذلك عظم أمر الخوارج فأتمر نفر منهم بقتل هؤلاء الثلاثة ، الذين ملئوا الأرض شراً بزعمهم ، وهم : علىّ ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص. ولم يبلغ أربه من هؤلاء الثلاثة إلا صاحب علىّ : عبد الرحمن بن ملجم قتله فى المسجد وهو خارج للصلاة .

وكذلك أصبحت هذه الأمة الإسلامية التى تركها النبى صلى الله عليه وسلم مجتمعة الكلمة ، والتى همت أن تتفرق فردها أبو بكر إلى الوحدة ووجهها إلى الفتح ، والتى قهر بها عمر أعظم دول العصر القديم وتركها مجتمعة الكلمة متحدة الرأى ، أصبحت هذه الأمة منقسمة أشنع انقسام وأبغضه إلى الله ورسوله. نسيت قول الله عز وجل فى سورة آل عمران : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا ﴾. ونسيت قول الله عز وجل فى سورة الأنفال أيضاً : ﴿ ولاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُم ﴾ . ثم نسيت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

نسيت كل هذا واستجابت لفتنة المال وحب السلطان والاستئثار بخيرات الدنيا فضرب بعضها رقاب بعض يوم الجمل ، ويوم صفين ، ويوم حروراء ، وفى تلك الأيام التى كان معاوية يرسل فيها كتائبه لتغير على الآمنين فى المدن والقرى والبوادى أيضاً على نحو ما كانت العرب تفعل فى جاهليتها. وقد صدق على — رحمه الله — فى البيتين اللذين أنشدهما ذات يوم على منبر الكوفة ورويناهما آنفاً وفى الثانى منهما بنوع خاص :

فإن قتلت فرهن ذمتى لهم   بذات ودقين لا يعفو لها أثر

فقد قتل رحمه الله، ومنذ قتله أظل المسلمين شر لم تنقشع سحبه إلى الآن ، فقد انقسمت الأمة إلى فريقين عظيمين : فريق يرى أن علياً هو الإمام الشرعى للأمة وأن الإمامة يجب أن تكون فى ولده ؛ وفريق آخر يذهب إلى ما ذهبت إليه جماعة المسلمين بعد وفاة النبى حين

اختاروا أبا بكر للخلافة، وحين بايعوا بعده عمر لا يرون أن الخلافة تورث فى أهل البيت، وإنما يليها من كان كفئاً لولايتها من صالحى المؤمنين . واشتد العداء بين هذين الفريقين وجعل بعضها يكفر بعضاً . ونجم بينهما فريق ثالث، وهو فريق الخوارج الذين ذهبت ريحهم الآن ، والذين كانوا يكفرون الشيعة والجماعة معاً ويستبيحون دماءهم وأموالهم .

صدق علىّ فى بيته ذاك، وصدق عثمان — رحمه الله من قبله — حين قال لمحاصريه : إن تقتلونى لا تصلُّوا جميعاً أبداً. وقد قتلوه فلم يصلوا جميعاً أبداً ، انقسموا شيعاً وأحزاباً. وكان كل فريق منهم لا يستحل الصلاة مع الفريق الآخر . وكانت الدنيا وزهرتها مصدر هذا الخلاف، ومصدر ما جرى من دماء ، ومصدر ما بقى من آثاره إلى اليوم .

فلولا أن بنى أمية طمعوا فى الدنيا وغلبوا ذلك الشيخ على أمره لما كانت الفتنة بقتل عثمان . ولولا أن معاوية قد كان رجلاً من بنى أمية، طمع كما طمعوا وألف حكم الشام فكره أن يتركه، ثم طمع فى أن يضم إليه سائر أقطار المسلمين ، لما كانت الحرب بينه وبين على ؛ ولولا أن طلحة والزبير طمعا فى الخلافة، أو فى أن يشاركا علياً فيها ، ولولا أن عائشة كانت تكره علياً منذ قصة الإفك، لما كانت الفتنة يوم الجمل .

وقد اجتمعت لمعاوية أقطار البلاد الإسلامية كلها بعد أن صالحه الحسن بن على رحمه الله، فسمى نفسه أمير المؤمنين ، ولكنه لم يسر سيرة من عرفنا من أمراء المؤمنين، وإنما جعل الخلافة ملكاً وأورثها ابنه من بعده ، واستباح أشياء حرمها الله فى القرآن ، فاستلحق زياداً ورغب به عن أبيه ، والله ينهى أشد النهى فى القرآن عن هذا الاستلحاق وأمثاله فى

قوله من سورة الأحزاب : ﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوفِهِ . وما جَعَلَ أزْواجَكُمُ اللاَّئِى تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُم . ومَا جَعَلَ أدْعِياءَكم أبْنَاءَكم . ذَلِكُمْ قَولُكُمْ بِأَفوَاهِكُمْ والله يَقُولُ الحقَّ وهُوَ يَهْدِى السَّبِيل . ادْعُوهم لِآبائِهِمْ هوَ أقْسَط عِندَ اللهِ فإِن لم تَعلَمُوا آباءَهم فإِخْوَانكم فِى الدِّينِ ومَوالِيكمْ وَلَيْس عَلَيْكم جُنَاحٌ فيما أَخطأْتُمْ بهِ ولَكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفورًا رَحِيماً﴾

وكان زياد يعرف أباه عبيداً الرومى حين قبل هذا الاستلحاق، وفرح به . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الاستلحاق وأمثاله حين قال — فيما روى الشيخان — : «ومن ادعى لغير أبيه فليتبوأ معقده من النار» . وحين قال — فيما روى الشيخان — أيضاً : «من رغب عن أبيه فهو كفر» .

ثم تتابع الخروج على الكتاب والسنة ، لأن الإثم يدعو الإثم ، ولأن حب الدنيا لا يقنع صاحبه . فالله قد حرم مكة فى القرآن ، وحرم النبى المدينة فيما روى الشيخان عن على . وقد استباح بنو أمية المدينة ومكة جميعاً . بدأ يزيد بن معاوية فاستباح المدينة وأنهبها ثلاثاً ، وثنى عبد الملك بن مروان فأذن للحجاج فى أن يستبيح مكة، واستباحها الحجاج ففعل فيها الأفاعيل . كل ذلك لتخضع البلاد المقدسة لبنى أبى سفيان ولبنى مروان من بعدهم . واستباح ابن زياد عن أمر يزيد بن معاوية قتل الحسين

وأبنائه وإخوته ، وسبي بنات النبي . وكان من الممكن أن يستجيب ابن زياد للحسين حين سأله أن يسيره إلى يزيد ، ولو قد فعل لعصم أحفاد النبي من هذه المذلة . ولكن الشر يدعو الشر والإثم يستتبع الإثم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له .

وأصبح مال المسلمين ملكاً للخلفاء ، ينفقونه كما يحبون لا كما يحب الله ، وفيما يريدون لا فيما يريد الله من وجوه الإنفاق . فكان معاوية يشترى ضمائر كثير من أهل الكوفة والبصرة ليفسدهم على على ، ثم ظل على ذلك بعد أن استقام له الأمر ، وجعل يتألف قلوب الناس حول عرشه بمال المسلمين ، لا يرى بذلك بأساً ولا يرى فيه جناحاً . ومضى الخلفاء من بنى أمية على سنته فأسرفوا فى أموال المسلمين ، وتجافوا عن سيرة النبي والشيخين من بعده وعلى رحمه الله .

وكان على كثيراً ما يقول لأهل الكوفة : إنى لأعرف ما يصلحكم ولكنى لا أفسد نفسى بصلاحكم . وصدق عمر رحمه الله حين قال : لو ولوها — يريد الخلافة — ابن أبى طالب لحملهم على الجادة . وقد هم على أن يحمل المسلمين على الجادة ، ولكن المسلمين أبوا عليه ، أو أبت عليه ظروف الحياة الجديدة التى أتيحت للمسلمين بعد الفتح من إحياء سنة النبي وصاحبيه . ومن أجل ذلك قال كثير من المتأخرين : إنه رحمه الله لم يكن محسناً للسياسة ، وقصوره فى السياسة هو الذى فرق عنه الناس وعرضه لما تعرض له من القتل .

وما أشك فى أنه — رحمه الله — كان يحسن السياسة كل الإحسان ، وكان جديراً لو اصطنعها أن يجمع إليه الناس ويوحد كلمتهم ، ولكنه

آثر الدين على الدنيا . فلم يشتر ضمائر الناس ، ولم يستبح ما حرم الله ورسوله . وأبى أن يصالح الناس ويفسد نفسه . وذكر أنه سواء مات أو قتل فسيلقى الله وسيحاسب عما عمل فى حياته ، وذكر قول الله للمؤمنين فى سورة المائدة :

﴿ يـأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ . فحرص رحمه الله على أن يهتدى ، وبلغ من ذلك ما أراد ، وفارق الدنيا راضياً مرضياً لم يحتمل خطيئة ولم يقترف إثماً .

٦

وعن انقسام المسلمين إلى هذه الأحزاب الثلاثة : الشيعة والخوارج والجماعة ، لم ينشأ ما أشرنا إليه من الشر المادى فى حياتهم فحسب ، بل نشأ شىء آخر ليس أقل مما ذكر خطراً ، وهو تفرق المسلمين فى الرأى وتفرقهم فى الدين نفسه . فقد جعل بعضهم يكفر بعضاً ، وجعل رأى بعضهم يسوء فى بعض ، حتى لم يأمن خارجى لرجل من الشيعة أو الجماعة ولم يأمن رجل من الشيعة أو الجماعة لخارجى ، ثم لم يأمن رجل من الشيعة لرجل من الجماعة ، ولم يأمن رجل من الجماعة لرجل من الشيعة . فسد رأى بعضهم فى بعض ، وقامت الحياة بينهم على السيف أحياناً وعلى الغش والنفاق أحياناً أخرى . وأصبح شرق الدولة ينكر غربها ويثور به كلما وجد إلى الثورة طريقاً ، وأصبح غرب الدولة يبغض شرقها ولا يظفر بطاعته إلا بالعنف كل العنف والاستبداد كل الاستبداد وأصبح الطغيان أصلاً من أصول الحكم بين الشرق والغرب. فجعل زياد وبنوه يفسدون فى الأرض ليضبطوها لبنى أمية ، وأباح لهم بنو أمية هذا الفساد ، وجاء الحجاج بعد زياد وبنيه فملأ العراق شرًّا ونكراً .

ولم يكف هذا كله بل فسدت الحياة العقلية للمسلمين نفسها ، فهذه الأحزاب المختصمة كانت تقتتل بالسيف حين يتاح لها الاقتتال بالسيف ، وكانت تختصم بالألسنة حين تضطر إلى الأمن والدعة فنشأت المناظرات بين الجماعة والشيعة والخوارج ، وجعلوا يلتقون فى المساجد وفى

مساجد العراق خاصة ليختصموا ، ويحاج بعضهم بعضاً .

وما أسرع ما نشأت الفرقة فى داخل الأحزاب ، فتفرقت الشيعة فرقاً ، وانقسم الخوارج إلى طوائف ، وانشق من الجماعة من انشق وألفوا فرقاً وأحزاباً ، حتى كان بيت الحماسة مصوراً لأمرهم أبرع تصوير ، وهو :

وتفرقوا شيعاً فكل جزيرة   فيها أمير المؤمنين ومنبرْ

وعن هذه المناظرات نشأت الفرق الكلامية ، فللشيعة فرقها ، وللخوارج فرقهم ، ومن الجماعة نشأت المرجئة ونشأت المعتزلة ولم تلبث المعتزلة أن انقسمت فرقاً أيضاً ، وأهل السنة أنفسهم لم يعصموا من هذا التفرق ، فذهب بهم الجدل مذاهبه ، وإذا نحن أمام فرق من المتكلمين تتجاوز السبعين ، كلها يقول : لا إله إلا الله ، فيعصم دمه ونفسه وماله ، وحسابه بعد ذلك على الله ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى بعض الحديث . ولكنهم على ذلك يكفر بعضهم بعضاً ، ويستبيح بعضهم دم بعض ، ويستبيح السلطان امتحان المخالفين له فى المذهب بالفتنة العظيمة والبلاء الشديد . وليس من شك فى أن هذا الجدل والاختلاف وتفرق الرأى قد ملأ الدنيا علماً ، وجعل للأمة الإسلامية تاريخاً فكرياً رائعاً خصباً .

ولكن ليس من شك أيضاً فى أن هذا كله قد ضر الدين أكثر مما نفعه ، وأساء إلى الإسلام أكثر مما أحسن إليه .

وتستطيع أن تتصور هذا فى وضوح حين توازن بين أصحاب النبى ، الذين كانوا يسمعون القرآن وحديث النبى فتصدق عقولهم وتؤمن قلوبهم ،

ولا يخطر لهم أن يجادلوا فيما سمعوا ، لأن القرآن واضح كل الوضوح ، ولأن الحديث الصحيح الذى يثبت عن النبي واضح كل الوضوح أيضاً ، ولأن من سفه النفس وسخف الرأى أن يقول الله أو يقول رسوله فيختصم الناس فيما قال الله ورسوله .

تستطيع أن توازن بين أصحاب النبي الذين سمعوا القرآن ينبئهم بأن الله سميع بصير ، وبأنه عليم حكيم ، وبأنه واحد ، وبأنه قدير ، فلم يخطر لواحد منهم أن يسأل عن هذه الصفات التى وصف الله بها نفسه : أهى زائدة على ذاته أم هى عين ذاته ، كما اختلف المسلمون حين جعل المعتزلة ينكرون أن تكون لله صفات تقوم بذاته ، وإنما صفاته هى ذاته ، وسموا أنفسهم من أجل ذلك أصحاب التوحيد ، وحين جادلهم خصومهم فى ذلك فأكثروا وأسرفوا وسموهم معطلين. وكما اختصموا فى قول الله: ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ،وجعلوا يتساءلون عن هذه اليد التى أضافها الله إلى نفسه ، استعملت فى القرآن مجازاً أم حقيقة . كذلك فى السمع والبصر وما إليهما من الصفات التى ذكرت فى القرآن . وتستطيع كذلك أن توازن بين أصحاب النبي حين سمعوا الله يوعد الكافرين بالعذاب الخالد المقيم . ويعد المؤمنين بالنعيم الخالد المقيم ، ويخوف المذنبين من المسلمين عقابه الشديد ولا يؤيسهم مع ذلك من عفوه ومغفرته ، ويعدهم عفوه ومغفرته إن تابوا وأصلحوا .

سمع أصحاب النبي هذا كله فلم ينكروا ولم يسرفوا فى السؤال ولم يتورطوا فى الجدال ، وسمع المتكلمون ذلك فجعلوا يسألون ، أو جعل فريق منهم يسأل عن مقترف الكبيرة : أمؤمن هو أم كافر ؟ ثم لم يستطيعوا أن

يقولوا إنه كافر ، لأنه يعلن أن لا إله إلا الله ، ولم يستطيعوا أن يقولوا إنه مؤمن ، لأنه خالف عن أمر الله باقتراف الكبيرة ، فزعموا أنه ليس مؤمناً ولا كافراً ، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين ، وقالوا : إنه فاسق . وحظروا على الله العفو عن مقترف الكبيرة لأنه إن عفا لم يكن عادلا والعدل واجب لله . كما حظروا على الله عقاب المؤمن الذى لم يذنب لأنه إن عاقبه لم يكن عدلا . ولجوا فى هذه المقالات حتى أسرفوا على أنفسهم وعلى الناس ، وحتى أغروا بأنفسهم شاعراً كأبى نواس الذى قال لبعض المعتزلة :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة ... حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرأ فطناً ... فإنه حظر له بالدين إزراء

وقال قائلهم : إنه لا تقبل شهادة طلحة والزبير — رحمهما الله — فى باقة بقل ، لأنهما فى زعمه قد خالفا عن أمر الله . ولم ينسوا إلا شيئاً واحداً وهو أن الله عز وجل يقول فى سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾ .

ويقول فى سورة الزمر : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرحِيم ﴾ .

فهؤلاء الوعيدية ييأسون ويؤيسون الناس من عفو الله ورحمته ومغفرته إذا أذنبوا ، على حين أن الله فى هاتين الآيتين ، وفى آيات أخرى من القرآن ، يفتح لهم أبواب الأمل واسعة . وقد بينا فيما مضى من هذا الحديث

أن الله عز وجل يوعد الناس إن اقترفوا الذنوب حتى يشرف بهم على اليأس ، ثم يفتح لهم باب الأمل حتى يعصمهم من هذا اليأس ، ويغريهم بالتوبة والإقلاع عن الذنوب . وما أكثر ما يقرن الله وعده بوعيده . كما قال فى سورة الحجر : ﴿ نَبِّئْ عِبادِى أَنِّى أنا الغَفُورُ الرَّحِيم . وأَنَّ عَذَابِى هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ .

وهذا الاختلاف بين الفرق الإسلامية يرجع قبل كل شىء إلى الفتنة التى سادت بقتل عثمان — رحمه الله — وبما كان من الحرب بين أصحاب النبى بعد مقتله . فالفرق الأولى التى نشأت عن هذه الفتنة اختصمت فيما بينها أشد الاختصام . حتى قالت الخوارج بكفر على وأصحابه ، وكفر معاوية وأصحابه. وقالت الشيعة بكفر معاوية ومن ناصره من أهل الشام . وجعلت هذه الفرق تتقاذف بالكفر . وأبى المعتزلة من أصحاب النبى ، كسعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة أن يشاركوا فى شىء من هذه الفتنة وأبوا كذلك أن يكفروا أحداً من المسلمين حتى كان بعضهم يقول : لا أقاتل حتى تأتونى بسيف ينطق فيقول : هذا مؤمن وهذا كافر ، وكره قوم هذا التقاذف بالكفر ، والحكم فيما لا ينبغى أن يحكم فيه إلا الله وحده فوقفوا موقف الإرجاء ، وتركوا أمر هؤلاء المختصمين إلى الله يقضى بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه ، فيحسن ثواب البر ويشدد عقاب الفاجر إن شاء أو يخففه أو يعفو عنه .

وتجاوزت المعتزلة التى نجمت فيما بعد ما ألف الصالحون من القصد فأغرقوا فى تحكيم العقل فيما لا يستطيع العقل أن يحكم فيه . تكلموا أولا فيما تكلمت فيه الفرق القديمة من هذا التقاذف بالكفر . فاخترعوا

المنزلة بين المنزلتين وقرروا أن مقترف الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً ، وإنما هو فاسق خالف عن أمر الله فلم يعد مؤمناً ، وأظهر الإسلام واعترف بوحدة الله وصدق نبيه فلم يصر إلى الكفر ورتبوا على هذا المذهب أن مقترف الكبيرة لا تقبل شهادته فى الدنيا وأنه مخلد فى النار بعد الموت .

وبينما كان المسلمون يختصمون فى هذه المسائل لقوا اليهود والنصارى وغيرهم من الفرس والهند ، وجادلوهم فى دياناتهم كما جادلهم أولئك فى الإسلام . فعرفوا من مذاهبهم فى الدفاع عن دياناتهم أشياء لم يكونوا يعرفونها ، ثم لم يلبثوا أن عرفوا ألواناً من الثقافات الأجنبية ، والثقافة اليونانية خاصة ، والفلسفة اليونانية على وجه أخص . فتأثروا بهذا كله واتخذوه وسيلة إلى الدفاع عن دينهم كما فعل النصارى واليهود ، ثم مضوا إلى أبعد من ذلك فآمنوا بالعقل وحكموه فى كل شىء ، وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة ، وأنه هو الذى يحسن ويقبح من أعمال الناس حسنها وقبيحها . وأنه يستطيع أن يعرف الله ، وأن يعرفه بقوته ، سواء جاءته الأنبياء الهداة إلى الله أو لم يجيئوا . وقد غرهم إيمانهم بالعقل فدفعهم إلى شطط بعيد . ولم يخطر لهم أن العقل الإنسانى ملكة من ملكات الإنسان ، وأن هذه الملكة كغيرها من ملكات الإنسان محدودة القوة ، تستطيع أن تعرف أشياء وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها . وهذا هو الذى فتح عليهم أبواب هذا الاختلاف الذى لا ينقضى ، وجعلهم فرقاً نيفت على السبعين .

ثم لم يكفهم هذا كله فزعم الزاعمون منهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد نبأ بهذا الاختلاف ، ونبأ بعدد الفرق التى ستنشأ فى الإسلام ، ونبأ بأن فرقة واحدة منها هى الناجية — فى الحديث الذى رواه رواتهم —

وأن سائرها هالك . وذلك كله فى الحديث الذى رواه رواتهم ، والذى أكاد أقطع بأنه اخترع بأخرة ، مهما يكن السند أو الأسانيد التى ركبت له ، هو قولهم عن النبى : ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة والباقون هلكى . قيل : ومن الناجية ؟ قال : أهل السنة والجماعة . قيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال : « ما أنا عليه اليوم وأصحابى » .

والشىء الذى لا شك فيه أن كثرة هذه الفرق ، وما يضاف إليها من المقالات ، إنما نشأت عما كان من التقاء الإسلام بالديانات والثقافات الأجنبية على اختلافها . ونحن نعلم كيف فتن كثير من المسلمين بالفلسفة اليونانية ، وبما رأوه من أن فلاسفة اليونان قد استكشفوا ألواناً من المعرفة لم تكن تخطر للعرب على بال ، فى شؤون الرياضة والطبيعة والطب . وهم قد رأوا فلاسفة اليونان قد تجاوزوا بعقولهم ما تستطيع أن تعلم إلى ما لا تستطيع أن تعلم ، فبحثوا عن الله وعن صفاته وخصائصه وذهبوا فى ذلك مذاهبهم المعروفة ، فما يمنع المفلسفين من المسلمين أن يذهبوا مذهب هؤلاء الفلاسفة من اليونان ، وأن يحاولوا أن يستكشفوا بعقلهم الطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وما يمنع المتكلمين من أن يذهبوا مذهب الفلاسفة فيعملوا العقل فيما لا يحسن العقل أن يعمل فيه من البحث والنظر ، ويتخذوا وسائل الفلسفة سبيلا إلى محاجة غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، فيعود عليهم هذا كله بالاختلاف فيما بينهم ، كما اختلف غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى حين عرفوا الفلسفة وأقحموها فى شؤون الدين . وهذا هو الذى جعل المعتزلة مثلا يقرءون القرآن والسنة فيرون أن الله قد وصف نفسه بصفات فيبحثون عن هذه

الصفات ، ويأبون إلا أن يصلوا فيها إلى ما يرون أنه الحق ، وهم قد قرءوا فى القرآن أمر الله للناس أن يتفكروا ويتدبروا ، ليعلموا أن هذا العالم بما فيه من العجائب والنظام الدقيق لا يمكن أن يوجد من غير موجد له ، فظنوا أن العقل يستطيع أن يعرف كل شىء ، وأن يعرف الله ذاته ، وحقائق ما يصف به نفسه من الصفات . فتورطوا فى أشياء أساغتها عقولهم ولا تستطيع عقولنا نحن أن تسيغها ، ولسنا فى حاجة إليها لنحسن الإيمان بالله والعلم بقدرته ، وبما وصف نفسه به من الصفات ، لأننا قد عرفنا أن العقل الإنسانى ليس من القوة والنفوذ بحيث ظن فلاسفة اليونان ومن تبعهم من متفلسفى النصارى واليهود والمسلمين ، وإنما هو كما يقول أبو نواس : قد حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء .

وانظر إلى رجل حكيم كأبى العلاء ، كيف غره الإيمان بالعقل فظن أنه هو الإمام ولا إمام غيره ، وأنه وحده يهدى الناس فى المسير والإرساء . فقال فى الرد على بعض غلاة الشيعة :

كذب الظن لا إمام سوى العقـ ... ـل مشيراً فى صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ ... ـمة عند المسير والإرساء

وكيف انتهى به إيمانه بالعقل إلى مقالة لا يسيغها الدين ولا يقرها الإسلام فى قوله :

قلتم لنا خالق حكيم ... قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ... ولا زمان ألا فقولوا
هذا كلام له خبىء ... معناه ليست لنا عقول

فعقله لم يستطع أن يتصور الخالق الحكيم فى غير زمان ولا مكان ،

فاضطره ذلك إلى أن يصف الخالق الحكيم بما يصف به سائر المخلوقات من الخضوع للزمان والمكان ، وهذا سخف لا يقول به مؤمن .

وأكبر الظن أن أبا العلاء نفسه لم يثبت عليه فهو يقول فى قصيدة أخرى :

أما ترى الشهب فى أفلاكها انتقلت بقدرة من مليك غير منتقل

وما يجوز عليه التحيز فى مكان يجوز عليه الانتقال منه إلى مكان غيره ، ولا يجوز أن يقضى أبو العلاء على الخالق الحكيم القادر الذى يؤمن به بالعجز ، وبالتزامه مكاناً واحداً لا يريمه ، إن كان مستقرًّا فى مكان .

وكل هذا وأمثاله عند أبى العلاء وغيره ، من الذين غرهم العقل فأسرفوا فى الإيمان به ، وحكموه فيما لا يستطيع أن يحكم فيه ، لا يدل إلا على الحيرة والعجز ، والقصور عن بلوغ الحقيقة التى حاولوا أن يبلغوها .

ومثل ذلك يقال فى المجسمة والمشبهة وكل الذين حاولوا أن يعرفوا الله بعقولهم معرفة دقيقة . ولم يكتفوا بما اكتفى به النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه — رحمهم الله — من قبول نص القرآن وفهمه فى يسر وإسماح ، وفى غير تكلف ولا إسراف فى التأويل والله عز وجل ينبئنا فى القرآن بأنه أنزل الكتاب فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، وبأن الذين فى قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، مع أن العلم بتأويله موقوف على الله عز وجل ، وبأن الراسخين فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وذلك فى قوله عز وجل من سورة آل عمران :

﴿ هُوَ الذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ

أُمُّ الكِتَاب وأُخَرُ مُتَشَابِهَات . فَأَمَّا الذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَه مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ . وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ الله . والرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ يَقولونَ آمنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وما يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولو الأَلْباب . رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّاب﴾ .

وهذه هى المقالة التى يجب على كل مؤمن أن يقول بها ويتخذها ديناً . ولست أدرى أيصل العقل يوماً إلى أن يبلغ ما لم يبلغه إلى الآن من القوة أم لا ، ولكن الشىء المحقق هو أن عقل القدماء وعقل المحدثين من أصحاب الفلسفة والعلم ما زالا أضعف وأقصر باعاً من أن يصلا إلى استكشاف حقيقة الله ، أو البحث عن صفاته وإصدار هذه الأحكام التى أصدرها الفلاسفة والمتكلمون ، اغتراراً بالعقل واستجابة لما لا تنبغى الاستجابة له .

ومن أجل هذا أقول : إن المؤولين من المحدثين كالمؤولين من القدماء قد استجابوا لعقولهم القاصرة واغتروا بها ، وقالوا فيما ليس لهم أن يقولوا فيه ، وطمعوا فيما ليس لهم أن يطمعوا فيه . ولو قد تواضع أولئك وهؤلاء ، ووقفوا أنفسهم حيث تنتهى بهم قوتهم ، لكان خيراً لهم وللذين افتتنوا بهم من الناس .

فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبابيل ، وما رمت به جيش الحبشة أمام مكة ، إنما كانت وباء من الأوبئة ، وكانت الحجارة ضرباً من الميكروبات . إنما يقولون هذا من عند أنفسهم ، وهم يعلمون حق العلم

أن النبي وأصحابه لم يفهموا هذه السورة على هذا النحو ، وما كان لهم أن يفهموها على هذا النحو ، فهم لم يكونوا يعرفون الميكروب ، وما كان لهم أن يعرفوه . والذين يقولون إن السموات السبع التي تذكر في القرآن هي الكواكب السيارة ، إنما يرجمون بالغيب ويقولون ما لم يقله النبي وأصحابه . ومصدر هذا أنهم يريدون أن يلائموا بين القرآن ومستكشفات العلم الحديث ، فيضطرهم ذلك إلى تكليف النصوص من التأويل ما لا تحتمل . وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه ، فالدين من علم الله الذى لا حد له ، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنسانى ، وبهذا العالم الذى يعيش الإنسان فيه .

ومن أسخف السخف أن نحاول الملاءمة بين ما لا حد له وما هو محدود بطبعه . وصدق الله حين أنبأ بأن الراسخين فى العلم يقولون : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وشر آخر نشأ عن اختلاف هذه الفرق فملأ حياة المسلمين فساداً أى فساد ، وهو الغلو فى التأويل إلى أبعد ما يتصور العقل ، وإلى غير ما يفهم صراحة من نصوص القرآن . وذلك حين اضطرت بعض الأحزاب إلى أن تسر دعوتها ، وتستخفى بمذهبها فى السياسة أولا وفى الدين بعد ذلك كهؤلاء الباطنية الذين زعموا أن العلم بالدين علمان : علم الظاهر وهو ما عليه الناس فى كثرتهم وعلم الباطن وهو ما هم عليه . وجعلوا يتركون ظاهر النص لأنه لا يليق إلا بعامة الناس ولا يلائم خاصتهم ، ثم يلتمسون للنص تأويلا يخالف كل المخالفة ما يفهم منه لغة ، وما فهمته جماعة المسلمين حين سمعوا النبي يتلو عليهم القرآن ويبين لهم ما أنزل

إليهم ، وغلوا فى ذلك كل الغلو حتى أحدثوا لأنفسهم ديناً لا يدين به غيرهم من المسلمين فأفسدوا الدين والعقل معاً . ثم نشأ التصوف ونشأ فى أول أمره زهداً غلا فيه أصحابه وأنكره النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو قد رد على عثمان بن مظعون — رحمه الله — رهبانيته ، وشدد على عبد الله بن عمرو ابن العاص حين أزمع أن يصوم الدهر وحين غلا فى قراءة القرآن ، وأراد أصحابه على أن يأخذوا دينهم بالرفق وبالإسماح ، وذكرهم بما أنبأهم به القرآن من أنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ، ومن أنه لم يجعل عليهم فى الدين من حرج ، وأمر الغلاة منهم فى الصيام والقيام أن يصوموا ويفطروا وأن يقوموا ويناموا ، ولا يحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم ، بل بالغ النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك حتى استخفى من أصحابه ببعض عبادته مخافة أن يشق عليهم ، وأن يتقيدوا به فيتكلفوا ما لا يطيقون ، ونهاهم عن أن يواصلوا فى صومهم فيصوموا الليل والنهار جميعاً . فلما قالوا له : إنك تواصل . قال : إنى لست كهيئتكم ، إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى ، يريد أن الله قد منحه من القوة والجلد على عبادته ما لم يمنحهم .

وعلى رغم هذا ظهر الزهد ، وأبى فريق من صالحى المسلمين إلا أن يرفضوا لين الحياة ، ويشددوا على أنفسهم فى العبادة والتقشف والإعراض عن اللذات . وليس بهذا كبير بأس ، فالناس أحرار فى أن يزهدوا إن أطاقوا الزهد ولم يسوءوا به أحداً ، ولكن هذا الزهد لم يلبث أن تطور حين نشأت الفرق وجعل أمره يتعقد شيئاً فشيئاً ، حتى نشأ عنه التصوف الذى عرف فى أواخر القرن الأول وازداد تعقيداً حين اشتد اتصال المسلمين

بالثقافات الأجنبية ، فلم يلبث التصوف أن تأثر بما عرف المسلمون من ثقافة الهند والفرس ، ومن ثقافة اليونان خاصة ، وتحول الزهد من تفرغ للعبادة وإمعان فيها إلى محاولة الاتحاد بالله أو الاتصال به ، أو معرفته من طريق الإشراق . ثم اختلط التصوف بمذاهب الباطنية فازداد تعقيداً إلى تعقيد ، وانحرف عما عرف الناس من شؤون الدين ، وأصبح مذهباً بعينه بل أصبح مذاهب يختلف فيها المختلفون ، وتكلم المتصوفون بأشياء أنكرها الفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، وامتحن فيها بعضهم محنة شديدة انتهت أحياناً إلى القتل والصلب كما جرى على الحلاج .

وليس التصوف مقصوراً على الإسلام بل هو معروف فى الديانات الأخرى وفى المسيحية خاصة . ولكن متصوفة الإسلام أسرفوا على أنفسهم . ثم أسرفوا بعد ذلك على الناس ، فصار أمر التصوف بعد أن فشا الجهل والجمود إلى ألوان من الشعوذة والدجل حتى أصاب عامة الناس منه شر كثير ، لو رآه أئمة الصوفية الأولون لضاقوا به أشد الضيق وأنكروه أعظم الإنكار .

ثم لم يقف أمر الاختلاف بين المسلمين عندما وصفنا ، ولكنهم اختلفوا فى استنباط الأحكام التى يحتاج إليها الناس فى حياتهم الاجتماعية، بل فى عباداتهم أيضاً اختلافاً كثيراً نشأ عنه جدل لا يحصى بين الفقهاء . فكان أهل الحجاز فى القرن الأول والثانى يستنبطون الأحكام من القرآن والسنة ، وما أجمع عليه أصحاب النبي ، وما عمل به الممتازون منهم ، يرون أن أصحاب النبي لا يجمعون على شيء إلا أن يكونوا قد استندوا فى إجماعهم على سنة من النبي ، ويرون أن الممتازين من الصحابة قد اشتد اتصالهم

بالنبي حتى فقهوا الدين حق فقهه وتحروا سنته فى أحكامهم . وكان أهل العراق يستنبطون الأحكام من القرآن والسنة والإجماع ، ولكنهم لا يكرهون أن يلجئوا إلى الرأى إذا أعوزتهم هذه الأصول ، واشتد الجدال بين أولئك وهؤلاء ، وكثر الخلاف بين أصحاب الرأى أنفسهم ، فكثر الكلام فى الفقه ، كما كثر الكلام بين الذين اشتغلوا بأصول الدين إلى اختلاف الفرق القديمة فى استنباط الأحكام . فللشيعة فقههم ، وللخوارج فقههم . كل يقيم مذهبه فى استنباط الأحكام على مذهبه فى السياسة وفى أصول الدين أيضاً .

وكذلك بلغ الخلاف بين المسلمين فى الأصول والفروع أقصى ما كان يمكن أن يبلغ . ثم أدركهم ما يدرك الأمم قبلهم وبعدهم من الضعف والجهل والانحطاط . فصار أمرهم إلى شر عظيم .

وقبل الحديث عن الجهل وما ترك فى حياة المسلمين من شر يشقون به إلى الآن ، لا بد من وقفة قصيرة عند ألوان من التعصب نشأت عن كثرة الفرق فى الأصول والفروع جميعاً ، فكما كانت الأحزاب السياسية فى أول الأمر تتقاذف بالكفر ، ويستبيح بعضها دم بعض حين تمكنه الفرصة ، أو يتاح له الخروج على السلطان، جعلت فرق المتكلمين تتقاذف بالكفر أحياناً وبالفسق غالباً ، وتستبيح امتحان الناس بالسجن والضرب والقتل، إن أتيح لها الاتصال بالسياسة والاستيلاء على عقول الحكام وقلوبهم، كالذى كان حين غلب المعتزلة على عقل المأمون ، وألقوا فى قلبه مقالتهم هذه السخيفة ، التى لا تقدم ولا تؤخر فى فقه أصول الدين وفروعه، والتى لم يدفع إليها إلا الغلو فى البحث والإمعان فى الجدل ، وهى مقالتهم فى خلق

القرآن . فهم قد أنكروا أن تكون لله صفات تقوم بذاته ، وقرروا أن الله عالم بذاته وقادر بذاته إلى آخر ما قرروا فيما يسمونه التوحيد . ونظراً لأن الله قد أنبأ فى القرآن بأنه كلم موسى تكليماً وبأنه أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمر النبي أمراً مباشراً بأن يبلغ الناس عنه ما أنزل إليه ، وأمره أمراً مباشراً غير مرة بأن يقول لهم أشياء مختلفة ، يوجه بعضها إلى المسلمين ويوجه بعضها إلى الكافرين ويوجه بعضها إلى الناس جميعاً ، فقد استنبطوا من كل هذا أن كلام الله مخلوق محدث قد أنشأه الله بعد أن لم يكن وأنزله على أنبيائه فهو كغيره من الكتب التى ينشئها الناس إلا أنه هنا قد أنشأه الله كما أنشأ غيره من المخلوقات . ولو قد قالوا مقالتهم هذه ولم يفتنوا بها الناس لكان حسابهم إلى الله وحده ، ولكنهم سيطروا على المأمون وأقنعوه بمقالتهم هذه ، وأقنعوه أيضاً بأن القول بغيرها إشراك بالله وخروج من الدين ، لأن قدم القرآن معناه أن يكون هناك قديمان ، مع أن القديم واحد لا شريك له ولا نظير له فى القدم ، وهو الله عز وجل . ثم لم يكفهم ذلك فحملوا المأمون على أن يفرض رأيهم هذا على المسلمين ، ويبدأ بعلمائهم وفقهائهم ومحدثيهم . واستجاب لهم المأمون بعد تردد وجعل يمتحن علماء المسلمين ويفرض هذه المقالة على كل من يعمل فى خدمة الدولة بل فى خدمة الأمة من القضاة والعمال والشهود . وقرر أنه ليس فى حاجة إلى أن يستعين على خدمة الدولة الإسلامية بالمشركين . وألزم العمال أن يمتحنوا القضاة فى ذلك فمن أجاب إلى رأيه أقر على عمله ومن أبى صار إلى العزل . وأمر القضاة أن يمتحنوا الشهود ولا يقبلوا إلا شهادة من يقول برأيه ويعلن إيمانه بأن القرآن مخلوق . ثم جعل يمتحن

الفقهاء والمحدثين ، فمنهم من أجاب إلى رأيه تقية وتجنباً لاحتمال المكروه ، ومنهم من أبى فتعرض للسجن وتعرض للضرب،ولو قد عاش المأمون لتعرض خصومه من العلماء للقتل، فهو قد أمر عامله على بغداد أن يمتحن جماعة من العلماء ، فمن أجاب إلى رأيه أطلقه ومن خالف عن رأيه ضرب عنقه وأرسل إليه رأسه .

وكان حين أصدر هذا الأمر إلى عامله على بغداد قد خرج من العراق محارباً للروم .والناس جميعاً يعرفون أن أحمد بن حنبل — رحمه الله — لقى فى هذه المحنة بلاء عظيماً فصبر صبر الأبطال واحتمل السجن الطويل والحرمان الشديد والضرب المبرح الذى أضعفه إلى أن توفى . وأكبر الظن أن المعتزلة صاروا بالمأمون فى هذه المقالة إلى شىء يشبه الجنون ، ولولا أنه قد مات فى سفره ذاك لملأ الأرض شرًّا ونكراً ، ولكن الواثق والمعتصم سارا فى هذه المسألة سيرة المأمون مع شىء من القصد ، فلم يصلا بالممتحنين إلى القتل كما همّ المأمون أن يفعل ، وإنما اكتفيا بالسجن والضرب والحرمان . ولولا أن المتوكل ألغى هذه المحنة وعاد إلى القصد فى حكم المسلمين لتعرض أمر الخلافة العباسية لخطر أى خطر .

وكذلك الأمر كلما اتصل رجال الدين ، والغلاة منهم فى الرأى ، بالسلطان وسيطروا عليه . فقد أشرنا آنفاً إلى الحلاج وقتله وصلبه. وقد حدث شىء من هذا الامتحان لبعض العلماء فى الغرب الإسلامى ، فمنهم من سجن ، كابن رشد ، ومنهم من حرقت كتبه ، كابن حزم . وليس لهذا كله مصدر إلا أن الغلاة من الأحرار كالمعتزلة فى المشرق ،والغلاة من المحافظين كالفقهاء فى المغرب الإسلامى ، قد استطاعوا أن يستأثروا ببعض

الحكام ويفرضوا عليهم غلوهم فى الرأى ،وأخذهم الناس بمالم يعرف عن النبى صلى الله عليه وسلم . والذين يقرءون القرآن والسنة يعرفون ما لقى النبى وأصحابه المؤمنون من المنافقين فى المدينة وفى باديتها . ويعرفون أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعرض لأحد منهم بسوء ، وإنما احتملهم صابراً عليهم مطاولا لهم ،طامعاً فى أن يثوبوا يوماً إلى الرشد ، أو أن تمسهم رحمة من الله فتخلص قلوبهم للدين ، وكان يستغفر لأحيائهم ويصلى على موتاهم ، حتى قال الله له :

﴿ اسْتَغْفِرْ لهمْ أوْ لا تَسْتَغْفِرْ لهم إنْ تَسْتَغْفِرْ لهم سَبْعِينَ مرةً فلنْ يغفِرَ اللهُ لهم ﴾ .

وقال له : ﴿ولا تُصَلِّ عَلى أحَدٍ مِنْهمْ ماتَ أبَدًا ولاَ تَقمْ عَلى قَبره ﴾ وربما عرض عليه عمر بن الخطاب أو غيره من أصحابه أن يقتلوا بعض المنافقين فلم يأذن لأحد منهم فى ذلك .

وقد روى الشيخان أن شيئاً من الخصومة وقع بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فى غزوة بنى المصطلق ، وتعصب لكل واحد منهما نفر من أصحابه ، فبلغ ذلك عبد الله بن أبى بن سلول ، رأس المنافقين من أهل المدينة ، فقال : لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وارتفعت القصة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عمر بن الخطاب أن يأذن فى قتل هذا المنافق ، فأبى وقال : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه . وذكر الله هذه المقالة التى قالها عبد الله بن أبى بن سلول فقال فى سورة المنافقون :

﴿ يَقولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى المَدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ ولِلّهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ ولكِنَّ المُنَافِقينَ لا يَعلمُونَ ﴾ .

واعترض رجل على إعطاء النبي من غنائم حنين لبعض المؤلفة قلوبهم ، وواجه النبي باعتراضه ، فقال : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل . فلم يزد النبي فى جوابه على أن قال : ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ واستأذنه بعض أصحابه فى قتل هذا الرجل فأبى .

وإذن فقد علم الله ما أضمر المنافقون من الكفر فى قلوبهم فلم يحرض النبي عليهم ، ولم يأذن له فى قتل أحد منهم ، وإنما نهاه أن يصلى عليهم إن ماتوا أو يقوم على قبورهم .

ولم ينطق النبي عن الهوى حين قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

وحين قال : « ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وكان الفقهاء والمحدثون الذين هم المأمون بقتلهم يقولون : لا إله إلا الله . فيعصمون بها دماءهم وأموالهم . ثم لم يكونوا يقولون هذه الكلمة بألسنتهم وإنما كانوا من صالحى المؤمنين وأصحاب الورع والزهد فيهم . ومن الخلفاء العباسيين من غلا فى امتحان بعض الناس وأسرف فى قتلهم . يأخذ بعضهم بالشبهة والوشاية وسوء القالة ، كالذى صنع المهدى حين تتبع الزنادقة . فقتل منهم أفراداً لم يتثبت من كفرهم وإنما أخذهم

بسوء القالة وسعى بعض الناس فيهم بالسوء . وغلا فى ذلك حتى أمر بعض وزرائه أن يقتل ابنه بيده . وقال له : قم فتقرب إلى الله بدمه .

وكل هذا إسراف لم يأته النبي ولا نعرف أن خلفاءه الراشدين قاتلوا ، أو قتلوا المسلمين ، إلا حين جاهروا بالخروج من الدين وأظهروا له العداوة ولم يعصموا دماءهم وأموالهم بالإسلام .

ولست فى حاجة إلى أن أذكر زياداً ، ذلك الذى أعلن فى خطبته المشهورة أنه سيأخذ البرىء بالمسىء والصحيح فى دينه بالسقيم . ولا أذكر الحجاج الذى أسرف فى القتل بغير الحق . فقد كان زياد والحجاج طاغيتين أطلق خلفاء بنى أمية أيديهما وأيدى غيرهما من ولاة العراق فى دماء الناس وأموالهم فأفسدوا وأمعنوا فى الفساد .

وجملة القول أن الغلو فى الرأى ، حمل الناس على ما لا يؤمنون به . وأخذ الناس بالشبهة وقتلهم أو تعذيبهم بالظنة ، كل هذه أشياء ينكرها الإسلام ويأباها أشد الإباء ويبرأ الله ورسوله منها . ولا يعمد إليها من حكام المسلمين إلا الذين يطيعون الهوى ويمتنعون على العقل ويخالفون عن القوانين الصريحة للدين .

وعن اختلاف الأحزاب واختصامها بالسيف أحياناً ، وباللسان غالباً فى القرن الأول وصدر من القرن الثانى . وعن اختلاف الفرق بعد ذلك ولجاجها فى الخصومة ، نشأت الدعوة السرية لبعض المذاهب السياسية ، وكان هذا مصدر اضطرابات كثيرة زعزعت أحياناً مركز الخلافة فى دمشق أولا ، وفى بغداد بعد ذلك .

كانت قوة السلطة المركزية فى العصر العباسى خاصة تمنع الناس من

الجهر بآرائهم فى السياسة والنضال عنها ، فلم يكن لهم بد من أن يسروا آراءهم ، ويستخفوا بدعوتهم ، ويدبروا ثوراتهم من وراء الحجب الصفاق . أضف إلى هذا أن الثقافة فى العصر العباسى تجاوزت طبقة العلماء المتخصصين وطبقة الأغنياء الذين كانوا يستطيعون أن يأخذوا منها بحظوظ مختلفة ، وتغلغلت فى بعض طبقات الشعب . فلم يلبث الناس أن عرفوا حقوقهم ، وشعروا بما كان يفرض عليهم من ظلم السلطان ، واستئثار الأغنياء دونهم بطيبات الحياة ، واستذلالهم للفقراء ، واستغلال الأقوياء للضعفاء . فنشأت عن ذلك الدعوة إلى لون من الثورة ، لم يخلص للسياسة ولم يخلص للدين أيضاً ، وإنما كان مطالبة بالحقوق الاجتماعية ، وجهاداً فى سبيل تحقيق العدل وشىء من المساواة . فكانت ثورة الزنج فى البصرة ، تلك التى ثار فيها الرقيق بالسادة ، والتى عرضت مركز الخلافة لخطر عظيم . واضطر أولو الأمر فى بغداد إلى أن ينفقوا فى مقومتها جهداً مضنياً ومالا مبهظاً ، ولم يستطيعوا إخمادها إلا بعد حرب عنيفة شديدة العنف ، طويلة مسرفة فى الطول .

ولم تكد هذه الثورة تخمد حتى نشأت ثورة اجتماعية أخرى ، كانت أشد منها خطراً وأعظم منها انتشاراً ، وهى ثورة القرامطة التى دعت إلى شىء من العدل والمساواة ، يوشك أن يكون هدماً للنظام الاجتماعى الذى كان قائماً . وقد ملأت الدنيا شراً فى العراق والشام وبلاد العرب ، وكادت ترد كل شىء إلى الفوضى . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل عمل الشيعة العلويون سراً وجدوا واجتهدوا ، وأتقنوا الكتمان والاستخفاء بدعوتهم ، حتى أتيح لهم أن ينشئوا لحزبهم دولة فى شمال إفريقيا ، لم تلبث أن انتشرت

وقوى أمرها ، حتى سيطرت على مصر والشام وبلاد العرب .

ونظر المسلمون ذات يوم فإذا هم خاضعون لثلاثة من الخلفاء ، أضعفهم الخليفة العباسى فى بغداد . ذلك الذى لم يكن له من الحكم إلا ظاهره . وكان الخليفة الثانى فى مصر ، بعد أن أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة واستقروا فيها ، وكان الخليفة الثالث فى قرطبة بالأندلس ، حيث أوت سلالة الأمويين التى فرت حين نشأت الدولة العباسية فى المشرق . فأنشأت دولتها فى الأندلس ضعيفة أول الأمر قوية بعد ذلك .

وكانت هذه الدول الثلاث تتنافس أشد التنافس ، ويبغض بعضها بعضاً أعظم البغض ، قد انقسم بنو هاشم إلى خلافة عباسية فى بغداد وخلافة علوية فى القاهرة ، وقام بنو أمية فى قرطبة يبغضون العباسيين والعلويين جميعاً ، وظهر بين علماء الأندلس رجل كابن حزم لم يتردد فى الجهر بأن تعدد الخلفاء جائز لا بأس به . وقد رأيت من قبل أن الله أمر المسلمين أن يعتصموا بحبله جميعاً ولا يتفرقوا .

فانظر إلى ما صار إليه اعتصامهم بحبل الله من الفرقة والانقسام ، واستباحة الحرب بينهم ، مع أن النبي والصالحين من أصحابه لم يكونوا يبغضون شيئاً كما كانوا يبغضون الفرقة والانقسام ، حتى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « من حمل علينا السلاح فليس منا » . وقد روينا لك غير مرة قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » . وليس لشىء من هذا كله مصدر إلا افتتان الناس بزهرة الحياة الدنيا ، وانحرافهم عما أراد الله للمسلمين من أن يقيموا أمرهم كله على العدل والمساواة والإنصاف . واختلافهم فى فهم القرآن تأثراً بالأهواء ، واستجابة لما كان يملأ نفوسهم من الطموح .

٧

على أن هذا كله لم يلبث أن صار إلى شر عظيم حين غلبت العناصر الأجنبية على شؤون الحكم ، فأقامت هذه الشؤون على المنافع ، غير حافلة بما يأمر به الله من العدل والإنصاف والمساواة ، والشعور المتصل بهذه الرقابة الرهيبة التي فرضها الله على الناس ، فراقب أعمالهم الظاهرة ونياتهم الباطنة ، وأنبأ بأنه سيسأل الناس عما تعمل جوارحهم وما تضمر قلوبهم — أعرضوا عن هذا كله وأقاموا أمور الحكم على المنافع العاجلة ، وعلى المنافع العاجلة لأنفسهم ولأعوانهم وذوى خاصتهم ولم يحفلوا بالعامة ولم يفكروا فى أن للأمة حقوقاً يجب أن تؤدى إليها ، وعليها واجبات يجب أن تحمل على أدائها . بل نظروا إلى الأمة على أنها وسيلة لإرضاء المطامع ، وأداة لتحقيق المآرب . والأصل الدينى فى كل حكم صالح أن تكون الأمة غاية وتكون الحكومة وسيلة ، وتكون الغاية الكبرى التى تشترك فيها الحكومة والأمة هى إرضاء الله بتحقيق العدل ومحو الجور حيثما وجد ، وشعور الحاكمين والمحكومين جميعاً بأنهم لم يخلقوا عبثاً ولم يتركوا سدى ، لم يستخلفوا فى الأرض ليفسدوا فيها ويسفكوا الدماء ، ويطغى بعضهم على بعض ويستغل بعضهم نشاط بعض . وإنما خلقوا ليصلحوا ويحسنوا ويعملوا على أن يلقوا ربهم كما يجب أن يلقوه أتقياء أنقياء مبرئين من الذنوب والآثام ، التى تعرضهم لها الفتنة ، وإيثار المنافع العاجلة الفانية على المنافع الآجلة الباقية .

ثم لم يكتف الحكام الأجانب بهذا كله ولكنهم جهلوا اللغة العربية فلم يقدروها حق قدرها، ولم يلتفتوا إلى أنها لغة القرآن والسنة والثقافة وأن إهمالها إهمال لهذا كله ،وأن عاقبة هذا الإهمال إنما هى الجهل ؛ جهل الدين أولا ، وجهل الثقافة والعلم ثانياً ، والانتهاء آخر الأمر إلى أن تقوم أمور الناس على الجهل الذى يناقض العلم ، وعلى الجهل الآخر الذى يناقض الحلم والأناة وكبح الشهوة وقهر النفس ، وأخذها فى أمرها كله بالحق والعدل والمساواة بين الناس . وأداء الواجبات مهما تثقل .

وإلى الجهل بهذين المعنيين صارت أمور المسلمين آخر الأمر ، جهل الحكام شؤون الدين وشؤون الثقافة والعلم فلم يحفلوا بنشر الدين والثقافة والعلم ، فانتهى أمر الأمة نفسها إلى الجهل العام . وعن هذا الجهل العام نشأ الشر الذى يحاول المسلمون فى هذا العصر الحديث أن يخلصوا منه ، فلا يبلغون من ذلك بعض ما يريدون إلا بأشق المشقة وأعظم الجهد .

وإذا أهملت الحكومة شؤون الدين فلم تشجع العلماء على أن ينشروه بين أصحابه ، وبين الذين لم تصل إليهم دعوته بعد ، ولم تشجع الناس على أن يتعلموا دينهم ، هان أمر العلماء بالدين على الحكومة أولا ، وعلى الأمة ثانياً ، وعلى أنفسهم آخر الأمر . فأهملوا ما كان يجب عليهم أن يعنوا به من الدرس والبحث وتعمق الأصول ، واستخراج فروع الأحكام التى تلائم حياة الناس على مر الأيام وتطور الظروف .

ومن أجل هذا كله غاضت تلك الينابيع الغزيرة التى كانت تمد عقول الفقهاء بهذا الإنتاج الخصب الرائع ، الذى لا نعرف أنه أتيح لأمة قديمة قبل الأمة الإسلامية ، حتى الأمة الرومانية التى برعت فى الفقه

وتعمقته . وقد كان فقهاء المسلمين فى أول أمرهم يجتهدون فى فهم القرآن والسنة وسيرة الصالحين من أصحاب النبى ، ويستنبطون الأحكام من هذا كله ، لا يصدهم عن ذلك شىء ، ولا يردهم عنه رضى السلطان عنهم أو سخطه عليهم ، ولا التفاف الناس حولهم أو انصرافهم عنهم ، فأنشئوا هذا العلم الخصب وذهبوا فيه المذاهب . وكان اختلاف مذاهبهم نافعاً للناس فى حياتهم العامة ، وفى حياتهم الخاصة كان مذكياً لعقولهم وقلوبهم أولا ، وكان بعد ذلك يوسع عليهم ألوان الحل لما كان يعرض لهم من المشكلات .

وكان الناس يجدّون ، حين يطلبون العلم ، فى العناية بالفقه وتعمقه ، والتصرف فى معضلاته ، حتى إذا أهمل العلم والدين وجمد العقل وانقطع التفكير الخاص صار الناس إلى هذا التقليد البغيض ، يتحرج علماؤهم من الاجتهاد ، ويطمئن عامتهم إلى هذا التقليد ، وفرضت على الأمصار والأقاليم مذاهب هؤلاء الأئمة الأربعة : مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد ابن حنبل ، رحمهم الله .

وفرغ الفقهاء لدرس مذهب من هذه المذاهب يجادلون عنها ويتكلفون التعمق لها ، يقلد كل جماعة منهم إماماً من هؤلاء الأئمة ويضعون مذهبه موضع التقديس ، لا ينحرفون عنه ولا يغيرون فيه . ثم انتهى أمرهم إلى التعصب لأئمتهم والتنكر لغيرهم من المجتهدين ، حتى أضاعوا علماً كثيراً ذهب مع الزمن لشدة الانصراف عنه وقلة التفكير فيه ، ثم تعصب أصحاب الأئمة الأربعة لأئمتهم فثارت بينهم الخصومات السخيفة التى لا تغنى عنهم ولا عن عامة الناس شيئاً . ثم صار العقل الفقهى إلى شىء

من التحجر ، وجعل الفقهاء يبدئون ويعيدون فيما قال قدماؤهم ، لا يزيد متأخر على متقدم شيئاً ، ثم صار الفقه إلى كتب تقليدية مختصرة توضع لها الشروح وتضاف إليها الحواشى . وجعل شباب الطلاب يحفظون المختصرات عن ظهر قلب ، ويختلفون إلى أساتذتهم ليسمعوا منهم شروحاً وحواشى ، يفهمون منها ما يستطيعون ويتركون منها ما لا يحسنون فهمه ، وأتيح لبعض البلاد الإسلامية حكام يقلدون مذهباً من المذاهب ، فيفرضونه على المحكومين ، ويختارون القضاة من فقهاء هذا المذهب لا يتجاوزونه إلى غيره . وجمدت العامة مع الفقهاء فأصبح هذا الشعب يدين بمذهب أبى حنيفة ، لا يستبيح أن تحل مشكلاته بحكم مذهب آخر . وشعب آخر يدين بمذهب مالك لا يعدوه إلى غيره ، وأتيح لبعض الشعوب أن يكون من أبنائه الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، ولم يحفل الحكام بذلك ولم يهتموا له ، وإنما اكتفوا بأن يختاروا لكل أصحاب مذهب قضاة من أهل مذهبهم .

وكذلك كان فى مدينة كالقاهرة قاض للحنفية ، وآخر للشافعية وثالث للمالكية ، وعلى هذا النحو . وأى شر أعظم أثراً فى حياة الناس من ألا يجمعهم قانون واحد تقوم عليه الأحكام فيهم ، وتحل به المشكلات التى تعرض لهم .

ولم يكن الكلام أحسن حظاً من الفقه . فقد انتهى أمره إلى الجمود والعقم . وفرض على الناس مذهب بعينه من مذاهب المتكلمين ، يراه علماؤهم ديناً. ويرون ما عداه من المذاهب انحرافاً عن الجادة وجوراً عن الطريق . وأصابه ما أصاب الفقه من اختصار الكتب ووضع الشروح

والتعقيب عليها بالحواشي ، حتى أصبحت العقول أدوات لا عمل لها إلا أن تبدئ وتعيد ، وتهذى فى غير انقطاع كما يهذى المحمومون .

وصار أمر العلوم كلها إلى ما صار إليه أمر الفقه والكلام ، مختصرات تحفظ عن ظهر قلب ، وشروح تفسر هذه المختصرات ، وحواشى وتقارير تردها إلى الغموض والتعقيد بعد اليسر والإسماح . وإذا جمدت عقول العلماء على هذا النحو جمدت عقول تلاميذهم ، وأصبح الجمود شيئاً تتوارثه الأجيال جيلا عن جيل .

ثم تعرضت العقول للخرافات والسخافات والأساطير ، التى يتراكم بعضها إلى بعض ويتراكب بعضها فوق بعض ، وصار العلم إلى شىء من الإعجام وأغلق بابه على أوساط الناس فضلا عمن هم أقل منهم ، وأطبق على علماء الأمة وعامتها سحب متكاثفة من الجهل والتواء التفكير ، ثم الاستسلام والإذعان لكل ما يقال لهم وكل ما يراد بهم . وبعد الأمد إلى أقصى حدود البعد بينهم وبين قديمهم ، فنسوا تاريخهم ونسوا علومهم وما ترك الأولون فيها من الكنوز التى لا تقدر ولا تحصى والتزموا كتباً بعينها تتوارثها أجيالهم يفهمونها أو لا يفهمونها ، فليس الفهم هو الشىء المهم وإنما المهم هو أن تقرأ الكتب الطوال فى مجالس الدرس ، وتحفظ الكتب القصار قبل الاختلاف إلى مجالس الأساتذة .

والأستاذ مقيد بما يقرأ من ألفاظ الشراح وأصحاب الحواشى لا يضيف إليها شيئاً . قد وقف عقله عن التفكير واقتصر جهده كله على قراءة النص المختصر وتفسيره بالشرح المكتوب والتعقيب عليه بالحواشى المكتوبة أيضاً على هذه الشروح .

وأصبح الأساتذة والطلاب أشبه شيء بالببغاء يحكى كل واحد ما سمع من شيخه ويحكيه بلفظه ما وجد إلى ذلك سبيلا . وقد أتيح للمسلمين لحسن حظهم أفراد من العلماء فى عصور مختلفة لم يجحدوا التقليد جماعة ، وإنما حاولوا أن يعملوا عقولهم ويثبتوا شخصيتهم وينشروا النور من حولهم ، وينظروا من علم القدماء فيما أعرض الناس عن النظر فيه .

وكان هؤلاء العلماء يجدون نفوراً منهم وإعراضاً عنهم وربما وجدوا تشهيراً بهم ومقاومة لهم وربما أصابهم أذى يكثر ويقل باعتبار الظروف التى تحيط بهم وتحيط بالناس من حولهم .

وانظر إن شئت إلى سيرة ابن تيمية وما أصابه من إنكار العلماء الجامدين عليه ، وبطش الحكام المستبدين به .

وكذلك صار أمر المسلمين إلى هذا النكر الذى عرضهم لألوان من المكروه ما كانوا ليتعرضوا لها لو سلكوا طريق قدمائهم . فلم يتركوا عقولهم تصير إلى هذا الجمود والخمود .

والكوارث السياسية بالطبع هى مصدر هذه المحنة التى امتحن بها المسلمون قروناً طوالا ، والتى أطمعت فيهم دولا أجنبية لم تكن من الإسلام فى شيء ، رأتهم جاهلين غافلين مذعنين للظلم راضين بما كان يصب عليهم من الجور والهضم والاستذلال . وإذا بلغت الشعوب هذا الحد من الضعف ضعفت حكوماتها فلم تجد من القوة إلا ما يمكنها من ظلم الرعية واستذلالها واستغلالها . ولم تستطع أن ترد عن نفسها ولا عن شعوبها طمع الطامعين فيها ، وكيد الكائدين لها ومكر الماكرين بها ، واعتداء المعتدين عليها ، بل ربما وجدت الشعوب شيئاً من السرور والرضى

بسقوط حكوماتها وانهزامها أمام العدو المغير ، يئست من عدل هذه الحكومات ونظرت إليها على أنها شر سلط عليها ، فتمنت أن يزول عنها هذا الشر ، فهى طامعة فى شىء من العدل قليل أو كثير عند المغيرين عليها والمحتلين لبلادها ، نسيت كرامتها وجهلت هذه الكرامة وغفلت عن حقوقها وعن واجباتها أيضاً ، وطمعت فى شىء واحد هو أن تتخلص من هذا الشر الجاثم عليها .

وكذلك كثر المغامرون أولا ، وكثر معهم الاضطراب والفساد ، ثم جاء المستعمرون فوجدوا كل شىء قد مهد للاستعمار . ففتحوا واستعمروا وفتحوا أبواباً من الآمال الكاذبة أمام هذه الشعوب اليائسة ، حتى إذا استقرت لهم الأمور تبين اليائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من بؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه . وأى بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبى فى حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفى آمالهم ومستقبلهم .

كانوا عبيداً أو كالعبيد لقوم يمتون لهم ببعض الأسباب ، فأصبحوا عبيداً أو كالعبيد لقوم ليسوا منهم فى قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم فى كل شىء ولا يقاربونهم فى شىء .

وإذا هم يعودون إلى شر مما كانوا فيه من البؤس والقنوط .

ولم يصر شأن علوم اللغة العربية والعلوم العقلية إلى خير مما صارت إليه أمور الفقه والكلام ، تقليد فى هذه كالتقليد فى تلك ، وجمود مطلق فى هذه كالجمود المطلق فى تلك . شمل القصور ملكات العقول كلها ، فلم تبتكر شيئاً ولم تحسن التفكير فى شىء ، بل لم تحتفظ بقديمها نفسه ،

وإنما خلت بينه وبين الجهل يلقى من دونه حجباً كثافاً وأستاراً صفاقاً .

ولو أن هذا الجهل المطبق رد عقول الناس إلى فطرتها الأولى ، وجعلها متهيئة لتلقى ما يمكن أن ينقل إليها من علم جديد ، لكان قليل هذا العلم الجديد جديراً أن يذكرها بكثير علمها القديم . ولكن الناس أحبوا الجمود واطمأنوا إليه ، وحرصوا على الاستمساك به ، ورأوا كل جديد بدعة أى بدعة وإثماً أى إثم ، بل رأوا إحياء التراث القديم نفسه شرًّا يجب اجتنابه وينبغى للرجل الكريم أن يتقى شره ، ووصفوا إحياء القديم العربى فى الأدب واللغة والفلسفة بأنه عناية بالقشور وإهمال اللباب ، واللباب بالطبع هو ما يُبدئون وما يعيدون فيه من الكلام المعقد الذى لا يغنى عنهم ولا عن غيرهم شيئاً . ولم يقصر هذا الجمود على وطن بعينه من الأقطار العربية والإسلامية ، ولكنه جثم على العالم الإسلامى كله كما تجثم ظلمة الليل على الأرض ، وأبطأ إسفار الشمس التى تذود هذه الظلمة عن القلوب والعقول جميعاً ، حتى أصبح العالم الإسلامى نهباً للطامعين فيه والمعتدين عليه من المستعمرين الغربيين .

ثم كان الاتصال بهؤلاء الغربيين حين أقبلوا عليهم مستعمرين لهم ، فنبههم أو نبه أقلهم من هذا النوم العميق ، وإذا هم يشعرون على مر الزمن بما تتابع عليهم من الكوارث وما أطبق عليهم من الجهل ، حتى ناموا واستيقظ الناس ، وسكنوا وتحرك الناس . وإذا هؤلاء الأقلون يحاولون إيقاظ الكثرة النائمة ، ويبلون فى ذلك أحسن البلاء ، ويحتملون فى سبيله فنوناً من النكير والتشهير والأذى .

وما أظن المصريين نسوا جهاد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد

عبده — رحمهما الله — فى هذه السبيل ، وما لقيا من السخط عليهما والمكر بهما ، والتنكر لمن ذهب مذهبهما أو اختلف إلى دروسهما . وليس لهذا مصدر إلا أن النائمين يكرهون اليقظة ، ويكرهون بالطبع من يدعوهم إليها ، كما أن الذين استراحوا إلى الجمود لا يبغضون شيئاً كما يبغضون الحركة والداعين إليها .

ومع ذلك فقد نامت الأمة الإسلامية قروناً طوالا ، ولكنها حين استيقظ بعض الممتازين منها ودعوها إلى اليقظة فى إلحاح ، أتيح لها فى الوقت القصير شىء لا بأس به من التنبه ، بل شىء لا بأس به من التقدم وإن لم تزل بعيدة أشد البعد عن أن تكون جديرة بتاريخها الإسلامى البعيد .

وما أحب أن أثبط الهمم ، ولا أن أفل العزائم ، ولا أن أشيع اليأس ، ولكنى أقول ما أقول تقوية للأمل وتمضية للعزم وإلحاحاً مع الملحين فى أن يثوب الناس إلى أنفسهم ، ويتمثلوا هذه الآماد البعيدة أشد البعد بينهم وبين قدمائهم من جهة ، وبينهم وبين الأمم الحديثة المتحضرة المسيطرة على العالم الحديث من جهة أخرى . ليعلموا أن الطريق بينهم وبين الرقى الصحيح طويلة شديدة الطول ، شاقة عظيمة المشقة ، وأنهم قد أتيح لهم الآن شىء من يقظة تمكنهم من أن يختاروا بين اثنتين : إحداهما أن يظلوا كما هم الآن أيقاظاً كالنيام . ونياماً كالأيقاظ . فيتعرضوا لخطوب أشد هولا وأعظم أثراً من الخطوب التى تتابعت عليهم : والثانية أن يستيقظوا حقًّا ويستدركوا ما فاتهم حين وقفوا ومشى الناس ، ليصبحوا أكفاء لقدمائهم من جهة ، وأنداداً للذين يحاولون أن يستذلوهم من جهة أخرى . ويجب عليهم أن يذكروا أن حكامهم من الأجانب فى العصور الماضية كانوا

جهالا ففرضوا عليهم الجهل ، وأن الطامعين فيهم الآن بعيدون كل البعد عن الجهل ، فسيكون ظلمهم لهم أقوى وأعنف من ظلم حكامهم الأجانب فيما مضى .

والمستعمرون فى هذا العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا عليهم ضروباً من العلم قد تخرجهم من الجهل ، ولكنها ستقطع الأسباب حتماً بينهم وبين تاريخهم وتفنيهم فى الأمم المستعمرة إفناء .

فلينظروا بين هاتين الخطتين وليختاروا إحداهما ، وما أرى إلا أنهم سيختارون ، بل عسى أن يكون كثير منهم قد اختار بالفعل ، خطة اليقظة والنهوض .

٨

وسبيلهم إلى هذه اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها ، وهى أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم ، لا ليقولوا إنهم يذكرونه ، بل ليعرفوه حق معرفته ، ويفقهوه جد الفقه ، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين .

هذه واحدة ، والثانية أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث ، ويبتغوا إليه الوسائل التى تتيح لهم أن يتحققوه كما يتحققه أصحابه ، وأن يوطنوه فى بلادهم ويجعلوه ملكاً لهم ، وأن يبذلوا من الجهد ما يمكنهم فى يوم قريب من ألا يكونوا فيه عيالا على المستأثرين به ، بل من أن يشاركوا فيه مشاركة الأنداد الأكفاء .

بهذه الخطة وحدها يستطيعون أن يسلكوا سبيل قدمائهم ، الذين عرفوا حق المعرفة كيف يحافظون على ما ورثوا من العرب القدماء : الجاهليين والمسلمين الأولين . وكيف يدرسونه أحسن الدرس وأوسعه وأعمقه . وعرفوا فى الوقت نفسه كيف يأخذون الثقافات الأجنبية ، وكيف يسيغونها ويتمثلونها ويضيفون إليها من عند أنفسهم ، وكيف ينشرون نور المعرفة بهذا كله فى البلاد التى تستأثر بالعلم الآن ، وتريد أن تفرض عليهم سيطرتها .

وواضح أن هذا الحديث لا يطمع فى أن يرسم للمسلمين خطة دقيقة للرقى ، وإنما يطمع فى شىء هو أهون من ذلك ، ولكنه عظيم الخطر

إلى أبعد ما يمكن أن يعظم الخطر لأمر من الأمور ، وهذا الشيء متصل بالإسلام وحده . فالقرآن بين أيدى المسلمين يقرءونه ويسمعونه ويتعبدون به ، ولكن الذين يفهمونه حق فهمه من بينهم يمكن إحصاؤهم ، ويجب أن يكونوا من الكثرة فوق الإحصاء ، ويجب أن يتجاوزوا به أنفسهم ، وأن ينشروا العلم الصحيح به بين الناس .

والثابت من سنة النبي صلى الله عليه وسلم محفوظ قد نشر فى الكتب ، وجعل كثير من الناس ينظرون فيه ، ولكن الذين يفقهونه أقل من القليل . ويجب أن يكثروا وأن ينشروا منها على الناس مايبين لهم حقائق القرآن أولا ، ويفقههم فى أمور دينهم ثانياً .

وسيرة الخلفاء الصالحين من المسلمين معروفة منشورة يقرؤها المؤرخون ، ولكن العلم بها لا ينبغى أن يقصر بها على المؤرخين ، وإنما يجب أن يشيع بين الناس ، وأن تيسر لهم قراءته وفهمه . علم العلماء سجل فى الكتب ينشر قليله ، وأكثره ما زال نائماً كما نامت الأمة الإسلامية ، فيجب أن يفيق من نومه ، وأن يكون قريب التناول للذين يحسنون درسه وفقهه من العلماء .

وهذا كله لا يكفى ، لأنه لا يزيد على أنه ترقية للعقول وتزكية للأفهام . وويل للعلم بشؤون الدين وحقائقه إذا لم يتجاوز العقول والأفهام إلى القلوب والأمزجة ، ويؤثر فى الضمائر أعمق التأثير ، ويؤثر فى السيرة الظاهرة لهم أعمق التأثير أيضاً .

وقد عرضت فى هذا الحديث صورة إن تكن شديدة الإيجاز ، فإنها شديدة الوضوح لحياة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رحمهم الله .

فلو لم يكن لهذا الحديث أثر إلا أن يقرأه الناس ، ويجتهدوا

ما استطاعوا فى أن يحملوا أنفسهم على أن يسيروا فى أمور دينهم ودنياهم سيرة النبي وأصحابه والصالحين من المسلمين ، وينفوا عن أنفسهم وعقولهم وقلوبهم ما أصابها من التقليد والجمود وما استقر فيها من السخف والأوهام — لو لم يكن لهذا الحديث أثر إلا هذا لكان قد بلغ بعض ما أردت ، حين أخذت فى إملائه ، وصدق الشاعر القديم حين قال :

وما أدرى إذا يممت أمراً أريد الخير أيهما يليني

أألخير الذى أنا أبتغيه أم الشر الذى هو يبتغيني

والله يعصمنا من الشر ويوفقنا إلى الخير ، وهو قد قال فى كتابه العزيز: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فعسى أن يجيبنا إلى هذه الدعوة ، وله الحمد أولا وآخرًا .

رقم الإيداع	١٩٨٢ / ٤٥١٩
الترقيم الدولى ٩٧٧ - ٠٢ - ٠١٩٧ - ٩	ISBN

١ / ٨٢ / ٢٠٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

كتب أخرى للمؤلف

- فى المباحث الإسلامية :

مرآة الإسلام

- فى الأدب والنقد :

فى الأدب الجاهلى

حديث الأربعاء (٣ أجزاء)

مع المتنبى

من حديث الشعر والنثر

فصول فى الأدب والنقد

تجديد ذكرى أبى العلاء

مع أبى العلاء فى سجنه

ألوان — جنة الشوك

- فى أدب التمثيل :

من الأدب التمثيلى اليونانى

- فى القصة والرواية :

الحب الضائع

شجرة البؤس

دعاء الكروان

صوت باريس

- فى التراجم والسير :

على هامش السيرة (٣ أجزاء)

عثمان

الأيام (جزءان)

الوعد الحق — الشيـ

على و بنوه

أديب — قادة ا

- فى الاجتماع :

نظام الأثينيين

- فى التربية :

مستقبل الثقافة فى

- فى سلسلة اقرأ :

أحلام شهر زاد

الوعد الحق

صوت أبى العلاء

الحب الضائع

رحلة الربيع

المعذبون فى الأر